Arab_Books

دراسة

تيري إيغلتُن

العقل والإيمان والثورة

تأملات في مناظرة حول الله

ترجمة: أسامة منزلجي

العقل، والإيمان، والثورة

تأملات في مناظرة حول الله

دراسة

Author: **Terry Eagleton**

Title: **Reason, Faith, and Revolution: Reflections on the God Debate**

Translation: **Osama Menzlchi**

Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**

P.C.: **Al-Mada**

First Edition: **2017**

Copyright © **Terry Eagleton 2009**

Originally published by Yale University Press

اسم المؤلف: **تيري إيغلتن**

عنوان الكتاب: **العقل، والإيمان، والثورة: تأملات في مناظرة حول الله**

ترجمة: **أسامة منزلجي**

تصميم الغلاف: **ماجد الماجدي**

الناشر: **دار المدى**

الطبعة الأولى: 2017

جميع الحقوق محفوظة: **دار المدى**

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.

تيري إيغلتُن

العقل، والإيمان، والثورة

تأملات في مناظرة حول الله

ترجمة: أسامة منزلجي

Tele: @Arab_Books

إهداء

في ذكرى ليو بايل[1]

١- ليو بايل (١٩٣٢- ١٩٩٩): طبيب ومُحلّل نفسي.

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

محاضرات مؤسسة دوايت هارينغتُن تيري
حول الدِّين على ضوء العِلم والفلسفة

إنَّ إنجاز الموهبة يُعلن أنَّ «ليس الهدف من هذه المؤسسة الإعلاء من شأن البحث العلمي والاكتشاف، بل هو تمثُّل وتأويل ما اكتُشِفَ أو سيُكتَشَف لاحقاً، وتطبيقه على الخير الإنساني، خاصة بإنشاء حقائق من العلم والفلسفة داخل بُنية ديانة أرحب وأنقى. إنَّ المؤسِّس يعتقد أنَّ مثلَ تلك الديانة سوف تستحضِر بقدرٍ كبير جهداً عقليّاً من أجل تحسين الظروف الإنسانية وتقدُّم الجنس البشري في القوّة ورُقيّ الشخصية. من أجل تحقيق هذه الغاية نتمنى أنْ يُلقي رجالٌ بارزون في مجالهم الخاص سلسلة من المحاضرات في عِلم الأخلاق، وتاريخ الحضارة والدِّين، والبحث التوراتي، وفي العلوم كلها وفروع المعرفة التي لها صِلة بالموضوع، وقوانين الطبيعة كلها، خاصة الارتقاء... أيضاً تأويلات الأدب وعِلم الاجتماع بصورة تتواءم مع روح هذه المؤسسة، لكي تتغذّى الرُوح المسيحية تحت أكمل ضياء من معرفة العالم، ولكي نُساعد الإنسانيةِ لبلوغ أعلى ذرى رخائها وسعادتها على هذه الأرض». هذا العمل يُشكل آخر ما كُتِبَ عن هذه المؤسسة.

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

مقدمة

لقد تسبَّبَ الدّين ببؤس لا يوصَف في الشؤون الإنسانية. في أغلب الأحيان كان حكَاية تُثير الاشمئزاز عن التعصّب الأعمى، والتطيُّر، والتمنّي، والفكر المُستبد. لذلك فأنا أكنُّ الكثير من التعاطُف مع نُقّاده العقلانيين والإنسانيين. ولكن يقول هذا الكتاب أيضاً إنَّ غالبية هؤلاء النقّاد يرفضون الدِّين بسهولة. وعندما يتعلّق الأمر بالعهد الجديد، على الأقلّ، فإنَّ ما يكتبون عادة لا يعدو كونه صورة كاريكاتيرية لا قيمة لها للشيء الحقيقي، متأصّلاً في قدرٍ من الجهل والتحامُل تماشياً مع ما يحتويه الدِّين. تماماً كرفض المساواة بين الجنسين على أساس آراء كلينت إيستوود[1] فيها.

إنني في هذا الكتاب أُجادلُ الجهل والتحامُل. فإنْ كان اليسار اللاأدري[2] لا يتحمَّل الكسل الفكري عندما يتعلّق الأمر بالكتب المقدسة اليهودية والمسيحية، فذلك ليس فقط لأنَّ مواجهة الخصم شديد الإقناع يستلزم العدالة والصدق، بل أيضاً لأنَّ الراديكاليين قد يكتشفون بعض الأشياء البصيرة القيّمة في التحرُّر الإنساني، في منطقة يقفُ فيها اليسار السياسي وهو في أمسّ الحاجة إلى الأفكار الجيدة.

١- كلينت إيستوود: الممثل الأميركي المعروف.

٢- اللاأدري: الذي يؤمن بأنَّ وجود الله وطبيعته وأصل الكون أمورٌ لا سبيل إلى معرفتها. - المترجم

Tele: @Arab_Books

إنني لا أدعو مثل هؤلاء القرّاء إلى الإيمان بهذه الأفكار أكثر من إيماني بالملاك جبريل، وبعصمة البابا، وبفكرة أنَّ يسوع مشى على الماء، أو بالادّعاء بأنه ارتفعَ إلى السماء أمام عيون مُريديه. فإذا حاولت في هذا الكتاب أنْ «أقول من بطني» ما أعتبره نسخة المزمور المسيحي المتعلِّق بالراديكاليين والإنسانيين، فلا أرغب في أنْ يُساء فهمي ويُقال عني إني أبله. لكنَّ الكتب المقدّسة اليهودية والمسيحية لديها الكثير لتقول كإجابة عن بعض المسائل الحيوية – كالموت، والمُعاناة، والحب، وإنكار الذات، وما شابهها – التي يَلزَم اليسار الصمتَ المُربِك حيال معظمها. لقد حان الوقت لإنهاء هذا الحياء السياسي المُعيق.

إنَّ هذا الكتاب قائم على أساس محاضرات مؤسسة دوايت هـ. تيري التي ألقيتها في جامعة ييل في شهر نيسان (أبريل) عام ٢٠٠٨. وقد احتفظت بالنبرة الحواريّة لكل محاضرة كبداية، لكنها سرعان ما تتلاشى لتتحوَّل إلى أسلوب تقليدي أكثر في النقاش. إنني شديد الامتنان للقيِّمين على محاضرات تيري، وخاصة لوريلي فيلد، لجعل إقامتي في نيو هافن مقبولة اجتماعيّاً ومُجزية ثقافيّاً. والأمر نفسه أوجِّهه إلى العديد من الطلاب والأكاديميين الذين حضروا تلك الجلسات.

Tele: @Arab_Books

العقل، والإيمان، والثورة

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

الفصل الأول

حثالة الأرض

لقد شعرتُ بـأنَّ من سِمات الطبيعة العفوية بصورة مُبهجة للمجتمع الأميركي أنْ أتلقّى رسالة من جامعة ييل تدعوني فيها إلى إلقاء محاضرات تيري. وطبعاً كنتُ متعوداً منذ زمن بعيد على أسلوب التعامُل بالاسم الأول الذي تتسم به الثقافة الأميركية، لكنَّ هذه المعاملة الوديّة الطويلة الأمد كانت مع ذلك مُفاجئة لي. بدأتُ أتساءل إنْ كانت تلك الأحاديث، عندما كان كارل ينغ يُلقيها، معروفة بحب باسم محاضرات تشك، وتغيَّرت لاحقاً لتُصبح محاضرات ماغي عندما كان المتحدث هو مارغريت ميد. على أية حال، أشعر بأنه مطلوب مني أنْ أُقدِّم شيئاً في مقابل هذا العرض العفوي للكياسة؛ لذلك أصررتُ وأنا هنا في ييل على أنْ أكون معروفاً ليس بالبروفسور إيغلتُن، بل بالدكتور إيغلتُن. لكي لا يدّعي أحد بأننا معشر البريطانيين لا نعرف كيف نسترخي.

ابتهاجي بهذه العفوية سرعان ما هدأ عندما تابعت القراءة لأكتشف أنَّ محاضرات تيري مُكرّسة تقليديّاً لموضوعَين اثنين يُحرجني أنْ أقول إنني أكاد لا أعرف عنهما أيّ شيء، أعني بهما العِلم والدِّين. أما عن الصِّلة بينهما، التي هي من أبرز اهتمامات محاضرات تيري،

Tele: @Arab_Books

فإنَّ إحدى تجاربي القليلة عنها مررتُ بها في عهد طفولتي متمثّلة على هيئة مُدير مدرسة، اسمه الأخ كولومبا، شنيع، يخشاه الجميع ويمقتونه، أستاذ كيمياء ورجل دين، الدِّين بالنسبة إليه شيءٌ مُجرّد بصورة وحشية مثل قوانين العلم، وبوصفه كاثوليكيّاً رومانيّاً فاشستيّاً كان متآلفاً أكثر بكثير مع أنابيب الاختبار منه مع الكائنات البشرية[١].

لكنني لم أسمح أبداً، أبداً، للجهل بمنعي من فعل أيّ شيء، ولهذا ترونني أقف هنا أمامكم - وإنْ كنتُ يجب أنْ أعترف بأنني بدأتُ مسيرتي الفكرية كلاهوتيّ هاوٍ، خلال أيام ما بعد مجلس الفاتيكان الثاني[٢] المتهورة تلك في حِقبة الستينيات التي كان كل مَنْ في استطاعته أنْ يتهجى اسم شيليبيكس Schillebeeckx[٣] يُجرّ على الفور ليُضَم إلى هيئة تحرير أية صحيفة ذات طابع لاهوتي مُبهَم مقرّها في نيجميغن[٤]. وكل ما أستطيع أنْ أدّعي في هذا المجال هو أنني أعتقد أنَّ لديّ من المعرفة باللاهوت ما يكفي ليمكنني من تحديد

١- بنوع من المعروف في غير محلّه، استبدلت اسم المدير وجعلته «داميان» في مذكراتي المعنونة «***حارس البوابة***» (لندن: ألن لين / دار بنغوين، ٢٠٠١)، وقد تلقّيت التوبيخ لفعلي هذا من العديد من ضحاياه السابقين. وعلى الأثر ها أنا أكشف النقاب عن هويته الحقيقية هنا. - المؤلف

٢- مجلس الفاتيكان الثاني؛ أو فاتيكان ٢: كُرِّسَ لتحديد العلاقات بين الكنيسة الكاثوليكية والعالم المعاصر. عُقدَ بين عامي ١٩٦٢ - ٦٥. - المترجم

٣- اسمه بالكامل إدوارد كورنيليس فلورينتيوس شيليبيكس (١٩١٤ - ٢٠٠٩): لاهوتي كاثوليكي بلجيكي. درّسَ اللاهوت في بلدة نيجميغن. لديه مؤلفات لاهوتية. كان عضواً في النظام الدومينيكاني. صاحب مقولة «**على المفكرين جميعاً، حتى وإنْ نجحوا في توسيع حدود عصرهم، أنْ يبقوا دائماً أطفال عصرهم**». - المترجم

٤- نيجميغن: بلدة تقع في شمال هولندا، مقاطعة غيلدرلاند، على شاطئ نهر وال؛ وهي أقدم بلدة في ذلك البلد. وُقِّعَت فيها معاهدة سلام بين الملك لويس الرابع عشر، وهولندا، وإسبانيا من جهة، والإمبراطورية الرومانية المقدسة. - المترجم

Tele: @Arab_Books

متى يتحدث شخص مثل ريتشارد دوكينز[٥] أو كريستوفر هيتشنز[٦]، اللذين سوف أُشير إليهما من الآن فصاعداً بلقب واحد ذي دلالة هو «ديتشكينز»[٧] من قفا عنقه. ولكن قبل أن أتسرَّع في دمج كلمتي هيتشنز ودوكينز بصورة نهائية، دعوني أُبيِّن الفرق بين الأسلوب الأنيق، والمُسلّي، والمُتَّقد بصورة رائعة، والسّمة التي تجبركم على قراءة كتاب الأول *«الله ليس أكبر»*، وكتاب دوكينز *«وهم الله»* الذي لا يستحق أيّاً من تلك النعوت. لقد بدأتْ ضراوةُ دوكينز المذهبية تنهشُ في أسلوبه النثريّ. وربما يجب أنْ أُضيف أنه عندما كان كريستوفر هيتشنز لا يزال مجرد كريس المتواضع، كنتُ وإياه رفاقاً نرتدي زيّ حزب اليسار المتطرّف السياسي نفسه. لكنه انتقل إلى أمور أرقى، مُكتشفاً في سياق ذلك قدْراً من النُّضج السياسي كمواطن كامل في مدينة بابل، في حين إني بقيتُ عالقاً في الخندق السياسي القديم نفسه، في حالة من توقف التطور إنْ كان لهذا وجود.

ينبغي أيضاً أنْ أعترف بأنه بما أنَّ اللاهوت الوحيد الذي لا أعرف الكثير عنه هو اللاهوت المسيحي، في مُقابل تلك الأنـواع التي لا أعرف عنها أيّ شيء، سوف أقصر نقاشي على ذاك وحده، على أساس أنَّ من الأفضل أنْ أكون محدود التفكير على أنْ أكون وقحاً.

٥- ريتشارد دوكينز (ولد عام ١٩٤١): عالم بالحيوان. من أعماله «**الجينة الأنانية**»، و«**صانع الساعات الأعمى**»، و«**نهر ينبع من عدن**»، و«**أعظم عرض في العالم**» – المترجم

٦- كريستوفر هيتشنز (١٩٤٩- ٢٠١١): كاتب وصحفي إنكليزي-أميركي. له كتب ومقالات ونقد وأعمدة في الصحف. صدرت مذكراته تحت عنوان «**هيتش-٢٢**» عام ٢٠١٠، وفي هذا العام ٢٠١١ صدرت له مجموعة من المقالات. توفي متأثراً بمرض السرطان – المترجم

٧- من ناحية أخرى سوف يُشار إلى «ديتشكينز» خلال ترجمة هذا الكتاب غالباً على أنه مفرد وفي مرات قليلة على أنه مُثنى، حسب الضرورة. – المترجم

Tele: @Arab_Books

أما بالنسبة إلى العلم، فمعرفتي به محصورة إلى حدّ كبير ضمن حقيقة أنَّ غالبية أتباع ما بعد الحداثة يحتفون به بكثيرٍ من الريبة – وهذا في رأيي سبب راسخ وكاف للتصديق بكل حماسة على أيّ شيء تقريباً يقوله. وبالإضافة إلى العلم والدِّين، سوف أتحدث أيضاً في هذه المحاضرات عن السياسة، وهذا يعني أنَّ اثنين من مواضيعي الثلاثة، السياسة والدِّين، تصادف أنهما الموضوعان المُحرَّمان تقليديّاً على المناقشة داخل الحانات الإنكليزية.

بقدر ما أبغض اللجوء إلى السيرة الذاتية[٨]، لا يمكنني هنا أنْ أتفادى ذكر نقطة شخصية. لقد نشأتُ ككاثوليكي تقليدي من أصل أيرلندي في الطبقة العاملة الإنكليزية، وتشرّبتُ في طفولتي مجموعة من المعتقدات المنمَّقة والصلدة، اكتشفتُ لاحقاً وأنا مندهش أنه كان ينبغي أنْ يكون لها بعض التأثير على الوجود الإنساني. وكأنني نشأت في كنف عائلة ماركسية تقليدية صارمة، أتعلَّم وأنا جالس على ركبتي والديّ عدداً من الصيغ حول إنكار الإنكار وتحوُّل الكمّ إلى كيف، دون أنْ أعلم أنَّ على ذلك كله أنْ يكون ذا صلة ما بقضايا الحرية والعدالة الإنسانيين. وبما أنَّ المعتقد الديني الذي تعلَّمته بدا لي وأنا أبلغ مرحلة الدراسة أنه يُنير الوجود الإنساني بعمقٍ يُعادل نقيق ضفدع، بدا من الطبيعي عندما وصلت إلى المرحلة الجامعية أنْ أنبذ هذا الأسلوب في الحديث برمّته باسم شيءٍ أوثق صِلة وأشدّ إنسانيّة.

في جامعة كمبريدج أوائل حقبة الستينيات، كان هذا معروفاً إلى جانب أشياء أخرى بأنه المذهب الوجودي، وهي عبارة شكّلتْ في

٨- ربما يمكن وصف مذكراتي «**حارس البوابة**» (لندن: ألن لين / بنغوين، ٢٠٠١) بأنها لا سيرة ذاتية. – المؤلف.

[ستصدر ترجمة هذا الكتاب قريباً بالعربية من ترجمة مترجم هذا الكتاب] – المترجم.

Tele: @Arab_Books

مُعظمها أسلوباً مهيباً وجوديّاً لقول إنَّ المرء قد بلغ سن التاسعة عشرة، وبعيداً جداً عن المنزل، ويشعر بالكآبة، كأنه طفل يحبو في مدرسة حضانة لا يدري ما الذي يجري من حوله. وبعد ذلك بعقدَين من الزمن أصبحتْ هذه الحالة أكثر إلحاحاً بين المراهقين المتأخرين، لكنها أضحت الآن تُسمّى ما بعد البنيوية. ولكن كانت هناك أيضاً الاشتراكية، التي قابلتُها وأنا أنمو مع نمو النزعة الجمهورية الأيرلندية، والتي بدت – في مرحلة من عداوات الحرب الباردة، وأسلحة الدمار الشامل، والثورة المُناهضة للاستعمار – أوثق صِلة بقليل بالجنس البشري من مذهب الأعراف[٩] (وهي حالة روحية ينبغي عدم الخلط بينها وبين رقصة شائعة في منطقة الكاريبي)، أو تُذكِّر بالاسم اللاتيني لنمط العبادة المناسب لتلك اللجان الفرعية البيروقراطية بصورة كئيبة المعروفة باسم القديسين.

ولكن اتَّضحَ أنَّ الأمور ليست بمثل هذه البساطة. إذ ما أنْ وصلتُ إلى كمبريدج، إلى مرحلة جديرٍ بأية شخصية حساسة بقدر معقول، ومُتبصّرة باعتدال، أنْ ترفُض عندها الهراء الذي كنتُ قد تعلّمته في المدرسة، حتى انطلقَ مجلس الفاتيكان الثاني، إلى جانب نسخة من المزمور المسيحي الذي بدا لي أنّه ينطوي على قدر من الحس الإنساني والسياسي المُلحّ. ولا داعي إلى القول إنَّ هذا جلب معه خيبات أمل. وإعادة التفكير التي تلت بدا أنها تتطلّب عملاً شاقّاً، كما تقول تلك الشخصية الواردة في رواية ب. ج. وودهاوس[١٠] عندما بدا أنَّ مُحاوره

٩- الأعـراف، أو limbo: في المسيحية، تعني الحرمان من الجنة بسبب عدم التعميد. والكلمة نفسها هي اسم لرقصة شائعة في منطقة الكاريبي. – المترجم

١٠- بي. ج. وودهاوس (١٨٨١ –١٩٧٥): روائي إنكليزي فكاهي. صاحب عدد هائل من الروايات والقصص القصيرة (أكثر من تسعين كتاباً) انتقد فيها الطبقة الأرستقراطية الإنكليزية بسخرية. لقي انتشاراً واسعاً في أميركا في وقت من الأوقات. – المترجم

Tele: @Arab_Books

لا يفهم كلمة «خنزير». إذ من الأسهل دائماً طبعاً أنْ يرفض المرء منظومة دينية ما دون مقابل، كأنْ يُنكر بابتهاج (مثلاً) وجهة نظر من المسيحية لا يتبناها بجديّة إلّا غريبو الأطوار في المقام الأول، وبعضهم يكمنون بارتباك داخل كهوف وهم من فرط الإحساس بالخزي بحيث يخشون الخروج لمواجهة بقيتنا. وهذا الكلام ينطبق على أكثر من ديانة. من الأسهل الاعتقاد بأنَّ نيتشه كان مشروعاً نازيّاً على إدراك أنه إرهاص لفوكو[١١]. ولكي توفِّر على نفسك بذل عناء الانتباه إلى الماركسية، يمكنكَ أنْ ترفضها على أساس أنها تحلم بعالم من المساواة يكون فيه الرجال والنساء تعساء روحيّاً وبؤساء ماديّاً على قدم المساواة.

إنَّ ما يُسمّى باللاهوت الجديد الذي تعثّرت به وأنا في الثامنة عشرة أو نحوها، بمساعدة بضعة رهبان دومينيكان خارجين والعديد من أكواب الجعة المُرَّة، لم يكن جديداً على الإطلاق. كان جديداً فقط على بابويّين شبان أغرار أمثالي. لم يكن يرى الله الخالق كنوع من صانع جبّار أو رئيس تنفيذي كونيّ، كما كانت مدرسة ريتشارد دوكينز التي تمثّل العقلانية الليبرالية في القرن التاسع عشر تتصوَّر – ما يُسميه هربرت ماكيب[١٢] «الفكرة الوثنية عن الله بوصفه مخلوقاً جبّاراً وضخماً جداً»[١٣]. إنَّ دوكينز يعتقد خطأً أنَّ المسيحية تقدِّم

١١- ميشيل فوكو (١٩٢٦ - ١٩٨٤): فيلسوف فرنسي. رفض علم الظواهر (الفينومينولوجيا) والوجودية واهتم بكيفية بناء أشكال المعرفة. اهتم خاصة بالانحراف الاجتماعي لدى المجانين والمرضى والمجرمين، واعتقد أنهم مُضطهدون بسبب المعرفة المُتّفق عليها في زمنهم. تأثّر كثيراً بنيتشه وطوّر تحليل عمل القوة (السلطة) التي وضعها نيتشه. له «**الجنون والحضارة**» – المترجم

١٢- هربرت ماكيب (١٩٢٦ - ٢٠٠١): رجل دين دومينيكاني، ولاهوتي وفيلسوف من أصل إنكليزي-أيرلندي. – المترجم

١٣- من كتاب هربرت ماكيب «***Faith within reason***» (لندن: كونينوم، ٢٠٠٧) صفحة ٧٦.

Tele: @Arab_Books

مشهداً للكون مُنافساً لذاك الذي يُقدِّمه العلم. وكالفيلسوف دانيال سي. دينيت[١٤] في كتابه «فكّ السّحر»، يعتقد أنها نوع من النظرية الزائفة أو التفسير الزائف للعالم. بهذا المعنى، هو أقرب شَبَهاً بشخص يعتقد أنَّ الرواية هي مقطوعة رديئة من علم الاجتماع، ويعجز تالياً عن فهم الهدف منها. فلماذا نزعج أنفسنا بقراءة روايات روبرت ميوزيل[١٥] في حين إنَّ في استطاعتنا أنْ نقرأ مؤلفات ماكس ويبر[١٦]؟

إنَّ الله الخالق، بالمقارنة، بالنسبة إلى توما الأكويني، ليس فَرَضيّة حول كيفية نشأة العالَم. إنها لا تُجاري، مثلاً، النظرية القائلة إنَّ الكون ناتج عن تقلّب عشوائيّ في فراغ الكمّ quantum vacuum. في الحقيقة، لقد كان توما الأكويني على أتمّ الاستعداد للتفكير في إمكانية ألّا يكون للعالم أصل على الإطلاق. ودوكينز يرتكب خطأً في النوع، خطأً في التصنيف، حول طبيعة ما يؤمن به المسيحيّ. إنه يتصوَّر أنه إما نوع من العلم الزائف، أو، إذا لم يكن كذلك، أنه يحلّ نفسه ليرتاح من الحاجة إلى إيراد دليل برمّته. ولديه أيضاً فكرةٌ عالم عمّا يُشكّل دليلاً. إنَّ الحياة بالنسبة إلى دوكينز سوف تبدو أنها تفرِّقُ بَدقة وبالتساوي بين الأشياء التي تستطيع أنْ تبرهن عليها دون أدنى قدر من الشك، والإيمان الأعمى. إنه يفشل في أنْ يفهم أنَّ كل الأشياء الأشدّ إثارة للاهتمام لا تسير في أيٍّ من تينك الاتجاهَين. وكريستوفر هيتشنز يرتكب الخطأ

١٤- دانييل كليمنت «دان» دينيت الثالث (ولد عام ١٩٤٢): فيلسوف وكاتب وعالم إدراكي أميركي، تركّزت أبحاثه على فلسفة العقل وفلسفة العلم وفلسفة علم الأحياء والعلم الإدراكي، ويُعرف بأنه أحد «**فرسان الإلحاد الجديد الأربعة**» - المترجم

١٥- روبرت ميوزيل (١٨٨٠ - ١٩٤٢): روائي نمساوي. روايته الضخمة «**إنسان بلا ملامح**» ترصد أمراض العالم الغربي بين الحربين العالميتين في القرن العشرين. - المترجم

١٦- ماكس ويبر (١٨٦٤ - ١٩٢٠): عالم اقتصاد واجتماع ألماني. - المترجم

Tele: @Arab_Books

القاتل نفسه، بادّعائه في كتاب «*الله ليس أكبر*» أنه «بفضل التيليسكوب والمايكروسكوب، لم يعُد [الدّين] يُقدّم أيَّ تفسير لأيِّ شيء هامّ». لكنَّ المسيحية منذ البداية لم يكن الهدف منها أبداً أنْ تكون *تفسيراً* لأيِّ شيء. إنَّ الأمر أشبه بقول إنه بفضل آلة التحميص الكهربائية بات في وسعنا أنْ ننسى كل شيء عن تشيخوف.

ليس لدى العهد الجديد أيَّ شيء يقوله عن الله الخالق. في الحقيقة، أعتقد أنه عندما يكون العِلم والدِّين أشدّ تقارباً أحدهما من الآخر بالنسبة إلى المسيحي لا يحدث ذلك عبر ما يقولان عن العالَم، بل من خلال فعل المخيّلة الخلّاقة الذي يمارسه كلا المشروعَين – الفعل الخلّاق الذي يعثر المؤمن على منبعه في الروح القُدس. إنَّ علماء من أمثال هايزنبرغ[١٧] أو شرودنغر[١٨] هم فنّانون مُبدعون متفوقون، الذين عندما يتعلّق الأمر بالكون يعون أنَّ الأنيق والجميل هما الأجدر بكونهما حقيقيين من القبيح والمشوَّش. ومن وجهة نظر علمية، الحقيقة الكونية هي بالمعنى الأعمق مسألة أسلوب، كما أدرك أفلاطون، وإرل شافتسبري[١٩]، وجون كيتس. وهذا على الأقل أحد المعاني التي يكون فيها العِلم مُثقلاً بالقيمة بشكل كامل ومناسب.

إنَّ الله بالنسبة إلى اللاهوت المسيحي ليس صانعاً جبّاراً. إنه بالأحرى ما يدعم الأشياء كلها في الوجود بحبّه، وسوف يبقى هكذا

١٧– فرنر كارل هايزنبرغ (١٩٠١ –١٩٧٦): فيزيائي ألماني. ساهم في آليات الكوانتوم وصاغ مبدأ الشك. نال جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٣٢. – المترجم

١٨– إرفن شرودنغر (١٨٨٧ – ١٩٦١): فيزيائي نمساوي. اكتشف معادلة الموجة. تقاسم جائزة نوبل للفيزياء عام ١٩٣٣. – المترجم

١٩– الإرل الأول لشافتسبري؛ لقب أنتوني آشلي كوبر (١٦٢١ – ١٦٨٣): رجل دولة إنكليزي، وشخصية بارزة في حزب الأحرار المناهض للملك تشارلز. – المترجم

Tele: @Arab_Books

حتى وإنْ لم تكن للعالم أية بداية. إنَّ الخلق لا يعني رفع الأشياء فوق مستوى الأرض. بالأحرى، إنَّ الله هو سبب وجود شيء بدل لاشيء، هو حالةُ إمكانية وجودِ أيّ كيان مهما كان. ولكن بما أنه هو نفسه ليس كائناً، لا ينبغي اعتباره أحد تلك الأشياء، كما يُعتَبَر شعوري بالحَسَد وقدمي اليُسرى شيئين. إنَّ الله والكون ليسا اثنين. وفي فعل تحطيم الأصنام اليهودي، يُمنَع علينا أنْ ننقش صوراً لهذا اللاكيان لأنَّ الصورة الوحيدة له هي الكائنات البشرية. وهناك وثيقة تسجّل صراع الله الأبدي، والمُحيط، مع الدِّين المُنظَّم، المعروف باسم الكتاب المُقدّس. إنَّ الله الخالق ليس مُهندساً كونيّاً يضعُ تصميماً عقلانيّاً رائعاً يُدهش به هيئة البحث الموهوبة التابعة له إلى أقصى مدى، بل فنان، ومُحبّ للجمال حتى أخمص قدميه، جعل العالم بلا أية غاية عملية واضحة بل ببساطة حبّاً في ذلك وابتهاجاً به.

أو، كما يُقال بلغة لاهوتية أكثر، بلا أيِّ سبب مهما كان. لقد صَنَعَه كهدية، كشيء زائد، كلَفْتة مجانية – بلا أيِّ سبب، بدل أنْ يكون لضرورة مقيتة. في الحقيقة، بالنسبة إلى اللاهوت المسيحي لا ضرورة للعالم على الإطلاق، ولعلّ الله ندمَ منذ زمن طويل على استسلامه لدافع عاطفيّ ألهمه بإطلاقه أصلاً. لقد خلَقه بدافع الحب، لا الحاجة. لم يكن ليعود إليه بأية فائدة. إنَّ الخلْق هو الـ acte gratuit (العمل المجاني) الأصلي. والعقيدة القائلة إنَّ العالمَ خُلِقَ من لاشيء المقصود به تنبيهنا إلى طبيعة الكون الطارئة المُثيرة – حقيقة أنَّه، مثل كل عمل فني حديث، كان يمكن أيضاً ألّا يحدث، وكغالبية النساء والرجال ذوي التفكير العميق دائماً تُخيِّم عليه إمكانية ألّا يوجد. إنَّ الخلق «دون أيّ سبب» ليس دليلاً على مدى براعة الله الشيطانية، وهو القادر على الاستغناء عن أشد المواد الأوليّة بدائيّة، بل على حقيقة أنَّ العالم ليس تراكُماً حتميّاً لعمليّة سابقة، أو نتيجة سلسلة عنيدة من

Tele: @Arab_Books

السبب والأثر. وأية سلسلة سابقة من السببيّة يجب أنْ تشكّل جزءاً من العالم، وهكذا لا تُعتَبَر أصلاً له. ولأنه لا ضرورة للكون، لا يمكننا أنْ نستدل على القوانين التي تحكمه من مبادئ بديهية، لكننا في حاجة بدل ذلك إلى معرفة آليّة عمله. هذه مهمة العِلم. وعليه هناك صِلة غريبة بين عقيدة الخلق من دون سبب والحياة المهنية لريتشارد دوكينز. فلولا الله، لكان دوكينز عاطلاً عن العمل. وهكذا فإنَّ من الفظاظة الشديدة أنْ يُشكك في وجود مُستخدِمه.

إذن، وجود العالم هو انتقاد لسببيّة صلبة، وبالتالي دليل على الحرية التي يغار منها ديتشكينز، بالمعنى الشخصي والسياسي، وهما على صواب في ذلك. وعلى هذا فالعالم ينتمي باطراد إلى تلك الفئة النادرة من الأشياء الموجودة حصراً لذاتها بعيداً عن أية غاية نفعيّة كئيبة، بطريقة جديرة ببثّ البهجة في قلب أوسكار وايلد[٢٠] – وهو تصنيف يحتوي، بالإضافة إلى الله، الفنَّ، والشرَّ، والإنسانية. وجزء من تشارك العالم مع الله في حريته أنْ يعمل وحده. وخِلافاً لجورج بوش، الله ليس حاكماً من النوع الذي يتدخّل في شؤون غيره. واستقلاليّة العالم هذه هي التي أوجدت العِلم وريتشارد دوكينز أصلاً. وديتشكينز، الذي يعتقد أنّه لا حاجة إلى إخضاع الله للبحث العِلمي، قد يهمه أنْ يعلم أنَّ أعظم اللاهوتيين في التاريخ، من أمثال الأكويني الذي أشرتُ إليه توّاً، يوافقون تماماً. إنَّ العِلم مُلحد كما ينبغي أنْ يكون. العِلم واللاهوت في الغالب لا يتحدثان عن الأشياء نفسها، إلّا بقدر ما يفعل ذلك طب الأسنان المعوجّة والنقد الأدبي. وهذا أحد أسباب سوء الفهم الغريب الناشئ بينهما.

٢٠– أوسكار وايلد (١٨٥٤ – ١٩٠٠): كاتب مسرحي أيرلندي. صاحب «***مروحة الليدي ويندمير***» و«***سالومي***»، و«***أهمية أنْ تكون إرنست***»، وقصة «***صورة دوريان غراي***». المنادي بمبدأ الفن لأجل الفن ذاته. – المترجم

Tele: @Arab_Books

إنَّ الله، باختصار، في كل ذرة منه لا معنى له بصورة مجيدة كما يُخبرنا الثنائي ديتشكينز. إنه بمثابة انتقاد دائم لسبب ذرائعي. ويقول جون سي. لينوكس[٢١] في كتابه ***«حانوتي الله»***: إنَّ بعض العلماء والفلاسفة يعتقدون أنَّ علينا ألّا نتقصّى الهدف من الكون لأنّه ببساطة، بالنسبة إليهم، غير موجود[٢٢]. لكنهم في هذا يتفقون، دون قصد، مع فقهاء اللاهوت. فإذا كنا مخلوقات الله، فذلك في المقام الأول لأننا، مثله، موجودون (أو ينبغي أنْ نوجد) فقط لمتعة ذلك. والسؤال الذي تطرحه الرومانسية الراديكالية، التي لهذه الأهداف تتضمن كارل ماركس، هو ما هي التحوّلات السياسية الضرورية ليُصبح هذا الكلام ممكناً عمليّاً. إنَّ يسوع، خلافاً لمُعظم المواطنين الأميركيين المسؤولين، يبدو أنه لا يقوم بأيّ عمل، ومُتَّهَم بأنه شَره وسكّير. إنه يُقدَّم إلينا على أنه بلا منزل، ولا ممتلكات، ومتبتّل، ومتجوِّل، ومُهمّش اجتماعيّاً، ومُحتَقَر من قومه، وبلا تجارة، وصديق للمنبوذين والمُشرّدين، وكاره للممتلكات المادية، ولا يخشى على سلامته، ولا يأبه لأنظمة الطهارة، وينتقد السلطة التقليدية، وشوكة في جنب المؤسسة الرسمية، وسوط مُسلَّط على الأغنياء وذوي النفوذ. وعلى الرغم من أنه لم يكن ثوريّاً بالمعنى الحديث للكلمة، إلّا أنَّه يتبع أسلوب حياة الثوريّ. يبدو كأنه وسطٌ بين الهيبي ومقاتل حرب العصابات. يحترم يوم العطلة الدينية ليس لأنه يعني الذهاب إلى الكنيسة بل لأنه يمثِّل فراراً مؤقتاً من عبء الكدّ. يوم العطلة هو يوم راحة، وليس يوم

٢١- جون سي. لينوكس: رياضي وفيلسوف في العلم ومُحاضر في جامعة أوكسفورد ويحمل عدة مناصب. مسيحي ملتزم ومناهض لأفكار المؤلِّفين موضوع هذا الكتاب، ريتشارد دوكينز وكريستوفر هيتشنز. - المترجم

٢٢- كتاب ***«God's Undertaker»*** لـ جون سي. لينوكس. (أوكسفورد: لايون، ٢٠٠٧)، صفحة ٦٢.

Tele: @Arab_Books

تديُّن. وأحد أفضل الأسباب لتكون مسيحيّاً، كما لتكون اشتراكيّاً، هو أنكَ لا تحب أنْ تُضطر إلى الذهاب إلى العمل، وترفض الناحية الوثنية المُخيفة فيه الواسعة الانتشار في بلدان مثل الولايات المتحدة. والمجتمعات المتحضّرة حقّاً ليست لديها وجبات إفطار تمدّ بالطاقة تُقدّم قبل الفجر.

إذن الصراع بين العلم واللاهوت ليس حول كيف وُجِدَ الكون، أو أيّ مدخل يستطيع أَنْ يمدّنا بأفضل «تفسير» له. إنه خِلاف حول المدى الذي يجب أنْ يعود إليه المرء، ولكن ليس بالمعنى الزمني. بالنسبة إلى اللاهوت، العِلم لا يعود بقدر كافٍ إلى الوراء – ليس بمعنى أنه يفشل في افتراض وجود خالق، بل بمعنىً أنه لا يطرح أسئلة مثل لماذا يوجد أيّ شيء أصلاً، أو لماذا لا نمتلك مُدرَكاً حقّاً لدينا. لعل هذه أسئلة زائفة على أية حال؛ بعض الفلاسفة يعتقدون ذلك حتماً. لكنّ فقهاء اللاهوت، كما برهن روان ويليامز[٢٣]، مهتمون بالسؤال لماذا نطلب تفسيرات أصلاً، أو لماذا نفترض أنَّ الكونَ يتماسك بطريقة تجعل التفسير ممكناً[٢٤]. من أين أتت أفكارنا حول التفسير، والقياسيّة، والوضوح؟ بل كيف نفسّر العقلانيّة والوضوح نفسيهما، أمْ أنَّ هذا السؤال سطحيّ أو مفرط الصعوبة ولا يمكن الإجابة عنه؟ ألا يمكننا أنْ نفسّر العقلانيّة لأنَّ ذلك يعني أنْ نفترض وجودها مُقدّماً؟ ومهما كان رأينا في تلك الأسئلة، فإنَّ العلم كما نعرفه ممكن فقط لأنَّ العالم يكشف عن قدرٍ من نظام وتماسُكٍ داخليين – ممكن، بمعنى، لأسبابٍ تقريباً جماليّة. هل من المناسب أنْ نسأل من أين نشأتْ هذه

٢٣– روان ويليامز (ولد عام ١٩٥٠): أسقف أنجليكاني، شاعر ولاهوتي. أسقف كانتربري العاشر. مُحاضِر، ويُتقن تسع لغات. – المترجم

٢٤– روان ويليامز، في محاضرة «**How to Misunderstand Religion**» التي ألقاها في جامعة سوانسي، ويلز، في ١٣ تشرين الأول (أوكتوبر) ٢٠٠٧.

Tele: @Arab_Books

القوانين؟ هل يمكن للعِلم أنْ يكتشف ذلك ذات يوم، أمْ أنَّ هذا السؤال يقع خارج نطاقه؟

هل من العَجَب أنْ نفهم كل ذلك القدر من البُنية العميقة للكون، دون أية فائدة ثورية ظاهرة؟ أمْ أنّها مجرد مُصادفة سعيدة؟ هل كان آينشتاين مُقدماً على اكتشاف ما أم كان ببساطة يذوب شعراً عندما لاحظ أنَّ «الشيء الأشد إبهاماً في الكون هو أنه مفهوم»[٢٥]، مُضيفاً أنَّ على المرء ألّا يتوقع بداهة مثل هذا القدر العالي من النظام في العالم؟ هناك أولئك الذين يعتبرون أنَّ الإنجازات العلمية الرائعة جعلت الدّين شيئاً زائداً عن الحاجة؛ وهناك آخرون يرون أنَّ تلك الإنجازات النَاجحة نشأتْ من حقيقة أساسية – هي أنَّ عقولنا تبدو بصورة ما متناسقة مع مادة العالم الأساسية – وهي بحدّ ذاتها تدعو إلى التأمّل الميتافيزيقي.

لماذا يبدو أنَّ الرياضيات، دون غيرها، تجعل وضوح الكون المادي لغزاً، وهل من المعقول بالنسبة إلى العِلم أنْ يعتبر هذا ببساطة، إلى جانب انتظام القوانين المادية، مادة إيمان؟ وهل من المعقول أيضاً بالنسبة إلى العِلم أنْ يضع إيمانه في تماسُك الرياضيات، حتى عندما تُظهر نظرية غوديل[٢٦] الثانية أنه لا يمكن إثبات ذلك؟ هل نُغالي في استسهالِ التسليم بحقيقة أننا حتى قبل أنْ نبدأ في التفكير، ينفتح العالم ويُصبح مُتاحاً لنا؟ وبدل أنْ يكتفي العِلم بطلب أسباب أو تفسيرات، ألا ينبغي أنْ يُفاجأ بكل الإعداد المُعقَّد للمَشهد المسرحي الذي يتطلّبه هذا؟

حتى إنْ كانت هذه الأسئلة الكبرى شرعيّة، ويمكن للمرء أنْ يشكّ في

٢٥– من كتاب لينوكس «**God's Undertaker**»، صفحة ٥٨.

٢٦– كورت غوديل (١٩٠٦ – ١٩٧٨): عالم منطق ورياضيات، من أصل نمساوي–هنغاري. بيَّنَ (فيما يُسمّى ***ببرهان غوديل***) أنه في نظام بديهي شكليّ، كالمنطق والرياضيات، من الممكن البرهان على التماسُك من دون اللجوء إلى مناهج من خارج النظام. – المترجم.

Tele: @Arab_Books

ذلك، فهي لا تَستجلب الجواب بالضرورة «بسبب الله». والفيلسوف مارتن هايدغر، الذي تعتبر بعض الدوائر الأنغلو-سكسونية أنَّ فكره من شدّة العمق بحيث إنه بلا معنى، يُثير أسئلة من هذا النوع، لكنه حتماً لم يكن مؤمناً بالمعنى الديني. إذْ أنَّ التفكُّر في مثل هذه القضايا لا يستلزم ارتياد الكنيسة. لكنَّ المهم هو أنَّ المرء ليس في حاجة إلى أنْ يكون عالماً أيضاً. لم تعد هناك حاجة إلى العلماء من أجل إثارة هذه الأسئلة إلّا إذا كنا في حاجة إلى فناني أرجوحة السيرك ليفعلوا ذلك. من هذه الناحية اللاهوت (أو الميتافيزيقيا) والعِلم هما مجالان مختلفان.

إنَّ اعتبار الله بلا أيّ معنى على الإطلاق، واعتبار الحياة الأخلاقية كذلك، لا يعني إنكار أنَّ على العقل النفعي أنْ يحلّ محلّه. لن يكون هناك، مثلاً، سياسة مُحرِّرة من دونه، ولا عِلم ولا تكنولوجيا. إنَّ علماء الجمال يستحوذ عليهم جمال الأشياء وخاصيّتها الحسّية، وفقهاء اللاهوت تستحوذ عليهم حقيقة أنَّ وجودهم عارِض بصورة شديدة التعقيد؛ في حين إنَّ على العلماء وخبراء التكنولوجيا أنْ يدفعوا بهذه الأشياء نحو معرفة الجنس البشري وخدمته، وهكذا لا يسعهم أنْ يُبددوا وقتهم في إصدار نخر اللذة وصرخات الدهشة. ومع ذلك، على أساس وجهة النظر اللاهوتية هذه، الأخلاق لا معنى لها كما الكون نفسه. والمسألة هي كيف تعيش الحياة بأشد ما يمكن من الامتلاء والاستمتاع، مستمتعاً بقواك وقُدراتك فقط لذاتها. هذه الطاقة المُستمتعة بذاتها، المُجرَّدة من أيّ معنى أو غاية، ليست في حاجة إلى تبرير نفسها أمام هيئة متجهمة الوجوه في التاريخ، والواجب، والـ Geist (الروح)، والإنتاج، والمنفعة، أو التكنولوجيا. يمكن للمرء أنْ يُقارن وِجهة النظر الأخلاقيّة هذه بحالةٍ كانطيّة[٢٧] تقول إذا استمتعتَ بما تعمل، فمن المُستبعَد أنْ

٢٧- نسبة إلى الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (١٧٢٤ - ١٨٠٤). - المترجم

Tele: @Arab_Books

يكون عملك فاضلاً. (إنني هنا أُبسِّط قليلاً ما جاء في كتابه «*نقد العقل العملي*»، كما ربما قد لاحظت). والمبادئ الأخلاقيّة التي يدعو إليها يسوع متهوّرة، ومُغالية، ومُسرفة، وغير معقولة، وفضيحة بالنسبة إلى خبراء التأمين وعقبة في سبيل وكلاء العقارات: «اغفر لأعدائك، هبْ ثوبك ومعطفك، أدر خدّك الآخر، أحبَّ مَنْ يُبغضك، امشِ مسافة أطول، لا تفكر في الغد».

إنَّ كريستوفر هيتشنز يُهلل لهذا التهوُّر الخلّاق بنفور بورجوازي حقير، يقول بعدوانية جديرة بمدير مصرف ناقم: «إنَّ تشبيه البشر بأزهار الزنبق... يوحي - بالإضافة إلى وصايا أخرى عديدة - بأنّ أشياء كالاقتصاد، والابتكار، والحياة العائلية، وما إلى ذلك مجرد هدر للوقت». إنّ المرء ليسرّه أنْ يقول إنَّ هناك بالفعل دليلاً واضحاً على أنَّ العهد الجديد يعتبر العائلة إلى حدّ بعيد هدراً للوقت. وسوف نناقش هذه النقطة بعد قليل. إنَّ هيتشنز يعجز أيضاً عن رؤية أهمية كبيرة في الوصيّة الواردة في الكتاب المقدس وتقول: «اخفِ عن يدك اليُسرى ما تفعله يدك اليُمنى»، وهي طبعاً تحذير من إعلان أعمالك الخيِّرة على العالم أجمع. وبما أنَّه يسري في كتابات هيتشنز المتأخّرة عرقٌ من التبجُّح الذاتي المتناسب، فإنَّ هذه البقعة المُستترة بالذات نادراً ما تُدهش. فلا هو ولا دوكينز مُبتلٍ بفرط التواضُع. وهو أيضاً يُنكِر ما يُسمّى بالتطويبات[٢٨] لأنها «أُمنيات وهمية تدور حول الخنوعين وصانعي السلام». في الحقيقة، إنَّ المرء يتساءل لماذا لم يسعَ أصدقاؤه في البنتاغون إلى منع هذه الدعاية الماكرة للسلام والفقراء معاً. إنَّ يسوع يفشل فشلاً ذريعاً في التحدث كقائد خمس نجوم.

لعلّ يسوع كان ينشر هذا النوع من الأخلاق لأنه اعتقد أنَّ نهاية

---

٢٨ - التطويبات: كل مقطع في خطبة السيد المسيح على الجبل يبدأ بـ «طوبى...» - المترجم

Tele: @Arab_Books

العالم باتت وشيكة، واتّضحَ أنه ناتجٍ عن خطأ خطير في الحساب. يبدو أنَّ حسّه التاريخي كان منحرفاً قليلاً. في الواقع، لم يكن لديه حتماً أيّ حسّ بالتاريخ الدنيوي بالمعنى الذي نعرفه اليوم. ومع ذلك، إنَّ المرء لا يربط المبادئ الأخلاقية بالمُحاسبين القانونيين أو بمديري البترول التنفيذيين. ولأنَّ الله متعالٍ – بمعنى، لأنه ليس في حاجة إلى الإنسانية، بما أنه خلقنا لمجرد الاستمتاع بذلك – فإنه ليس مهووساً حتى العُصاب بنا. إنه ليس في حاجة إلينا إلّا بقدر حاجة أحدنا إلى نمس مُروَّض أو إلى وشم. لذلك هو قادر على تركنا وشأننا؛ والكلمة المقابلة لهذا هي الحرية، التي ننتمي بها إليه أعمق ما يمكن بالنسبة إلى اللاهوت المسيحي.

في أحد المعاني لا يُغيِّرُ استبدالُ إله متعالٍ بإنسانية قادرة أيَّ شيء، كما أشار نيتشه هازئاً. إذ لا يزال هناكَ مركزٌ ميتافيزيقي ثابت للعالم؛ الفرق هو أنه لم يعُد هناك إلّا نحن، ولا إله. وبما أننا مُهيمنون، لا تعيقنا أيّة قيود لا نشرّعها لأنفسنا، نستطيع أنْ نمارس ألوهيتنا الحديثة بالانغماس، من بين أشياء كثيرة، في ذلك الشكل من الـ ***jouissance*** (الاستمتاع) الخلّاق حتى النشوة المعروف باسم التدمير. في رأي نيتشه، موت الله يجب أنْ يعني أيضاً موت الإنسان – بمعنى، نهاية قدْرٍ من النزعة الإنسانية المتعجرفة، الفخمة – إذا لم تُنقَل السلطة المُطلقة ببساطة من مكان إلى آخر. وإلّا فإنَّ النزعة الإنسانية ستبقى دائماً لاهوتيّة سراً. سوف تكون استمراراً لله بوسائل أخرى. سوف يعيش الله ببساطة في عالم آخر غامض على شكل مبادئ أخلاقية محترمة تسود في الضواحي، كما يفعل حقّاً اليوم. وسوف ينتهي الأمر بسرمديّة الإنسان ببساطة إلى تقديم خدماتها لسرمديّة الله. في الروح الفاوستيّة، يقع الإنسان صريع حبّ قواه اللامحدودة ظاهريّاً، ناسياً أنَّ الله في مذهب تجسُّد المسيح يظهر عاشقاً لِما هو ريّان، وهشّ

Tele: @Arab_Books

ومحدود. وبسبب ولهه المجنون بسرمديّته، يجد الإنسان نفسه في خطرٍ دائم من التطوُّر بسرعة فائقة، فيعجز عن تحقيق آماله ولا يصل إلى أيّ شيء، كما في أسطورة سقوط الإنسان إلى الأرض.

هناك علاج تقليديّ لهذا المرض، معروف باسم الفن المأساوي؛ ولكن كما في المعالجة الكيميائية يمكن للعلاج أنْ يكون مُدمِّراً تقريباً كما المرض. وعندما شهد اليونانيون القُدامى مثل هذا الصراع غير المحدود، ارتجفوا ونظروا بخوف إلى السماء، مُدركين أنها ستُنزل بهم قصاصها. ويُلاحظ القديس أوغسطين أنَّ الأشياء المخلوقة ينبغي ألا تتجرّأ على الخلق – ليس تأنيباً للفنانين، بل لِما نُسمّيه هذه الأيام بالأسطورة البورجوازية الكبرى عن تولُّد الذات. إنَّ إبداع الذات هو أسطورة بورجوازية بامتياز. وإنكار أنَّ حريتنا لا تترعرع إلّا في سياق اتّكالٍ أعمق يكمنُ في أساس الكثير من الكارثة التاريخية. إنها حتماً إحدى القِوى المُحرِّكة في الإمبريالية الجديدة الغربية اليوم.

بالنسبة إلى المذهب الكاثوليكي المسيحي، اعتمادنا على الله يسمح لنا بأنْ نُقرر مصيرنا، كما أنَّ اعتمادنا على لغة أو تاريخ أو ثقافة يسمح لنا بأنْ نصل إلى ما يخصّنا كأشخاص. إنَّ الله بالنسبة إلى توما الأكويني هو القوة التي تسمح لنا أنْ نكون أنفسنا. يمكننا أنْ نتخيَّل كأطفالٍ مُصابين بعقدة أوديب أننا سنصبح أحراراً أكثر بالتخلُّص من منابع حياتنا، لكنَّ هذا خداع للنفس. وبدل ذلك، يُضطر آباؤنا إلى أنْ يجدوا طريقة لتغذيتنا تَنطوي أيضاً على إمكانية تركنا وشأننا، لكي يُصبح حبّهم أساساً لاستقلالنا وليس لإعاقتنا. ورواية د.هـ. لورنس *«قوس قزح»* تتناول هذه المفارقة عبر استعراض مختلف أجيال إحدى العائلات زمنيّاً.

إذن، هذا هو معنى قول إنَّ الله خلقَنا على صورته وشَبَهه، بما أنه هو نفسه حريةٌ صِرف. يتبع ذلك أنه أيضاً أساس قدرتنا على رفضه – أو

Tele: @Arab_Books

بعبارة تدل على قلب كبير بصورة رائعة، هو مصدر الإلحاد والإيمان معاً. إنه ليس قوة عيَّابة تمنعنا من أنْ نكون ليبراليين صالحين من الطبقة الوسطى ونفكر في أنفسنا. إنَّ هذا ببساطة هو البدائي، فيليب بولمَنْ[٢٩] – كوجهة نظر أولئك الذين لا يستطيعون أنْ يتخلّصوا من فكرة الله بوصفه الأب الأكبر. وكان جديراً بالشاعر وليم بليك ألّا يضمر إلّا الاستهزاء بهذا التصوُّر الساذج. وما لا يراه كُتّابٌ كبولمَنْ هو أنَّ مذهب الحرية الليبرالي نشأ مع مصادر أخرى من فكرة حرية الإرادة المسيحية، تماماً كما أنَّ المعتقد الليبرالي المذكور يُذكِّر بأصداء بعيدة من الأفكار المسيحية عن العناية الإلهية. وكما يقول جون غراي[٣٠]: «إنَّ أبرز اثنين من المنظّرين الليبراليين في التسامُح الديني هما جون لوك[٣١]، الذي دافع عن الحرية الدينية بعبارات مسيحية واضحة، وبنيديكت سبينوزا، وهو عقلاني يهودي كان أيضاً متصوّفاً»[٣٢].

أنْ نرصُد نقاط القرابة بين الليبرالية والمسيحية–اليهودية (وهناك

٢٩– فيليب بولمن (ولد عام ١٩٤٦): كاتب وروائي وليبرالي إنكليزي. مؤلف للعديد من الكتب الرائجة. له ثلاثية «***خيال***»، وثلاثيّة «***مواده الأولية الغامضة***». مُلحد شهير. في عام ٢٠١٠ وقَّعَ مع ٤٥ كاتباً آخر بياناً نُشِر في صحيفة الغارديان يُعلنون فيه مُعارضتهم لزيارة البابا بنيديكت السادس عشر لبريطانيا بحجة أنه غفر أعمالاً ضد حقوق الإنسان. ويُعدّ أحد أعظم الكتاب الإنكليز منذ عام ١٩٤٥. – المترجم

٣٠– جون غراي (ولد عام ١٩٥١): كاتب ومُحاضِر أميركي. يعمل مستشار علاقات، ولديه كتب كثيرة عن العلاقات ونموّ الشخصية. أحد أشهر كتبه «***النساء من المريخ، والرجال من الزهرة***» تحول إلى فيلم سينمائي. – المترجم

٣١– جون لوك (١٦١٢ – ١٧٠٤): فيلسوف إنكليزي ناقش المذهب التجريبي في «**مقالة في الفهم الإنساني**». أثّر في الفكر السياسي، خاصة في فرنسا وأميركا في «**أطروحتان في الحُكم**» عام ١٦٩٠ وفيه منع حق التمرّد. – المترجم

٣٢– من مقال جون غراي «**The Atheist Delusion**»، صحيفة ***الغارديان*** (١٥ آذار (مارس)، ٢٠٠٨).

Tele: @Arab_Books

أخرى عديدة) لا يعني بأيّ حال تطهير الإرث الليبرالي أو التنويري العظيم[٣٣]. إنَّ بعض الماركسيين يكرهون كثيراً أنْ يعترفوا بأنَّ ماركس يدين بالكثير إلى التراث اليهودي؛ ولكن ما سبب احتقارهم لتلك السلالة بحيث يعتبرون أنَّ هذا الادّعاء يُقلل من قيمة إنجازه؟ إنَّ الليبرالية (أو الراديكالية) والإيمان الديني ليسا بالضرورة في حالة خصام فيما بينهما، مهما كان رأي ديتشكينز. والعديد من المفكرين المسلمين ادّعوا وجود انسجام بين الإسلام والاشتراكية. والكثير من لاهوت القرن التاسع عشر البروتستانتي شكّله بعمق الإرث الليبرالي. وفرديدريك نيتشه لم يُعارض الليبرالية لصالح المسيحية كما فعل ديتشكينز. لقد وجدهما متماثلَين وأدانهما معاً، كما سيفعل النازيون والستالينيون لاحقاً. و د.هـ. لورنس فعل الأمر نفسه في رواية «*العاشقتان*». إنَّ الليبرالية الدنيوية ليست بأيّ حال الترياق «الطبيعي» للإيمان الديني.

إنَّ اللا-إله أو الإله-الدجّال في الكتاب المقدَّس، الذي يكره القرابين المحروقة والأفعال التي تنمّ عن استقامة واعتداد بالنفس، هو عدو الأصنام، وعبادة التماثيل، والصور الرصينة بأنواعها كافة - آلهة، كنائس، أضاحي طقسية، النجوم والأشرطة، الأمم، الجنس، النجاح، والأيديولوجيات، وما إلى ذلك. سوف تعرفه على حقيقته عندما ترى الجياع تمتلئ بطونهم بالأطايب ويُطرَد الأغنياء خالي الوِفاض. ويتّضح، بصورة تدعو إلى الرثاء، أنَّ الخلاص مسألة لا تتعلّق بالعبادة، والقانون، والطقس، أو بعادات خاصة والتطابُق مع دستور أخلاقي، أو بذبح حيوانات كأضاحٍ أو حتى أنْ يكون المرء فاضلاً بصورة رائعة.

٣٣- إنني أستخدم عبارة «المسيحية-اليهودية» ببساطة لكي أُشير إلى استمراريات ثقافية ولاهوتية معيَّنة، وليس كإيماءة «شاملة» متعالية إلى اليهود أو كرمز أيديولوجي مُحافِظ لإقصاء المُسلمين. - المؤلّف

Tele: @Arab_Books

إنها مسألة إطعام الجياع، والترحيب بالمهجَّرين، وعيادة المرضى، وحماية الضعيف، واليتيم والأرملة من بطش الأغنياء. والمُدهش أنَّ ما أنقذَنا ليس الأداة الخاصة المعروفة باسم الدِّين، بل نوعيّة علاقاتنا اليومية بعضنا بالبعض الآخر. إنَّ المسيحية، وليس الطبقة المثقفة الفرنسية، هي التي اخترعت مفهوم الحياة اليومية[٣٤].

ليس في العهد الجديد أيّ شيء بطوليّ على الإطلاق. فيسوع المُخلِّص نكتة سخيفة. إنَّ المُخلِّصين المبعوثين (Messiahs) لم يولَدوا في إسطبلات. إنهم مُحاربون، أبطال، شرفاء النسب، سيقودون الأمة في معركتها ضد أعدائها. إنهم لا يرفضون أسلحة التدمير، ولا يدخلون عاصمة الدولة على ظهور الحمير، أو يُشنقون. ومن وجهة نظر التراث اليهودي، يُعتبَر المسيح المقتول خروجاً شائناً عن المألوف أو مصطلحاً متناقضاً كجُملة «ثم يقرّ ديتشكينز بتواضع بأنَّ لدى كل منهما شيئاً يقوله للآخر». إنَّ المسيحية كلها مادية بصورة مُخيبة للآمال، وخالية من السّحر، ومبتذلة. ومقولة: «أعط لقيصر ما لقيصر، ولله ما لله» هي وصيّة مُبهمة بصورة شائنة؛ ولكن كَائناً ما كان معناها، فمن المُستبعَد أنْ تعني أنَّ الدِّين شيء والسياسة شيء آخر، وأنه تحامُلٌ حديث جداً إن كان لهذا وجود. إنَّ أيّ يهودي مخلص من زمن يسوع كان سيعلم أنَّ الأشياء التي تخصّ الله تتضمَّن العمل من أجل العدالة، والترحيب بالمهجّرين، وقهر القوي والجبّار. إنَّ كامل أدوات الدِّين الثقيلة يجب استبدالها بنوع آخر من أماكن العبادة، خاصة بجسد يسوع المقتول، المُمجَّد. إنَّ ما يُثير حنق الثوريين، والفرِّيسيين، والأميِّين الخشنين من الجناح اليميني من الأعمار كافة،

٣٤- انظر كتاب تشارلز تيلر «**Sources of the Self**» (كمبريدج: مطبعة جامعة كمبريدج، ١٩٨٩)، الصفحات ١٣-١٦ ، و ٨١ - ٨٣، ٢١١ - ٢٤٧. - المؤلف

Tele: @Arab_Books

أنَّ هذا الجسد مُكرَّس على وجه الخصوص للفاشلين، والمتسكعين، والرعاع، والمتعاونين الاستعماريين الذين ليسوا قويمين بل أشرار مشهورين – الذين إما يعيشون في انتهاك مزمن للقانون المُركَّب أو، كما يفعل غير اليهود، يسقطون تماماً خارج نطاق نفوذه.

هؤلاء الرجال والنساء لم يُطلَب منهم أنْ يُقايضوا للحصول على فضل الله بالتضحية بالحيوانات، وهم يُثرثرون عن حميتهم، أو عن حلاقة ذقونهم الناعمة. بدل ذلك، الخبر السعيد هو أنَّ الله يُحبهم في الأحوال كلها، على الرغم من فساد أخلاقهم كلها. إنَّ رسالة يسوع هي أنَّ الله يقفُ إلى جانبهم على الرغم من شرهم – أنَّ النبع الذي لا ينضب للحياة البهيجة التي يُسمّيها أباه ليس قاضياً، ولا بطركاً، ولا مُتَّهماً، ولا أنا عُليا، بل عاشقٌ، وصديقٌ، ومُتَّهَمٌ مثلك، ومُحامي دفاع. إنَّ الاسم التوراتيّ لله كقاضٍ أو مُتَّهِم هو الشيطان، الذي يعني حرفيّاً «الخصم». الشيطان هو طريقةٌ لرؤية الله كمُتنمِّر كبير وضخم، وهذه، كما سنرى بعد قليل، صورة مُجزية جداً له. إنَّ كل ما هو مطلوب من البشر هو أنْ يعترفوا بحقيقة أنَّ الله يقف إلى جانبهم مهما يحصل، وذلك بالقبول المُحب المعروف باسم الإيمان. في الحقيقة، يكاد لا يكون لدى يسوع ما يقول عن الإثم، خلاف عدد كبير من أتباعه العيَّابين. إنَّ مهمته هي قبول ضعف الرجال والنساء، وليس تذكيرهم به على الدوام.

إنَّ هذا القلب للصورة الشيطانية أو الأنانية العليا لله في يسوع يعمل على حل الأزمة المميتة بين القانون والرغبة، أو ما يُسميه جاك لاكان **الحقيقيّ**. إنها حالة نقع فيها في حبِّ مَرَضيّ مع القانون نفسه، ومع حالة الكبت والتعاسة التي انحدرنا إليها، لا نرغب إلّا في أنْ نُعاقبَ أنفسنا على ذنبنا حتى الموت. لهذا السبب يصف القديس بولس القانون بأنه لعنة. إنَّ هذا الحافز على التخلُّص من أنفسنا كما نتخلص

Tele: @Arab_Books

من القذارة والنفاية الذي سمّاه فرويد حافز الموت، هو نقيض قبول الحب بلا شروط. وكما يكتب القديس بولس قائلاً، إنَّ القانون، والإثم أو الشعور بالذنب الذي ينتج عن ارتكابه، هو ما يجلب الموت إلى العالم. والخيار هو بين حياةٍ متحررة من هذه الأزمة المَرَضيّة، المعروفة في الإنجيل باسم الحياة الأبدية، وتلك الصورة الهزلية المروّعة لحياةٍ أبدية هي خلود زائف شنيع لحافز الموت. إنها حالة نمنع أنفسنا فيها من الموت الفعلي بالتشبُّث بيأس باستمتاعنا المَرَضيّ بالموت كوسيلة للتأكيد على أننا أحياء. هذه الحالة الوهمية، حالة الميت الذي يرفض أنْ يستلقي، من الوجود، التي تشبه حالة بينكي في رواية غراهام غرين *«صخرة برايتن»* أو بنتشر مارتن في رواية وليم غولدينغ التي تحمل هذا الاسم، تمثِّل الموت الحيّ المعروف باسم الجحيم[٣٥].

إنه ليس جحيم الخونة وأشواك تحريك الشِّواء، بل جحيم أولئك الذين يعلقون بسرعة في شِباك ابتهاجهم المازوشي بالقانون، ويبصقون في وجوه الذين يُبدون استعدادهم لإراحتهم من عذابهم. وإذا كان الله في ما يُسمّى العهد الجديد يُصوَّر بين حين وآخر كغولٍ ساديّ، فأحد أسباب ذلك هو أنَّ في استطاعة الرجال والنساء أنْ يرغبوا وأيضاً يخافوا غضب الأنا العليا. يمكنهم أنْ يتشبّثوا بقمعهم كأنه عاشق، ويمكنهم أنْ يتمادوا إلى أقصى مدى تقريباً في تمسّكهم بمتعة تعذيب الذات التي يمدّهم بها هذا. والتخفُّف من إحساسهم بالذنب يعني حرمانهم من المرض نفسه الذي يمدهم بالقوة على الاستمرار. وقد يدّعي أحدهم أنَّ هذه هي بوادر المازوشية المعروفة باسم الدِّين. في هذا السياق، الخبر الجيد الذي يقول إننا محبوبون ببساطة كما نحن

٣٥- انظر كتابي **«An Essay on Evil»** (سيصدر قريباً). - المؤلف

Tele: @Arab_Books

سوف يتحول إلى إهانة لا تُطاق. إنه يُهدِّد بحرماننا من البؤس الذي يُبرهن على الأقلّ على أننا لا نزال موجودين. ويبدو أيضاً أنه يجعل جهودنا الحثيثة لتطوير أنفسنا أخلاقيّاً لا معنى لها. إننا لا نريد ذلك النير الخفيف، بل نريد أنْ نعانق سلاسلنا.

إنّ حبّ الله وغفرانه، بالنسبة إلى التعاليم المسيحية، هما قِوى غير متسامحة بقسوة تقتحم علينا بعنف كوننا الصغير الذي يحمينا ويجعلنا عقلانيين، مُحطِّمة أوهامنا الرومانسية وتقلب عالمنا بوحشية رأساً على عقب. في يسوع، يتكشَّف أنَّ القانون هو قانون الحب والرحمة، وأنَّ الله ليس نكرةً منبوذاً بل حيوان ضعيف وعاجز. إنَّ كبش الفداء اللعين والمُهان في الجمجمة[٣٦] هو الآن الدلالة الحقيقية على القانون. بمعنى أنَّ المُخلصين لقانون عدالة الله وحبّه سوف تتخلَّص منهم الدولة. إذا لم تُحب، فأنت ميّت، وإذا أحببت، سيقتلونك. هذه هي، إذن، جائزتك في السماء أو أفيون الشعب، عزاؤك الحزين وإلهك شاحب الوجنتين. هذا هو الوهم والهروب اللذان يجدهما البراغماتيون الدنيويون العمليون بغيضَين إلى أقصى مدى. لقد رأى فرويد أنَّ الدين يُخفِّف من قسوة الوضع الإنساني؛ ولكن من المؤكَّد أنه سيكون على الأقل مقبولاً أنْ ندّعي أنَّ ما نسميه الواقع هو تخفيف من وطأة مطالب الإنجيل القاسية، التي تتضمَّن أعمالاً مقبولة للهروب كاستعدادك للتضحية بحياتك من أجل شخص غريب تماماً. إنَّ مُحاكاة يسوع تعني مُحاكاة موته كما حياته، بما أنَّه لا فرق بينهما في نهاية المطاف. الموت هو استهلاك للحياة، المكان الذي يتكشَّف فيه المعنى المُطلَق لتضحية يسوع بنفسه.

إنَّ الصورة الأصيلة الوحيدة لهذا الإله المُحب بعنف هي صورة

٣٦- الجمجمة: الموقع الذي صُلِبَ فيه السيد المسيح. - المترجم

Tele: @Arab_Books

مجرم سياسي تعرَّضَ للتعذيب والإعدام، مات في مشهد من التكافُل مع من يُسميهم الكتاب المقدَّس الـ ***anawim***، أي المُعوزين والمُضطهَدين. وكان الصّلب عند الروم مُخصَّص للجرائم السياسية حصراً. والـ ***anawim***، حسب تعبير بولس، هم قذارة الأرض – حثالة المجتمع ونفايته الذين يُشكلون حجر زاوية الشكل الجديد للحياة الإنسانية المعروفة باسم مملكة الله. ويسوع نفسه يُقدَّم على الدوام على أنه مُمثّلهم. وموته وهبوطه إلى الجحيم هما رحلة إلى قلب الجنون، والرعب، والعبث، والتضحية بالنفس، بما أنَّ فقط ثورةً تغوص إلى ذلك العمق يمكنها أنْ تنطبق على وضعنا المرعب.

إنَّ ما هو مُعرَّض للخطر ليس مشروعاً إصلاحيّاً حذراً لصب نبيذ جديد في زجاجات قديمة، بل لحظة تجلٍّ طليعية للجديد المُطلَق – لنظام حُكم ثوريّ جداً بحيث يبزّ كل صورة أو قول، لسطوة للعدالة والمودّة لا زالت حتى الآن بالنسبة إلى مؤلفي الإنجيل مدهشةً في هذا العالم المُفلس، الـ ***depasse*** (العتيق)، الهالك. ولا يُسمح هنا للموقع الوسطي: إنَّ الخيار بين العدالة وقوى هذا العالم صارم ومُطلَق، مسألة نزاع وتضاد أساسيين. ونقطة الخلاف هي سيفٌ بتّار، وليست سلاماً، وإجماعاً، ونقاشاً. ولا يبدو أنَّ يسوع يمثل أيَّ نوع من الليبراليّ، وهو ما يأخذه عليه ديتشكينز الحاقد. إنه لا ينفع أنْ يكون عضواً جيداً في لجنة. ولن يُحسِن التصرُّف في وول ستريت، تماماً كما أنه لم يُحسِن التصرُّف مع الصيرفيين في معبد أورشليم.

بالنظر إلى حالة الإنسانية التي تدعو إلى الرثاء، فإنَّ خطة الإصلاح الرديئة هذه لا تتحقق بسهولة. وبعبارة «حالة تدعو إلى الرثاء» أعني تفشّي الجشع، والوثنية، والضلال، وعمق ميلنا الغريزي إلى السيطرة والتملُّك، والاستمرار المُمل للجور والاستغلال، والقلق المُزمن الذي يقودنا إلى الحقد، والتشويه والاستغلال، بالإضافة إلى

Tele: @Arab_Books

المرض، والمعاناة، واليأس، التي يربطها يسوع بالشر. هذا هو ما تسميه المسيحية بالخطيئة الأصلية. إنَّ مجيء الملكوت لا يتضمَّن تغيير الحكومة، بل عبوراً مُضطرباً خلال الموت، والعدم، والجنون، والضياع، والعقم. وهذا العبور تعبِّر عنه الأساطير المسيحية من بين أشياء أخرى بهبوط المسيح إلى الجحيم بعد موته. ليست هناك إمكانية لحدوث تطور سهل هنا. وبالنظر إلى الحالة المُضطربة للعالم، يمكن لتحقيق الذات أنْ يحصل حتماً فقط من خلال التعرّي.

إنَّ هذا الوضع مأساويّ بحدّ ذاته. سيكون مقبولاً أكثر إنْ استطعنا أنْ نُحقق العدالة والمودّة عفويّاً، دون الحاجة إلى الموت، شخصيّاً وسياسيّاً، في مواجهة أنانيتنا، وعنفنا، وميلنا إلى التملُّك والسيطرة. لكنَّ هذا الموت، على الأقلّ، يحدث إكراماً لحياة أكثر وِفرة، وليس لممارسة العنف الذاتي بمازوشية. وبالنسبة إلى الإنجيل، هناك نوعان من الحياة في الموت – الموت الحيّ الذي هو الجحيم، ووِفرة الحياة التي تنبع من القدرة على التخلّي عن الميل إلى التملُّك. وليس من السهل دائماً التمييز بينهما.

إنْ لم يكن نكران الذات غاية بحد ذاته بالنسبة إلى المسيحية، فإنَّ التبتُّل ليس كذلك. لعل تبتُّل يسوع كان سببه أنه آمن بأنَّ مملكة الله توشك أنْ تحلّ في أيّة لحظة، مما لا يترك مجالاً لصكوك الرهن، وغسيل السيارات، والاهتمام بالأطفال، وغيرها من الظواهر العائلية التي تُشتِّت. لكنَّ هذا النوع من التبتُّل لا يُعادي الشهوة الجنسية. على العكس، إنه يعتبر التخلّي عن الجنس تضحية، والتضحية تعني التخلّي عن شيء ثمين لديك. إنَّ التخلّي عن شرب مادة التبييض ليس تضحية. وعندما يبحث القديس بولس عن علامة (أو«سرّ مُقدّس») على عالم الخلاص الآتي، يُقدِّم إلينا اقتران الأجساد جنسيّاً. إنه زواج، وليس تبتُّلاً، أي سرّ مقدّس. إنَّ وِفرة الحياة هي الأمر الهامّ؛ لكنَّ السعيّ وراء

Tele: @Arab_Books

حياة أكثر وفرة في كل مكان يتضمَّن أحياناً ترك أو التخلّي عن بعض الطيبات التي تميِّز ذلك الوجود. والتبتُّل بهذا المعنى هو خَيارٌ ثوريّ. إنَّ الذين يُحاربون أنظمة الحُكم الفاسدة في غابات أميركا اللاتينية يريدون أنْ يذهبوا إلى بيوتهم، والاستمتاع بصحبة أطفالهم، واستعادة حياتهم الطبيعية. المشكلة هي أنَّه لكي يتوفّر مثل هذا النوع من الحياة لكل إنسان، فعلى محارب العصابات أنْ يتخلّى عن مثل تلك الإنجازات حاليّاً. وهكذا يُصبح أو تُصبح ما يُسميه العهد الجديد «خصيّاً من أجل الملكوت». والخطأ الفادح الذي يمكن أنْ يحدث هو العثور في هذا التقشُّف القسري على صورة للحياة الطيبة هكذا. والثوّار نادراً ما يُمثّلون الصورة الفُضلى للمجتمع الذي يعملون على إيجاده.

إنَّ أشدّ أشكال نكران الذات راديكالية ليس أنْ يتخلّى المرء عن السجائر أو الويسكي بل عن جسده نفسه، وهو عمل يُعرَف تقليديّاً باسم الشهادة. إنَّ الشهيد يتخلى أو تتخلّى عن أنفس الممتلكات، لكنه يودّ ألّا يفعل؛ والمنتحر، بالمقارنة، يسرّه أنْ يتخلّص من حياة أضحتْ عبئاً لا يُحتَمَل. ولو أنَّ يسوع رغب في أنْ يموت، لكان مجرّد مُنتحر عادي، ولكان موته بلا فائدة وعقيماً وخاتمة عبثية لقاذف قنابل انتحاريّ. إنَّ الشهداء، كنقيض للمُنتحرين، هم أولئك الذين يُكرّسون موتهم لخدمة الآخرين. وهذا يصحّ ليس فقط على الذين يموتون لكي يعيش الآخرون (كأخذ مكان شخص يقف في الطابور لدخول غرف الغاز النازية، مثلاً)، بل يصحّ أيضاً على الذين يموتون دفاعاً عن مبدأ ينطوي على منح الحياة للآخرين. إنَّ كلمة «شهيد» تعني «شاهد» ؛ وما يشهده أو تشهده هو مبدأ من دونه لا تستحق الحياة أنْ تُعاش أصلاً. بهذا المعنى، يشهد موت الشهيد على قيمة الحياة، وليس على تفاهتها. والأمر ليس كذلك مع الانتحاريين الإسلاميين.

إنَّ الوجود المُمجَّد الذي يُنادي به يسوع يتضمَّن انتقال الشيء

Tele: @Arab_Books

الملعون، المُدنَّس، من الضعف إلى القوة، من الموت إلى الحياة، من الأسى إلى المجد، اسمه القديم ليس مأساوياً جداً كالتضحية. بهذه الطريقة، يمكن لحجر العثرة أنْ يُصبح حجر زاوية، بما أنَّ النظام الجديد مبنيّ من قطع وبقايا القديم. وفقط بالاستعداد للتخلّي عن عالمنا المُرهَق نستطيع أنْ نعيش على أمل أنْ يسود عالم أكثر أصالة في المستقبل. هذا المعتقَد ليس تشاؤماً بل واقعيّة. ولأننا لا نستطيع أنْ نتيقَّن من أنَّ ذلك العالم ممكن، كما في وسعنا أنْ نعرف سرعة الضوء أو سعر البصل، فإنَّ هذا التجرُّد من الممتلكات المادية يتطلَّبُ إيماناً. نحن في حاجة إلى الإيمان بأنه يمكن للضعفاء، خلافاً للظواهر كلها التي تدل على العكس، أنْ يصلوا إلى السلطة. وفقط بالإخلاص الراسخ بالفشل، الذي يُسبب الفضيحة للأمم التي تحتقر الفاشلين، يمكن لأية سلطة إنسانية أنْ تُثبت أنها خصبة ودائمة. وبفضل هذه الواقعية المستحيلة، المتحررة من الوهم بشكل صاعق، التي تحدِّق مباشرة إلى **الحقيقة** القبيحة، والمؤلمة، والشنيعة للصَّلْب الإنساني، يمكن أنْ يتحقق نوع من البعث. وفقط بقبول هذا بوصفه الكلمة الأخيرة قاطبة، واعتبار كل ما عداه محض قمامة عاطفية، ووهماً أيديولوجيّاً، وإصلاحاً زائفاً، وعزاءً كاذباً، ومثالية متفائلة – عندئذٍ فقط قد يثبت أنه ليس بالضبط الكلمة الأخيرة أصلاً.

إنَّ العهد الجديد هو تدمير وحشي للأوهام الإنسانية. وإذا تتبّعتَ خُطى يسوع ولم تنته إلى الموت، فسوف تحصل على بعض التفسير لفعلك ذلك. إنَّ المؤشِّر الواضح إلى الوضع الإنساني هو ذاك الذي نادى بالمحبّة والعدالة ومات من أجل آلامه. إنَّ الحقيقة المؤلمة للتاريخ الإنساني هو جسد مُشوَّه. والذين لا يرون هذه الصورة الرهيبة لبريء مُعذَّب بوصفها حقيقة التاريخ من المُرجَّح أنْ يتبنّوا بعض الخرافات البرّاقة كالحلم بإحراز تقدُّم إنساني غير محدود، يُدافع عنها، كما سنرى،

Tele: @Arab_Books

ديتشكينز بكامل قواه. وهناك أساطير عقلانية بالإضافة إلى الدينية. في الواقع، إنَّ الكثير من الأساطير الدنيوية هي نُسخٌ مُنتَزَعَة من تلك المقدسة.

وبعيداً عن تعزيز عبادة مُريعة للمعاناة، يبدو أنَّ يسوع يعتبر المرض الجسدي شكلاً مُطلَقاً من أشكال الشر، ويضع في مقابله ما يُسميه وفرة الحياة – وهي ما يُسميه الإنجيل الحياة «الأبدية»، حياة في أغنى وأغزر حالاتها الإنسانية، منتشية بروحها العالية وابتهاجها بنفسها. وأنا أعتبر أنَّه بالنسبة إلى الإيمان المسيحي ليست عبارة «النزعة الإنسانية الإلحادية» خاطئة مثل تعبير الإرداف الخُلفيّ[٣٧]، بما أنه لا توجد إنسانية كاملة من دون الله. ويُبلِّغ يسوع أتباعه بجفاف: «دعوا الموتى يدفنون موتاهم» – وهذا القول جدير بيهود ذلك الزمان، الذين كان دفن الموتى بالنسبة إليهم واجباً مُقدّساً وعدم دفن الجثث فضيحة لا تُغتَفَر، أنْ يعتبروه إهانة شنيعة. وبعيداً عن ترحيبه بموته الوشيك بثقة رواقيّة في النفس، فإنَّ التفكير فيه غمره برعب رهيب وهو في الحديقة الجثمانية[٣٨]. ولم يحدث قبل ذلك أبداً أنْ نصح المُبتلين بالتصالُح مع آلامهم. على العكس، إنه يبدو أنه أدركَ أنَّ المرضى والمُعاقين ممنوعون من لعب دور كامل في المجتمع الإنساني. وهدفه هو إعادتهم إلى إنسانيتهم الكاملة بعودتهم إلى أقرانهم في المجتمع الكبير.

إنَّ يسوع مرتاح إلى أقصى مدى في كلامه عن الشهوة الجنسية، خلافاً للملايين من أتباعه الذين لا يفكرون في أيّ شيء آخر، ويشتركون في الكثير من القواسم مع منتجي الأدب الإباحي الذين طردوهم من المجتمع. في الحقيقة، يكاد العهد الجديد يخلو من أيّ ذكر للشهوة الجنسية، وهو دون أدنى شك أحد الأسباب الذي يجعل هذا العمل لا

٣٧– الإرداف الخُلفيّ: اجتماع لفظتين متناقضتين، كقول: «المتشائم المرح». – المترجم

٣٨– حيث أُلقيَ القبض على المسيح تمهيداً لصلبه. – المترجم

Tele: @Arab_Books

يُدرَّس في دورات الدراسات الثقافية. وعند نقطة ما، يتوقف يسوع ليتحدث مع امرأة شابة سامريّة زانية محترفة، وبهذا يخرق ثلاث مُحرّمات في وقت واحد بالنسبة إلى رجل دين في تلك الأيام: لا تتحدث مع النساء وحدك، لا تتحدث مع نساء ذوات تاريخ جنسي مُشين، وقبل أيّ شيء لا تتحدث مع مخلوقات متدنية كالسومريين. إنه لا يشمئز منها بسبب ماضيها المُبهرج، لكنه بدل ذلك يُقدّم لها ما يُسمّيه ماء الحياة، فتقبله بلهفة. ويبدو أنه يرى أنَّ العبث الجنسي الإجباري ينمّ عن عجز عن العيش بوفرة.

يمكن مُقارنة هذا الموقف المتهاون من الشهوة الجنسية بتقرير ورد في صحيفة *«نيويورك تايمز»* عن حفل نقاء الأب والابنة في ولاية كولورادو[٣٩]. حيث يجتمع هناك ما يربو على سبعين فتاة شابة في سن الانتساب إلى الجامعة بأثواب يصل طولها إلى الأرض ويعتمرن عمامات يرقصن مع آبائهن أو مع أحماء[٤٠] المُستقبل على وقع تراتيل مصطنعة في قاعة الرقص لا تضم إلّا صليباً خشبيّاً طوله سبع أقدام. وبعد تقديم طبق الحلوى، يقف الآباء ويأخذون يرددون بصوت عالٍ قَسماً رصيناً بأنْ «أُغطي ابنتي أمام الله بوصفي مرجعاً لها وحاميها في حيِّز النقاء» (المعنى الدقيق لكلمة «أغطي» في هذا السياق تُرِكَتْ مُبهمة). الحدث، الذي كان يتراوح بين الرقص المُستهتر والطقس المسيحي، كلَّفَ تنفيذه عشرة آلاف دولار.

إحدى الفتيات، وهي ابنة لرجل اسمه راندي، صرّحتْ للصحفيين بأنَّ ما تحتاج من والدها هو أنْ يقول لها إنها جميلة. قالت: «إذا لم نحصل على ذلك من المنزل، فسوف نلجأ إلى الثقافة ونحصل

٣٩- صحيفة *«نيويورك تايمز»*، عدد ١٩ أيار (مايو)، ٢٠٠٨.

٤٠- أحماء، جمع حمو: والد الزوج أو الزوجة. - المترجم

Tele: @Arab_Books

عليه منها». من جديد، المعنى الدقيق للفعل «نحصل» يبقى مُبهماً. وبعض الآباء أعلنوا أنَّ القَسَم بحماية نقاء بناتهم يُبعدهم عن احتمال أنْ يخونوا زوجاتهم. وقالوا إنهم «يدعمون» عائلاتهم وبلدهم. وبين حين وآخر يقتربون من بناتهم ويهمسون في آذانهم صلاة قصيرة، وكان الرقص يتوقف بعد كل نصف ساعة لكي يُبارك الآباء ذريتهم. وفي ختام الأمسية «رافق الآباء بناتهم المتوردات والناعسات قليلاً نحو باب الخروج. لكنَّ أحد الآباء رافق ابنتيه الاثنتين في نزهة مشياً على الأقدام حول بحيرة الفندق المُظلمة والساكنة». الأمر الشائن هو أنْ تعْمَد صحيفةٌ كانت ذات يوم محترمة مثل «***نيويورك تايمز***» إلى تكريس مساحة لسرد وقائع ذلك الحفل الماجن الملوَّث بسفاح القُربى والخالي من أية غاية سامية.

يدّعي توما الأكويني أنَّ الإثم شوَّه فِطرةَ مشاعرنا إلى درجة أننا لم نعُد نستمتع بممارسة الجنس كما ينبغي أنْ نفعل[٤١]. فإذا كان المرء يعني بالإثم العنف، والعدوان، والحسد، والاستغلال، وهوس الاكتساب، والتملك، وما إلى ذلك، فإنَّ كون هذه الأشياء تدمِّر حياتنا الإنسانية والفعّالة لا يمكن إنكاره. إنَّ هذا كله هو ما يعنيه القديس بولس بآثام الجسد، الذي، كما يُلاحظ الفيلسوف الجمالي الفرنسي ألان باديو[٤٢]، لا صلة له بقذارة الجسد المُفترَضة[٤٣]. إنَّ قول إنَّ بولس كان عِدائيّاً نحو الجسد هو خرافة. وعلى الرغم من أنَّ الأكويني كان

٤١- انظر كتاب هربرت ماكيب «***Faith Within Reason***» (لندن: دار كونتينوم، ٢٠٠٧)، صفحة ١٠٨.

٤٢- ألان باديو (مولود عام ١٩٣٧): فيلسوف فرنسي ومُحاضِر في جامعاتها. محسوب على اليسار المتطرف وعلى التراث الشيوعي. - المترجم

٤٣- انظر كتاب ألان باديو« ***Saint Paul: The Foundation of Universalism***» (ستانفورد: مطبعة ستانفورد يونيفرسيتي بريس، ٢٠٠٣)، الصفحتان ٥٥ و ٥٦.

Tele: @Arab_Books

مُتبتلاً حينئذ، إلّا أنه كان حتماً على حق. (من الخطأ التجريبي الاعتقاد أنَّ على المرء أنْ يعرف عن الجنس قبل أنْ يمارسه لكي يكون على دراية به، تماماً كما أنه ليس مُضطراً إلى أنْ يعزف على الكمان لكي يعرف متى يرتكب الإنسان جريمة مُخيفة في حق كونشيرتو الكمان لماندلسن). إنَّ الأكويني لم يُجر مُقارنة حادّة بين الحب القُدسيّ وذلك الجنسي: لقد رأى أنَّ عناية الله تفترض وجود الحب الجنسي ولا تستثنيه[٤٤].

من الجدير بالذِّكر أنَّ موقف يسوع من العائلة يتسم بالعدائية الحقود. لقد توصّل إلى تشتيت تلك المستوطنات المُحافظة الصغيرة والآمنة التي يعشقها المُعلنون الأميركيون باسم حملته التبشيرية، ويدفعون أعضاءها إلى التناحر؛ ويبدو أنَّه لم يكن لديه الكثير من الوقت الثمين يُخصصه لعائلته بالتحديد. وفي كتاب *«وهم الله»* يستقبل ريتشارد دوكينز هذا الجانب من الإنجيل بنفور أهل الضواحي الفاتر. هذه النظرة الباردة إلى العائلة يمكن ألّا توحي إليه إلّا بعادات الطقوس الدينية الآسرة. إنه لا يرى أنَّ الحركات الساعية إلى العدالة تقطع روابط الدم التقليدية، بالإضافة إلى الفئات العِرقية، والاجتماعية، والوطنية. العدالة قِوامها أشدّ كثافة من الدم.

إنَّ أحد الأسباب التي جعلت المسيحية تُثبت أنها أشدّ جاذبية بديهيّاً بالنسبة إلى العديد من الناس هو أنها تضع الحب في قلب رؤاها عن العالم – حتى وإنْ كانت نسختها عن الحب، كما رأينا، ليست جميلة بصورة جلية. وهذا يصدم الكثير من الناس بأنه مقبول، نظراً إلى أنَّ تجربتهم تفيدهم بأنَّ الحب هو أشدّ القِيَم قيمة. وكون الحب هو النقطة المركزية في التاريخ الإنساني، على الرغم من أنه يُزدرى

٤٤– انظر كتاب دانيال شوارتس ***«Aquinas on Friendship»*** (أوكسفورد: دار كلاريندون، ٢٠٠٧)، صفحة ٦.

Tele: @Arab_Books

ويُنكَر في كل مكان، أحاطه بهالة مُقنعة بقدر كاف في أحد معانيه. ولكنَّه بمعنى آخر، هو إقرار قاسٍ – من ناحية لأنَّ من الجليّ أنَّ الحبّ في الواقع ليس مركز التاريخ، ومن ناحية أخرى لأننا نعيش في عصر أصبح فيه شديد الخصوصية بصورة فعّالة، وهذا دون أدنى شك أحد أسباب عديدة تجعل الإيمان المسيحي لا يعني أيّ شيء لعدد كبير من رجال ونساء العصر الحديث.

بالنسبة إلى الإرث الإنساني الليبرالي الذي يدين إليه ديتشكينز، يمكن بحق فهم الحب فقط بالمعنى الشخصي. إنه ليس مادة في قاموسه السياسي، وجدير به أنْ يُصبح مُحرِجاً إذا تحول إلى ذلك. بالنسبة إلى التراث الليبرالي، ما يبدو إلى العديد من الرجال والنساء أنه يكمن في قلب الوجود الإنساني ليس له إلّا دور سطحي في شؤون العالم، مهما كان حيويّاً الدور الذي قد يلعبه في الحياة الخاصة. قد يتخيَّل المرء أنَّ مفهوم الحب السياسي لا معنى له بالنسبة إلى ديتشكينز. ومع ذلك إنَّ شيئاً كهذا هو الأساس الأخلاقي للاشتراكية[٤٥]. ولكن من الصعب فهم ما يمكن أنْ يعنيه ذلك في حضارة كاد الحبُّ فيها يُختَزَل بصورة كاملة إلى ذاك الشيء الجنسي، الرومانسي، أو المنزلي. إنَّ ديتشكينز يمارس الكتابة من ناحية لأنَّ إرثاً يُقدِّم بديلاً للتركة الليبرالية حول هذه المسألة مُهدَّد اليوم بخطر الغرق دون أنْ يبقى منه أيّ أثر.

الآن سأكون مُكرهاً على تصنيف وصف الإيمان المسيحي الذي أعطيته توّاً بأنه لاهوت التحرير. إنَّ كل لاهوت أصيل هو لاهوت تحريريّ. ولست بالضرورة أقدِّمه بوصفه صحيحاً، لسبب ممتاز وهو أنه قد لا يكون كذلك. قد لا يُصبح مقبولاً إلّا بقدر قبول أسطورة

٤٥– انظر كتاب تيري إيغلتُن «**After Theory**» (لندن: دار ألن لين/بنغوين، ٢٠٠٣)، الفصل السادس.

Tele: @Arab_Books

جنّي السنّ[٤٦]. ولكن يجب أنْ أُضيف أنَّ تبنّي وجهات نظر كهذه هي استراتيجيةُ كل مَنْ يرغب في التخلّص من أصدقائه وزملائه بضربة واحدة، مُثيراً بذلك غضب اليسار الدنيوي وحنق اليمين المتديِّن. إنَّ مسيحيّي الجناح اليساري في حاجة ماسّة إلى وكالات تدبير اللقاءات العاطفية. ولكن على الرغم من أنَّ الوصف قد لا يكون صحيحاً، إلّا أنه، في رأيي، أحمق، أو شرير، أو تافه. وإذا لم يُثِر أيّ رد فعل عند ديتشكينز، فأعتقد أنَّ حياته هي الأشدّ بؤساً.

إنَّ الكثير ممَّن يتأملون هذه الأيام سوف يرون سبباً وجيهاً لنبذ الإيمان الديني. ولكن إذا لم يكن الوصف الذي أعطيته له صحيحاً حرفيّاً، فسوف ينفع أنْ يكون قصة رمزية عن وضعنا السياسي والتاريخي. ثم إنَّ نُقّاد أشدّ أشكال ثقافتنا الشعبية دواماً في التاريخ الإنساني لديهم التزام أخلاقيّ لمواجهة تلك القضية وهي في أشدّ حالاتها إقناعاً، بدل أنْ يقتنصوا انتصاراً رخيصاً بالانقضاض عليه بوحشية وكأنه حثالة أو رطانة مُبهمة. هذا اللاهوت المسيحي السائد الذي وضعتُ خطوطه العريضة هنا قد يكون زائفاً؛ ولكن أيّ شخص يتشبَّث به يستحق الاحترام في رأيي. الأمر ليس نفسه بالنسبة إلى الذين يؤيدون حروباً ضخمة، أو يتلفظون بكلمات ساخرة من الدِّين من نافذة غرفة الهيئة الإدارية كدليل آخر على بلادة تفكير الجماهير الغفيرة. أما ديتشكينز، في المقابل، فيعتبر أنه ليس هناك أيّ إيمان ديني، في أيّ زمان أو مكان، يستحق أيّ احترام مهما كان. ويمكن للمرء أنْ يُلاحظ أنَّ هذا رأي رجل شديد النفور من الدوغماتية.

ما دام الإيمان الذي وصفته ليس أحمق ولا شريراً، فأنا أعتقد

٤٦- جنّي السنّ: أسطورة تُحكى للأطفال تقول إنَّ مقابل كل سنّ يسقط من فم الطفل يُعطيه جني نقوداً. - المترجم

Tele: @Arab_Books

أنه يستحق أنْ أصفه بكلمة مناقضة للتعالي الهائل لأمثال ديتشكينز، الذي يؤكّد بتوازنٍ دقيق بين الغطرسة والجهل على أنَّ كل إيمان دينيٍ بغيض. وليسَ من صُلب الخلاف بيننا أنَّ قسماً كبيراً منه بغيض فعلاً، ناهيك عن كونه سفاسف. لكنني أتكلَّم هنا جزئيّاً مُدافعاً عن أسلافي، ضد اتّهامهم بأنَّ المُعتقَد الذي كرّسوا حياتهم له لا فائدة منه وهباء. إنَّ جوهر الديموقراطية هو الاعتقاد بأنَّ أيّ معتقد تتمسّك به ملايين عديدة من الرجال والنساء على مدى فترات طويلة من الزمن من المستبعد أنْ يخلو من المزايا. وقد لا تكون مزاياه كما يتوقع المتمسكون به؛ ولكن هناك العديد من الاحتمالات بين هذا والحثالة الصِّرف. وينبغي أنْ تكون هناك دائماً إمكانية نزع النواة العقلانية من الثمرة الصوفية[٤٧]. وأنا أسعى أيضاً إلى تسديد ضربة صغيرة بالنيابة عن تلك الملايين الغفيرة من المسلمين الذين تعرَّضَ إيمانهم الذي أساسه السلام، والعدل، والتعاطُف، للتسخيف والانتهاك من قِبَل أصحاب ثقافة متفوقة في الغرب. إننا نعيش في عصر يُصبح فيه التمييز العنصري من جديد، منذ أحداث ٩/١١، مُحتَرَماً فكريّاً.

أنا لست أحمق حتى أتخيَّل ولو للحظة أنَّ ديتشكينز سوف يتأثّر بالوصف اللاهوتي الذي أوردته، بما أنه من ناحية لا يمثّل الحِكمة التقليدية لشمال أوكسفورد أو واشنطن دي سي. إنه يمثّل مَشهداً للوضع الإنساني أشدَّ ليبرالية مما يمكن لريتشارد دوكينز أنْ يؤيّده، بما

٤٧- إنَّ هذا يمنحني فرصة لإلقاء نكتة ماركسية مقيتة من اختراعي. فقد انتاب مديري إحدى شركات النفط القلق لأنَّ أحد مصانعهم يخسر خسارة فادحة، لأنَّ مَن يُديره هم من الإنجيليين الذين يُصدرون قراراتهم التجارية على أساس تعليمات تأتيهم من صوت الله. وعلى الأثر أرسل المديرون في طلب حلّال عُقد، عسكري سابق صاحب عقل صلب. لكنَّ جهوده ضاعَت هباءً، واضطر رؤساؤه في نهاية المطاف إلى نزع العقيد العقلاني عن الثمرة الصوفية. - المؤلف

Tele: @Arab_Books

يولي من ثقة متفائلة بأناقة، يتميَّز بها سكان الضواحي، في فعاليّة بقعة من الهندسة الاجتماعية هنا وجرعة من التنوير الليبرالي هناك. (حتى الفريق المناهض للتنوير لم يعُد مقبولاً، كما سأبرهن لاحقاً) ومشهد العالم الذي وصفته توّاً ليس من النوع الذي يسمع المرء عنه عادة على موائد عشاء نورث أوكسفورد أو في قدور لحم العاصمة الأميركية.

لقد جهر هيتشنز، ومارتن إيميس، وسلمان رشدي، وإيان مكوين[٤٨]، وأعضاء آخرون في الطبقة الأدبية المثقفة احتراماً لحرية التعبير، بمناهضتهم لِما شجبوه عن حق ووصفوه بأنه نزعة إسلامية متعصِّبة وجاهلة. ويجب الترحيب بهذا بحرارة. ولكن ليس بشكل مُطلَق. فمن ناحية، كان رشدي قد أعلن مؤخراً أنه أصبح الآن شديد البُعد عن السياسة – قد يقول قائل، هذا اعتراف غريب، في وقت يخضع شعبه لمزيد من الهجوم الشرس في الغرب، وللمزيد من المهانة والاحتقار المُدمرين، لم يتعرَّض لها منذ زمن بعيد. وقام أيضاً بالدفاع عن توصيات إيميس البغيضة الداعية إلى إزعاج المسلمين العاديين ومعاملتهم بتمييز عنصري، كما ورد في لقاء مُسجَّل بعد أحداث ١١/٩، كردّ فعل بسيط على الخوف الشعبي، وكأنَّ إيميس كان يقدِّم خدمة شعبية قيِّمة بقدحه المُصاب بالرعب. ورشدي يُنكر أيضاً أنَّ إيميس كان يُناصر التمييز العنصري أساساً، على الرغم من أنَّ هذا الأخير يتكلَّم في لقائه عن تفضيله «التمييز العنصري». وقام كريستوفر هيتشنز أيضاً بالدفاع عن تعليقات إيميس بأشد ما يمكن سماعه من تعبيرات لطيفة بأنها مجرد تجربة عقلية. غريبٌ كم يمكن لبعض المُعلّقين أنْ يتحمّسوا في بحثهم النزيه عن العدالة والحُكم الصحيح، إلّا عندما يتعلّق الأمر بأصدقائهم.

٤٨– مارتن إيميس وسلمان رشدي وإيان مكوين: ثلاثة من كبار الروائيين في إنكلترا. – المترجم

Tele: @Arab_Books

ومن ناحية أخرى، أليست هناك لمسة من الاهتمام الذاتي، وأيضاً من المبادئ الجديرة بالثناء، في تكريس المرء كامل طاقاته السياسية فقط للقضية التي تلمس مباشرة وضعه المهني؟ ماذا يقول المرء في نقابيّ كان صامتاً حيال كل شيء ما عدا حق الإضراب، أو في مدافعة عن حقوق المرأة غاضبة بشأن الإجهاض لكنها تبدو غير مُبالية بالعاملِ الذي يتعرَّض للاستغلال؟

إنَّ هذا النقد لا ينطبق على هيتشنز، الذي لطالما كان متورطاً سياسيّاً في طيف واسع من القضايا. لكنه حتماً ينطبق على مُراقبين آخرين ناقمين أخلاقيّاً في هذه الأيام. ماذا يفهم المرء من الخطب الطنانة التي يُلقيها الذين يبدو أنهم لا يعرفون عن السياسة أكثر من حقهم الثمين في نشر ما لديهم وفي أنْ يُعبّروا عن رأيهم؟ قد يدّعي أحدهم أنَّ الشعراء والروائيين ليس لديهم أيُّ امتياز خاص يؤهلهم للإدلاء بأحكام سياسية أكثر مما لدى الممرضات وسائقي سيارات النقل – وأنَّ كفاءاتهم لا تخوّلهم أنْ يُدلوا بآرائهم حول مثل تلك المسائل الخطيرة. ولكن إذا أصرّوا على إعطاء مثل تلك التصريحات فيُفضَّل أنْ يُحاول أولئك المُتاجرون المتمرسون بالعواطف الإنسانية أنْ ينظروا أبعد قليلاً من مصالحهم الخاصة، على أهميتها.

إذن الخصومة القائمة بين ديتشكينز وأمثالي هي سياسيّةُ الطابع بقدر ما هي لاهوتيّة. وأعتقد أنْ أعمق خلاف بيني وبين ريتشارد دوكينز ليس حول مسألة الله، أو العلم، أو الخرافات، أو الارتقاء، أو أصول الكون. إنَّ اللاهوتيين ليسوا مُهتمين البتّة كلاهوتيين، مثلاً، بما إذا كانت عملية فجّة ومتخبّطة كالارتقاء يمكن أنْ تُنتج شيئاً مُعقّداً بصورة ممتازة مثل هنري جيمس. إنَّ الاختلاف بين العلم واللاهوت، كما أفهمه، يدور حول ما إذا كنتَ ترى العالم كهبة أم لا ؛ ولا تستطيع أنْ تحلّ هذه المسألة فقط بالتمحيص فيها، إلّا بقدر ما تستطيع أنْ

Tele: @Arab_Books

تستخلص من تفحُّص آنية زهور من الخزف أنها هدية عُرس. إنَّ الفرق بين ديتشكينز والراديكاليين أمثالي أيضاً يتمحور حول ما إذا كان صحيحاً أنَّ المؤشِّر الأقصى على الوضع الإنساني هو جسد المجرم السياسي الذي يتعرَّض للتعذيب والقتل، ونتائج ذلك على العيش.

إنَّ الإيمان، الذي يبدو أنَّ ديتشكينز لا يُلاحظ وجوده، ليس في المقام الأول الاعتقاد بوجود شيء أو شخص، بل هو التزام وولاء - الإيمان «ب» شيء يمكن أنْ يُشكِّل فرقاً للوضع المُخيف الذي تجد نفسك فيه، كالإيمان، مثلاً، بحقوق المرأة في المساواة أو بمناهضة الاستعمار. إنه ليس في المقام الأول وصف الواقع، على الرغم من أنَّه حتماً يتضمَّن هذا أيضاً. إنَّ الإيمان المسيحي، كما أفهمه، ليس في المقام الأول مسألة الالتزام بافتراض وجود كيان سام، بل بنوع من الالتزام يُمارسه مخلوق بشري في أقصى حالات الضياع، متخبطاً في الظلام، والألم، والحيرة، ويبقى مع ذلك مخلصاً لوعد بحبّ متحول. لكنَّ مشكلة أمثال دوكينز في هذا العالم هي أنهم لا يجدون أنفسهم في وضع مخيف على الإطلاق (إلّا إذا وضع المرء، مثلي، الطاولة العالية في أوكسفورد[٤٩] في هذه الفئة)، يتجاوز حقيقة أنه يوجد الكثير من الأشخاص شبه مخبولين يُسمّون بالمؤمنين في أرجاء المكان.

من الطبيعي، إذن، أنه لا فائدة تُرجى منهم لأفكار عتيقة بصورة مُحرِجة مثل الحرمان والتحرُّر. حتى بعد محرقة أوشفيتز[٥٠]، لم يعُد

٤٩- في قاعة طعام كل جامعة كبرى في إنكلترا هناك طاولة أعلى مستوى من باقي الطاولات التي يجلس إليها الطلاب، وهي مُخصصة للمدير وللهيئة الإدارية. - المترجم

٥٠- أوشفيتز: بلدة صناعية في بولندا، كانت مركزاً لمخيم اعتقال أيام الحكم النازي أثناء الحرب العالمية الثانية، يُقال إنَّ محرقة ضخمة لليهود تمّت هناك. - المترجم

Tele: @Arab_Books

هناك أيّ شيء يستدعي التحرُّر منه. إنَّ الأمور ليست يائسة بالقدر الكافي. ففي رأيهم، إنَّ تخيُّل ذلك مجرد غلوّ يساري أنانيّ ومُدَّعى. إنَّ العقلاني الليبرالي ليس في حاجة إلى أنْ يؤمن بأنَّه على الرغم من وضع الإنسانيّة المُزري إلّا أنه لا يزال هناك أمل، بدرجة لا تُحتَمَل، بما أنهم لا يُصدقون هذا الوضع أصلاً. وهذا أحد الأسباب الهامة التي تجعل من الحديث عن الله لا معنى له بالنسبة إليهم، على الرغم من أنه ليس السبب الوحيد. إنَّ العديد من الناس يُنكرون الله لأسباب جديرة بالإكبار؛ ولكن فيما يتعلَّق بهذه النقطة، يُنكِره ديتشكينز لأسبابٍ مُضجِرة وسيئة السُّمعة سياسيّاً.

إنَّ المسيحية، بوصفها أول حركة جماهيرية عالمية حقيقية، تجد فيما ترى كملكوت الله القادم حالة من العدالة، والمودّة، وتحقيق الذات تتجاوز كثيراً كل ما يمكن أنْ يُعتَبَر في الحالة العادية ممكناً أو حتى مرغوباً في أشدّ أحياء أوكسفورد أو واشنطن ثراء. من الصعب تخيُّل أنه يمكن إبلاغ أحد أعضاء جماعة الضغط السياسي الواقعيين بصرامة في إحدى حانات واشنطن أنه فقط من خلال عملية مأساوية من الخسارة، والعدم، ونكران الذات يمكن للإنسانية أنْ تعود إلى ذاتها. وفي مثل تلك الحلقات المتمدنة، لم يعُد الحديث عن الله مقبولاً حقّاً إلّا بقدر ما الحديث عن الاشتراكية كذلك. ولا لعبة اللغة تناسب بسلاسة الروح الجماعية الصلبة للإمبريالية المعاصرة. وعندما يكتب كريستوفر هيتشنز في إحدى مُراجعاته عن لاهوت التحرُّر بوصفه مسألة «تدعو إلى الأسف»، يُدرك المرء أنه يُشير إلى التحرُّر على قدم المساواة كما إلى اللاهوت. بل إنه في كتاب «*الله ليس أكبر*» يُشير إلى أنه كانت هناك أسباب وجيهة لأنْ يعتبر البابا هذه الحركة اللاهوتية هرطقة. وليس من عادة كريستوفر هيتشنز في الغالب أنْ يُدافع عن البابا. لكنَّ هذا ينسجم تماماً مع سياسته. وفي ما يُسمّى بوثيقة سانتا

Tele: @Arab_Books

فيه لعام ١٩٨٠، استنكرت الحكومة الأميركية ذلك الفكر اللاهوتي بوصفه تهديداً مُخرِّباً. ويفهم المرء من كتاب دانييل دينيت المكتوب بلامبالاة، في نقد تقليدي بصورة مُخيّبة للآمال للدّين، «*كسر السّحر*»، أنه يعتقد أنَّ غزو العراق كان سيكون أمراً جيداً لو أنَّه أُعدَّ بصورة أفضل، وهذا كافٍ للإيحاء بأنَّ ليس كل مُلحِد مُحطِّم للمعتقدات الدينية راديكاليّاً بأيّ معنى آخر للكلمة.

إنَّ النظام الرأسمالي المتقدِّم مُلحد أصلاً. إنه بلا إله في ممارساته المادية الفعليّة، وفيما يتضمَّنه من قيم ومُعتقدات، مهما كان ما يُثبته بعضٌ من المُدافعين عنه برياء. وبهذا، هو مُلحد بالطُّرُق الخاطئة كلها، في حين إنَّ ماركس ونيتشه مُلحدان بالطُّرُق الصحيحة كلها. إنَّ مجتمعاً من الإنجازات الضخمة، والرغبة المُنضبطة، والسياسة المُنظّمة، والاقتصاد الاستهلاكي، من غير المُحتَمَل أنْ يغوص إلى مستوى طرح الأسئلة اللاهوتية بشكل لائق، تماماً كما يتناول المسائل السياسية والأخلاقية التي تتسم بقدر من العمق. فأيّ نفع يُرجى من فكرة الله في مثل تلك التركيبة، غير أنْ تكون تشريعاً أيديولوجيّاً، أو حنيناً روحيّاً، أو وسيلة للتخلُّص الشخصي من عالم بلا قيمة؟

ثمة مكان واحد لجأتْ إليه ما تُسمّى بالقيم الروحية، التي طُردتْ من وجه رأسماليّة براغماتيّة بوحشية، هو «أرض العجائز الحديثة»، صورة هزلية للعالم الروحي التي يتوقع المرء من حضارة مادية أنْ تنتجه. وكما أنَّ أصحاب القلوب القاسية يبكون لدى سماع موسيقى مُغرقة في العاطفية، كذلك أولئك الذين لا يلاحظون وجود قيمة روحيّة حقيقية إذا وقعت في حجرهم يرون الروحيّ مُخيفاً، أثيريّاً، وغريباً. وهذا، بالمناسبة، ما جال في بال ماركس عندما قال عن الدّين إنه: «قلبُ عالم بلا قلب، وروحُ أوضاع بلا روح». كان يعني بذلك أنَّ الدِّين التقليدي هو النوع الوحيد من القلوب الذي يمكن

Tele: @Arab_Books

لعالم بلا قلب أنْ يتخيّله، كما أنَّ الظُّرف الواضح بصورة مُحرجة هو النوع الوحيد من الكوميديا الذي يمكن لمن خلا من أيِّ ظُرف أنْ يتذوّقه. إنَّ الدِّين الذي يُهاجمه ماركس يكشف عن نوع من الفهم العاطفي، المُتحرر للروحيّ الذي يتوقع المرء أنْ يصدر عن ماديين صارمين.

إنَّ الرومانسية، كما يُشير ماركس نفسه، هي بالإضافة إلى أشياء أخرى الجانب الممتع من النفعيّة. والذين هم بكل معنى الكلمة دنيويون، وساخرون، وعمليون (كنجوم هوليوود وأشباههم) يكشفون عن سذاجة حقيقية لا قرار لها عندما يتعلّق الأمر بالروحانية. لا أحد ينتسب إلى الدنيا الآخرة أكثر من الدنيويّ، ولا أحد أرقّ حاشية من الشخص الصلب. والأمور الروحية يجب أنْ تكون طبيعيّاً أبعد ما يمكن عن المحامين، والمساعدين، ووكلاء الأعمال، ومُصففي الشّعر، وذلك لكي تكتسب بعض البدائل الخيالية. ولهذا السبب يؤمن أهل المدن والمتآلفون مع حياة الشارع من النواحي كلها أنَّ شؤون الأرض تتحكّم فيها سفينة فضاء غريبة متوقفة خلف غيمة. ولعلهم ما كانوا آمنوا بهذا لو أنَّ أحدهم لا يمتلك في المصرف أكثر من ٣٨ دولاراً. إنَّ المال هو أكبر مولِّد للزيف. والفكرة القائلة إنَّ الروحانية تعني زيارة المريض ومكافحة الجور جديرة بأنْ تصدم أولئك القبلانيين[٥١]، ومستحضري الأرواح والأطباء النفسيين البدائيين، بكونها مبتذلة بصورة لا تُحتَمَل. حتى المساعدين ومُصففي الشعر يفعلون ذلك.

بهذا المعنى بالضبط يصف كارل ماركس الدِّين بأنه «آهة المخلوق المُضطهَد»، بالإضافة إلى روح الأوضاع الخالية من

٥١- القبلانيون: هم المتصوفون اليهود. - المترجم

Tele: @Arab_Books

الروح[٥٢]. لقد كان المدّ الهائل لدين العصر الجديد في زمننا من هذا النوع. إنه ملجأ الهاربين من العالم، وليس رسالة لهدايته. وآهة المُضطَهَد، كنقيض لصرخة الغضب، ما هي إلّا عَرَض مَرَضيّ لما فينا من انحراف. وكعَرَض المرض العصبي بالنسبة إلى فرويد، هذا النوع من الإيمان الدِّيني يُعبِّر عن رغبة منحرفة تحلّ محله في الوقت نفسه. إنه لا يفهم أنَّ في استطاعتنا أنْ نعيش روحيّاً بأيّ معنى أصيل للكلمة إذا تغيَّرنا ماديّاً. وكالرومانسية، هو ردّة فعل إزاء عالم بلا قلب يبقي مُقتصراً على مجال المشاعر والقيَم. ولذلك هو يمثّل احتجاجاً على إفلاس روحي يبقى معه شريكاً كاملاً في الجريمة. ومع ذلك مثل هذا الدِّين هو دليل على السخط، مهما كان منحرفاً وبغيضاً. وعبارات مثل «آهة المخلوق المُضطهَد»، و«قلب عالم بلا قلب»، و«روح أوضاع بلا روح» لا يعتبرها ماركس مُنتقصة كثيراً. إنَّ الأوهام الدِّينية تحل محل أشكال عملية أكثر من الاحتجاج. إنها تُبرز مشكلةً ليست هي حلّها.

إنَّ الراديكالية الإسلامية والتطرُّف المسيحي سيبدوان مختلفين من هذا المنطلَق. فخلافاً للرومانسية أو التيار الجديد المُضاد للعجائز، هما حركتان جماهيريتان، وليستا فقط مذهبين للأقليّة الساخطة. الدِّين هنا ليس أفيون الشعب بقدر ما هو كوكايينها الصاعق. لقد انطلقَ التطرُّف بحق لتغيير العالم بدل أنْ يكتفي ببساطة بالهرب منه. وإنْ كان ينبذ قيم العصر الحديث، فهو على أتمّ الاستعداد لاستيعاب تكنولوجيته وصيغ تنظيمه، سواء أكانت على شكل حرب كيميائية أم وسائل إعلام تكنولوجية. وأولئك

٥٢- كارل ماركس، «**Contribution to the Cretique of Hegel's Phi-losophy of Right**»، في كتاب «**Karl Marx: Early Writings**»، تحرير ت.ب بوتومور (لندن: دار سي. أواتس، ١٩٦٣) صفحة ٤٤.

Tele: @Arab_Books

اليساريون الإنكليز أو اليساريون السابقون الذين دعموا غزو العراق، وكتبوا في بيانهم العام حول الموضوع قائلين: «إننا نرفض الخوف من العصر الحديث»[٥٣]، كانوا على خطأ على مستويين: إنَّ التوجُّه الإسلامي لا يرفض الحداثة ***Tout court*** (ببساطة)، وعلى أية حال هناك الكثير مما يستحق الرفض في العصر الحديث. وإذا اعتبرتَ أنَّ الحرب الكيميائية مسألة تافهة لا تُخيف لا يجعل هذا منكَ رجعيّاً ماضويّاً. وإذا كان هذا لا يُثير الخوف، فمن الصعب معرفة ما الذي يُخيف.

إنَّ التطرُّف المسيحي يسعى، على الرغم من خطر شجبه للثقافة القائمة على مبدأ المتعة والنسبية، إلى استعادة مفاهيم النظام، والطهارة، والاقتصاد، والعمل الدؤوب، والانضباط، والإحساس بالمسؤولية، وكل القيم التي تُهدد الروح الاستهلاكية الكافرة باقتلاعها. إنّ انتقاده للوضع الراهن، من بعض النواحي، صحيح تماماً، وهو ما لا يقرّ به العديد من الليبراليين الصالحين. إنَّ الرأسمالية المتأخرة تنتج بحقّ ثقافة المتعة الخالية من العقل، والهوس بالجنس، والضحالة الأخلاقية. كل ما في الأمر أنَّ التطرُّف يُقدِّم علاجاً لعلّه أسوأ من المرض نفسه. التطرُّف يتمسّك بالعالم الآخر بمعنى أنَّ قِيمَه تنبع من حقبة مُبكرة من عصر الرأسمالية (الإنتاج الصناعي)، وليس فقط بسببٍ أحلامه الوردية. إنه ليس آهة المُضطَهَدين بل المحرومين. والمتطرفون هم في الغالب أولئك الذين تركتهم الرأسمالية وراءها. إنها لا تؤمن بهم، كما سترفض الإيمان بأيّ شخص أو شيء لا يمدّها بالأرباح.

ولكن إنْ كان عصر العجائز الجديد غير مُسيَّس، فإنَّ التطرُّف

٥٣- اقتطفها دان هيند من كتاب «***The Threat to Reason***» (لندن: دار فرسو، ٢٠٠٧) صفحة ٢٢.

Tele: @Arab_Books

المسيحي مُعاد للسياسة. قد يكون مناضلاً سياسيّاً، لكنه في الأساس شكلاً من التثقيف culturalism، يسعى إلى استبدال السياسة بالدِّين. والأمر نفسه يصحّ على تنظيم القاعدة. لا شيء أشدّ مُعاداة للسياسة من زرع قنابل في أماكن عامة، حتى وإنْ كان ذلك باسم قضية سياسية. وكما يُعلِّق جيلبير أشقر[٥٤] قائلاً، في حين إنَّ لاهوت التحرير المسيحي هو أحد عناصر اليسار السياسي عموماً، «فإنَّ التطرُّف الإسلامي تطوَّرَ في مُعظم البلدان ذات الغالبية المُسلمة كمُنافس، وبديل، لليسار – في محاولته توجيه احتجاجه نحو «البؤس الحقيقي»، والدولة والمجتمع اللذين يُعتبران مسؤولَين عنه»[٥٥]. على هذا الأساس، فهو ينتمي إلى عصر تكشف فيه الثقافة عن ميل مُقلِق إلى أنْ تنمو بشكل هائل وتُصادر الجانب السياسي كله. وهناك ميول مُشابهة في ما يُسمّى بالهوية السياسية، بعضها ينتمي إلى خيبة الأمل العالمي نفسها بالسياسيّ. إنَّ الراديكالية الإسلامية، كالتطرُّف المسيحي، تؤمن باستبدال السياسة بالدِّين. فإذا فشلت السياسة في تحريرك، قد يكون نصيب الدِّين من النجاح أفضل. وسوف نعود إلى هذا الموضوع في نهاية الكتاب.

إذن ما يُميِّز عصرنا فيما يتعلَّق بالدِّين ليس فقط أنه يتنامى في

٥٤– جيلبير أشقر (ولد في السينغال عام ١٩٥١): أكاديمي لبناني اشتراكي. انتقل للعيش في فرنسا عام ١٩٨٣. درّس العلوم السياسية والعلاقات الدولية في **جامعة باريس الثامنة** حتى عام ٢٠٠٣. ثم شغل منصب مدير مركز مارك بلوخ في برلين. منذ عام ٢٠٠٧ يشغل أشقر منصب بروفسور في دراسات التطوير والعلاقات الدولية في **قسم الدراسات الإفريقية والشرقية في جامعة لندن**. وهو مُساهم مواظب في «لو موند ديبلوماتيك» و ZNet و«إنترناشونال فيوبوينت». في عام ٢٠١١ نشر مقالة في ZNet أثارت جدلاً واسعاً بين اليسار العالمي حول موقفه من «**تدخّل قوات التحالف في ليبيا**» لأسباب إنسانية. – المترجم

٥٥– جيلبير أشقر، من مقالة «**Religion and Politics Today**»، من «***So-cialist Register***» (لندن، ٢٠٠٨) صفحة ٥٩.

Tele: @Arab_Books

كل مكان، من النزعة النضالية الإسلامية والأرثوذكسية الروسية إلى النزعة الخمسينيّة[٥٦] Pentecostalism والبروتستانتية الإنجيلية في أميركا اللاتينية. وغالباً ما يبدو أنَّ هذه الولادة الجديدة تأخذ شكلاً سياسيّاً. إلّا أنَّ هذا يعكس فشلاً ذريعاً للسياسة وليس إعادة تنشيط لها. إنَّ العصر الحديث، في العموم، هو الفترة الزمنية التي يستقيل خلالها الدِّين من المجال العام في الغرب ويُصبح ممارسة خاصة، كالممارسة الجنسية الجماعية والخشب المُطعَّم. فإذا خلا من أيِّ معنى، فإنَّ الضرر الذي يمكن أنْ يتسبَّب به قد زال على الأقل. إنَّ ما بعد الحداثة هي حقبة يعود فيها الدِّين عامّاً وجماعيّاً مرة أخرى، ولكن كبديل للسياسة الكلاسيكية أكثر منه تأكيداً عليها. إننا نشهد عودة مُرعبة للافتتان بالعالم الرأسمالي المتأخّر – توهجاً جديداً للهالة الروحية، إنْ صح التعبير، بعد عصرٍ من الإنتاج الميكانيكي. إنَّ هذا تديّنٌ أصبح من جديد مستعداً ليحرِّض ويقتل. لعلَّ هذه أيضاً ظاهرة ما بعد الوطنية. في عصر الحداثة، تمدّنا النزعة الوطنية، كما ربما أشدّ أشكال السياسة «شاعريّة»، متنفّساً للطاقات الروحية أو الرمزية التي أُجبِرَت الآن على الهجرة إلى مكان آخر. إنَّ ما بعد الحداثة تنطلق من حيث تنتهي النزعة الوطنية الثورية.

ما هو ردّ ما بعد الحداثة على نوع اللاهوت الذي رسمتُ خطوطه العريضة؟ إنَّ فكرةَ رفض ما بعد الحداثة لذلك اللاهوت بطريقة ما واعية هي فكرة سخيفة. إنها لا تنطوي على قدر كافٍ من الوعي المذهبي لتفعل ذلك. إنها لم تَعُد تنبذ اللاهوت إلّا بقدر ما تنبذ اللغة السواحلية

٥٦– النزعة الخمسينيّة: هو مبدأ حركة ضمن المسيحية الإنغليكانية تُشدد على التجربة الشخصية المباشرة مع الله عبر عمادة الروح القُدس، وتُشدد على الأوجه الجذّابة من المسيحية وتتبنّى موقفاً متطرّفاً من الكتاب المقدَّس. ورد ذِكر تلك التجربة في الإنجيل – أعمال الرسُل (٢: ١–١١). – المترجم

Tele: @Arab_Books

أو لغة القطب الجنوبي. إنَّ مثل هذا النظام الاجتماعي لا يتلو اللاهوت إلّا بقدر ما تنتسب المادونا إلى ما بعد الداروينية. هناك لاهوت ما بعد الحداثة مزدهر، لكنه ليس نموذجاً للثقافة ككل. ومن المُستبعَد أنَّ كلمات كـ «جمال» أو «امتلاء» أو «خلاص» يمكن أنْ تبذل الكثير من الجهد في نظام اجتماعيّ حيث حتى كلمات كـ «تحرُّر» تُستقبَل بصمت مُهين. التحرُّر مَمَّ، بالضبط؟ ألا ينتمي هذا السؤال أكثر مما ينبغي إلى حقبة الستينيات في الحقيقة؟ كيف يمكن أنْ يكون هناك مستقبل متحوِّل في ثقافة سيكون المستقبلُ بالنسبة إليها، كما قال أحد مُفكّري ما بعد الحداثة بحماس، هو الحاضر «ولكن مع المزيد من الخيارات»؟

ما جدوى الإيمان والأمل في حضارة تعتبر نفسها مكتفية ذاتيّاً، وجيدة بصورة أو بأخرى قدر استطاعتها، أو على الأقلّ متقدِّمة على ما سبقها تقدّماً هائلاً؟ من الصعب تبيُّن الدور الذي يمكن للإيمان أنْ يلعبه، غير أنْ يكون مجرد دور أيديولوجي في عالم غربيّ لا يرى بعض سكّانه فيه أقلّ من جوهر استهلاك التاريخ الإنسانّي، لا يفتقر إلّا إلى أنْ يكون نفسه أكثر فأكثر؟ كيف يمكن لمثل هذا الشكل للحياة أنْ يتقبَّل أنَّ ثمة خطأً عميقاً في وضعنا – إنَّه ببساطة لا يُضيف شيئاً، وإنَّه من نواحٍ عديدة لا يُحتَمَل، وإنَّ إحدى الإشارات الرئيسة لهذا التنافُر وعدم التَحمُّل هي بلاء الفقراء؟

حتى الآن، لم تتخلّ الرأسمالية عن بُنيتها الفوقيّة الدينية والميتافيزيقية، مهما وجدتْ نفسها مُضطرة إلى فعله في المستقبل. وطبعاً هذا الاحتمال غير مُستبعَد، ليس إنْ كان الإيمان الدينيّ، في عالم يسوده الإرهاب، يتطابق باطّراد مع تطرُّف اجتماعي يُسبب اختلالاً. والمشكلة في الوقت الحاضر، ليس فقط في الولايات المتحدة، هي أنَّ الدِّين، بوصفه أحد الأماكن القليلة التي تستطيع فيها بعض القيم

Tele: @Arab_Books

الروحية التي نَبذَها السوق أنْ تجد لها ملجأً، أصبح في ظل هذا الوضع يأخذ موقف الدفاع عن النفس، والشعور بجنون الارتياب، وبما يُشبه المرض. وابتعاده عن العالم العمليّ أحد عواقب ذلك، كما أنه أحد عواقب الطابع «المَرَضيّ» لبعض نواحي الفن الحديث. ولذلك، الدِّين يُصبح أقلّ قدرة فأقلّ على تشريع النظام الاجتماعي، بما ينطوي عليه من أولويات بعيدة عن الله. ولذلك لم يعد له حتى أيُّ وظيفة أيديولوجية، مما يدفعه أكثر نحو الإهمال. إنَّ النظام الاجتماعي يكشف من خلال الممارسة اليومية عن أنه لا يؤمن ولا يستطيع أنْ يؤمن بالقيم الروحية التي من المُفترَض أنها عزيزة على قلبه، مهما ادّعى بوقار في أيام الآحاد أو في الخطابات الرئاسية الموجّهة إلى الأمة. إنَّ ما يفعله، والطريقة التي يُبرر هذا لنفسه، هما في حالة خصام غريبة أحدهما مع الآخر. إنه تعارُض بين المثل الأعلى والواقع الذي ينطبق أيضاً على قسم كبير من الدِّين، كما سنرى الآن.

Tele: @Arab_Books

الفصل الثاني

خيانة الثورة

إنَّ وصف الإيمان المسيحي الذي وضعتُ خطوطَه العامة توّاً أعتبره بكل معنى الكلمة أرثوذكسيّاً، ومُطابقاً لما جاء في الكتاب المقدس، وتقليديّاً. لا شيء فيه حديثاً أو عصريّاً؛ في الحقيقة، مُعظمه يعود في عهده إلى زمن الأكويني[1] وما قبل. وفي رأيي، إنه أشدّ واقعيّة من الناحية الإنسانية مما أتى به أشباه دوكينز. إنه يتناول كامل جوانب الفساد والضلال، في مقابل ما سوف نرى لاحقاً أنه المشهد البوليانيّ[2] المفرِط للتقدُّم الإنساني كما ورد في كتاب ***«وهم الله»***. في الوقت نفسه، إنه أكثر جرأة بكثير من الإنسانيين الليبراليين والعقلانيين فيما يتعلَّق بفُرَص ترميم هذا الوضع الرهيب. إنه أشدّ كآبة في رؤيته للجنس البشري من المفكرين الليبراليين الـ –***bien pensant*** (أصحاب الفكر القويم) (وحدها الفرويدية أو فلسفة آرثر شوبنهاور يمكنها أنْ تجاريه هنا)، وهو حتماً أشدّ ارتياباً بكثير من

١- القديس توماس الأكويني (١٢٢٣- ١٢٧٤): فيلسوف مدرسي، ولاهوتي إيطالي، وراهب دومينيكاني. - المترجم

٢- البوليانيّ: نسبة إلى اسم بطلة رواية تحمل الاسم نفسه ***«بوليانا»*** (١٩١٣) التي تتصف بتفاؤل مُفرِط. وهي من تأليف الكاتبة الأميركية إلينور بورتر (١٨٦٨- ١٩٢٠). ثم أصبح الاسم نفسه رديفاً للتفاؤل المُفرِط. - المترجم

Tele: @Arab_Books

التفاؤل الساذج للأيديولوجية الأميركية، التي تميل إلى إساءة فهم العبادة المتغطرسة للتجريب العملي واعتبارها فضيلة الأمل. (إنَّ الأمة التي تستطيع حتى أنْ تفكِّر في استبدال مركز التجارة العالمي ببناء آخر أعلى منه من الواضح أنها بطيئة الفهم، وليس فقط من وِجهة نظر الأمن القومي). إلّا أنه أيضاً يعتقد أنَّ هشاشة الإنسانيّ نفسها يمكن أنْ تُصبح قوة مُخلِّصة. في هذا المجال، هو متطابق مع الاشتراكية، التي ليس لدى المبشرين بنظام اجتماعي قادم ما يخسرون لصالحها في الوقت الحاضر.

إنَّ المسيحية تؤمن بأنَّ الكثير من الخبث الإنساني تراكم على مدى التاريخ، ويمكن معالجته بعمل سياسيّ. لكنها تعتقد أيضاً أنَّ من المقبول بقوة، بالنظر إلى حجم الشر الإنسانيّ وإلحاحه، الاعتقاد أنَّ هذا أقصى ما في الأمر – أنَّه ليست هناك أخطاء وتناقضات في بُنية الجنس البشري نفسه يمكن ببساطة إخفاؤها بين طيات التاريخ. والتحليل النفسي يحمل وجهة النظر هذه نفسها. وحتى الآن لم توجد ثقافة إنسانية هيمنت فيها الفضيلة. بعض أسباب ذلك قابلة للتغيُّر، بينما بعضها الآخر ليس كذلك. هذا بالإضافة إلى أنه لا يمكن القضاء على التمييز العنصري أو التمييز الجنسي أو الرأسمالية، بل ببساطة تناول مقدار معقول من المصاعب التي ينطوي عليها مثل هذا المشروع. ولكن في الوقت نفسه الإيمان المسيحي ينطوي بصورة سخيفة، ومُستفزة على الأمل أكثر منه على العقلانية الليبرالية، باعتقاده المُشوَّش بوضوح بأنه ليس فقط خلاص الجنس البشري ممكناً بل إنه، خلافاً لكل ما قرأنا في الصحف، قد حصل في المبدأ. حتى أشد التروتسكيين تفاؤلاً لا يمكن أنْ يُصدِّق هذا.

إنَّ عـدداً هائلاً من التُّهم التي يوجهها ديتشكينز ضد الدِّين الموجود فعلاً مُبرَّر تماماً، وهو يستحق قدراً كبيراً من الفضل لأنه

Tele: @Arab_Books

استعرضها بقوة عظيمة. في الحقيقة، من الصعب تصوُّر كيف يمكن لأيّ هجوم عنيف ضد، فلنقُلْ، اغتصاب رجال الدِّين للأطفال أو الحطّ من قدر المرأة أنْ يكون شديداً أكثر مما ينبغي أو مُبالغاً فيه. ومع ذلك ليس جديداً أنْ ندّعي أنَّ ديتشكينز يُدلي في الغالب برأي في الدِّين مع جهلٍ صاعق حقّاً بالعديد من العقائد - إنه وضع قارنتُهُ في موقع آخر بغطرسةِ شخصٍ يعتبر نفسه مؤهلاً لأن يُعطي رأياً في مسائل مُبهمة في عِلم الأحياء حول قوة المعرفة العابرة بـ«*كتاب الطيور البريطاني*»[٣]. قد يدّعي البعض في معرِض دفاعهم عن ديتشكينز أنه يتكلَّم عن الدِّين بوصفه ظاهرة اجتماعية، وليس لاهوتاً؛ ولكنْ كيف يمكن الحديث، فلنقُل، عن الفاشيّة كظاهرة اجتماعية من دون الإحاطة بدقّة معقولة بتعاليمها؟ وكما يقول دنيس ترنر[٤]: «غريب كيف يرتبك بعض المُلحدين لاهوتيّاً في أساليبهم»[٥]. ويكتب ستيفن ملهول[٦] في السياق نفسه عن «مفهوم المُلحِد الوهمي عن الله»[٧]. الملحد الذي ليس لديه إلّا فهم بدائي

٣- تيري إيغلتن، «**Lunging, Failing, Mispunching**»، مجلة «***London view of Books***» (١٩ تشرين الأول ٢٠٠٦) صفحة ٣٢.

٤- دنيس ترنر (مولود عام ١٩٤٢): أكاديمي بريطاني في مجال الفلسفة واللاهوت. كتب الكثير في مجال النظرية السياسية والنظرية الاجتماعية في صلتهما باللاهوت المسيحي، وكتب أيضاً في الفِكر القرن-أوسطي وفي اللاهوت الصوفي. - المترجم

٥- دنيس ترنر، «***Faith, Reason and the Existence of God***» (كمبريدج: كمبريدج يونيفرسيتي بريس) صفحة ٢٣٠.

٦- ستيفن ملهول (ولد عام ١٩٦٢): فيلسوف وزميل في نيو كوليج، أوكسفورد. يُركِّز في أبحاثه على لودفيغ فتغنشتاين وعلى الفلسفة ما بعد الكانطيّة. - المترجم

٧- ستيفن ملهول، «**Philosophical Myths of the Fall**» (برينستون، ن.ج: برينستون يونيفرسيتي بريس، ٢٠٠٥) صفحة ٢٢.

Tele: @Arab_Books

(ويمكن القول شيطانيّ) للاهوت نادر الوجود كنُدرة الأميركي الذي لم تختطفه مخلوقات فضائية.

إنَّ الحقيقة هي أنَّ عدداً كبيراً من المفكرين الدنيويين الذين لديهم وعي راقٍ بقدرٍ معقول بما يجري في الأوساط الأكاديمية إلى جانب وسطهم يُعطون نسختهم الخاصة الصّبيانية، الفظّة إلى أبعد الحدود لِما يعنيه اللاهوت تقليديّاً. وفي هذه الأيام، اللاهوت هو مُلك العلوم بالمعنى الأقلّ مهابة لكلمة «مُلك» من معناها في عزّ أيام العصور الوسطى. إنَّ هؤلاء المفكرين يدّعون أنَّ العقيدة المسيحية هي فكرة أنَّ الله هو نوع من الكيان المتفوق يقع خارج الكون؛ وأنه خلق العالم كما يُصمم نجّارٌ كرسيّاً؛ وأنَّ الإيمان بهذا الله يعني قبل أيِّ شيء تأييداً لافتراض أنه موجود؛ وأنَّ هناك ذاتاً أخرى داخل ذاتي تُسمّى الروح، قد يودِعها الله الحانق الجحيم إذا أساءت التصرُّف بصورة فاضحة؛ وأنَّ اعتمادنا المُطلَق على هذا الإله هو ما يمنعنا من التفكير والعمل من أجل أنفسنا؛ وأنَّ هذا الله يهتم بعمق بما إنْ كنا آثمين أم لا، لأنّنا إنْ كنا كذلك فإنه يُطالب باسترضائه، وما إلى هنالك من أوهام دنيوية.

إنَّ دانيال سي. دينيت يُعرِّف الأديان، بتوكيد كئيب، في بداية كتاب «***كسر السّحر***» بأنها «أنظمة اجتماعية يتعهَّد المنتسبون إليها بالإيمان بعميل أو بعملاء فوق طبيعيين يجب السعي إلى الحصول على رضاهم»[٨]، وهي تُشبه، حسب المسيحية، البدء بسرد تاريخ البطاطا بتعريفها بأنها نوع نادر من أفاعي الأجراس. ويرسم دينيت، متنبئاً، صورة الله على هيئة شيطان. وهو أيضاً يرتكب ما يشبه خطأ

٨- دانيال سي. دينيت، «**Religion as a Natural Phenomenon:Breaking the Spell**» (لندن: دار بنغوين، ٢٠٠٧) صفحة ٩.

Tele: @Arab_Books

ديتشكينز باعتقاده أنَّ الدِّين هو محاولة خرقاء لشرح معنى العالم، وهذا أشبه بمشاهدة عرض لرقص الباليه كمُحاولة خرقاء للّحاق بالحافلة. إنَّ هيتشنز، أيضاً، يكتب بأسلوب شيطانيّ عن الله بوصفه كياناً غاضباً، غيوراً، مُتعطشاً لسفك الدماء يُعلِّم الرجال والنساء أنْ يشعروا بأنهم بلا قيمة. إنَّ الله تعالى في رأيه هو نوع من النسخة الكونية للـ CIA، يجعلنا على الدوام تحت مراقبته.

عندما يُقال لأناس كهؤلاء إنَّ هذا تشويه فظ للإيمان المسيحي، يتخيلون أنَّنا نعني ليس أنهم لا ينتمون من قريب أو بعيد إلى المذهب الأورثوذكسي، بل أنّهم دُفِعوا إلى العصر الحديث بقبضة سلفيين ليبراليين يحملون الغيتار. وفيما يتعلّق باللاهوت، يشترك ديتشكينز مع إيان بيزلي[٩] وإنجيليّ التلفزيون الأميركي بعدد هائل من القواسم. فكلا الفريقين يتفقان تماماً حول ما يتوقف عليه الدِّين: الفرق الوحيد هو أنَّ ديتشكينز يرفضه بينما بات روبرتسون[١٠] وفريقه المتملِّق يتغذّون عليه. هناك دائماً مواضيع يستسلم فيها أصحاب العقول المرتابة بسهولة لأسوأ أنواع التحامُل. فغالبية المختصين النفسيين الأكاديميين لديهم جاك لاكان؛ وفلاسفة أوكسفورد لديهم هايديغر أو سارتر؛ والمواطنون السابقون للكتلة السوفيتيّة لديهم ماركس؛ والملحدون المناضلون لديهم الدِّين.

٩- إيان بيزلي (مولود في عام ١٩٢٦): رجل سياسة إنكليزي، ورجل دين في أيرلندا الشمالية. رئيس حزب العمال الديموقراطي. انتقد الإيمان الكاثوليكي وشن حملة ضد تشريع الشذوذ الجنسي. - المترجم

١٠- بات روبرتسون (مولود عام ١٩٣٠): شخصية تلفزيونية هائلة التأثير في التلفزيون الإنجيلي. رجل دين ورجل أعمال. منشئ العديد من المنظمات الإنسانية والحقوقية. شبّهه مستشار الرئيس أوباما بأسامة بن لادن قائلاً إنه دكتاتور يعمل ضد التعايُش. - المترجم

Tele: @Arab_Books

من المنطقيّ تماماً، في الواقع، أنَّ أولئك الذين لا يرون في الدِّين إلّا وعياً زائفاً يُخطئون فهمه، إذ ما الفائدة التي تُجنى من دراسة دقيقة لنظام الإيمان الذي تعتبره مؤذياً وأحمق على قدم المساواة؟ مَنْ ذا الذي سيباشر تحقيقاً مضيَعة للوقت حول ما يعتقده القبلانيون، وأتباع العبادات السرية، والروزيكرشيون[١١]، في حين لا يزال أمامه أنْ يقرأ رواية *«الحرب والسلم»* وأنْ يودِع الأطفال أسرّتهم؟ إذن أولئك الذين يُجادلون بأشد شراسة ضد الدِّين هم الذين يتَّضح بانتظام أنهم الأقلّ أهلية ليفعلوا ذلك، وعدد مثلهم ممَّن يُجادلون بعنف ضد نظرية الأدب لا يكرهونها لأنهم قرؤوها، بل بالأحرى لا يقرؤونها لأنهم يكرهونها. وكأنَّما عندما يتعلَّق الأمر بالدِّين – الشكل الوحيد الأقوى، والأكثر انتشاراً، واستمراراً للثقافة الشعبية التي شهدها التاريخ الإنساني قاطبة، بالإضافة إلى أنه من نواح عديدة الأشد فظاعة – فإنَّ أية مُحاكاة قديمة تنفع. وهذا الرأي يَتقاسمه الذين يقفون بحماس إلى جانب عامة الناس.

بطريقة مُشابهة، عندما يتعلَّق الأمر باليسار السياسي، توجَّه أنواع الضربات القوية، والطعنات النجلاء، والافتراءات المكشوفة كافة إلى بعض خصومهم، الذين نحن مُجبَرون الآن على إضافة النصف الأكثر إدماناً على الخمر من ديتشكينز إليهم. وعندما يتعلَّق الأمر بالله، يُسمَح بصورة مقبولة للعقلانيين الليبراليين المتعوّدين في الحالات الأخرى على إقحام نقاط تمييز دقيقة، أنْ يكونوا قذرين وخشنين كما يرغبون. وفي وجه ما يُسمى بمذهب اللاعقلانية، يستسلم العِلم للنبرة العالية دون مقاومة. وعلى غِرار ما يُسمّى

١١– الروزيكرشيون: أتباع جمعية سرية انتشرت بين القرنين السابع عشر والثامن عشر، وتدّعي معرفةً سرية بالطبيعة والدين. – المترجم

Tele: @Arab_Books

الحرب على الإرهـاب، تتعرَّض هذه العقلانية لخطر مُحاكاة «اللاعقلانية» التي تواجهها وهي تسعى لمقاومتها.

هذا الاستهداف للمسيحية أصبح الآن أمراً مُبتذلاً بصورة كئيبة بين الأكاديميين والمفكرين – بمعنى، بين أولئك الذين لا يسمحون لطالب السنة الأولى بأنْ ينجو من العقاب على الرسوم الكاريكاتيرية السوقية التي هم أنفسهم يستمتعون بمشاهدتها بلامبالاة. إنَّ كلام ديتشكينز في اللاهوت أشبه بشخص يُطالب بلَقَبٍ في النقد الأدبيّ بقوله إنَّ الرواية تحتوي بعض النقاط القليلة الجيدة وبعض النقاط المروعة أيضاً، وإنها تنتهي نهاية حزينة جداً. إنهما يعتقدان، على سبيل المثال، أنَّ المسيحيين إيمانيون[١٢]، وأنَّ العقل لا صِلة له بالإيمان، وهو أمر يُشبه الإيمان بأنَّ الاسكتلنديين كلهم بخلاء سليطو اللسان. (لودفيغ فيتغنشتاين، بالمناسبة، كان يتميَّز بشكل نادر بأنه إيمانيّ دون أنْ يكون مؤمناً). إنَّ كتاب هيتشنز ***«الله ليس أكبر»*** زاخر بالعواء اللاهوتي البدائي. نحن نعلم أنَّ الله في العهد القديم لا يتكلَّم أبداً عن التضامُن والشفقة؛ وأنَّ المسيح ليس من الطبيعة البشرية؛ وأنَّ عقيدة البعث تعني أنه لم يمُتْ. وفي فِقرةٍ من التاريخ المكتوبة بأسلوب سُريالي، يبدو أنَّ هيتشنز يعتبر الطائفة اليهودية المغمورة التي وُجِدَتْ في القرن الثاني قبل الميلاد المعروفة باسم المكابيين مسؤولة ليس فقط عن ظهور المسيحية ولكن أيضاً عن مجيء الإسلام. ومن المُدهِش أنه لم يربط الستالينية بهم أيضاً. ويبدو دوكينز، من ناحيته، أنه يؤمن بأنَّ بولس الرسول هو الذي ألَّفَ رسالة بولس إلى العبرانيين، وأنَّ مقولة أنَّ يسوع هو ابن الله تعني أنه كُلِّي العِلم. إنَّ النصيحة العاقلة القائلة بوجوب معرفة عدوّك نُحّيَتْ جانباً

١٢ – إيمانيون: يعتمدون على الإيمان دون العقل. – المترجم

Tele: @Arab_Books

بعجرفة. لقد أصبح أشباه فرانك كرمود[١٣] في هذا العالم نادرين حقّاً[١٤].

إنَّ كتاب *«الله ليس أكبر»* هو أيضاً تصوير رائع لكون المتطرفين المُلحدين بطرقٍ معيَّنة يمثلون صورةً للمتطرفين المسيحيين في مرآة مقلوبة. وليس فقط في حماسهم المُفرِط وهوسهم المُملّ. إنَّ هيتشنز يؤكد برصانة أنَّ سفر الخروج لا يذكُر الحيوانات الجرابيّة؛ وأنَّ يهود العهد القديم ما كان يمكن حتماً أنْ يتيهوا على مدى أربعين عاماً في الصحراء، وأنَّ الاستيلاء على سرير العملاق أوغ الضخم[١٥]، ملك باشان، كان يمكن ألّا يقع أصلاً، وما إلى ذلك. إنَّ هذا أشبه بشخص يُحاول بحماس أنْ يُقنعك، بانتباه شديد إلى التفاصيل الهندسية والحيوانية، بأنَّ كينغ كونغ ما كان يمكن أنْ يعتلي مبنى الإمباير ستيت لأنَّ المبنى كان سينهار تحت وطأة ثقله. إنَّ هذا لا يُنزِل الكتاب المقدس إلى مستوى الأساطير، والشِّعر، والأدب، لحمايته بأمان من التعرُّض للتمحيص العقلاني أو التاريخي. إنه ببساطة يُشير إلى أنَّ العلاقات بين هذه المجالات والحقيقة التاريخية الواردة في الكتاب المقدس تتعقَّد

١٣- فرانك كرمود (١٩١٩- ٢٠١٠): ناقد أدبي. معروف خاصة بكتابه **«الإحساس بوقوع نهاية: دراسات في نظرية الرواية»** وأيضاً معروف بمراجعاته للكتب وبتحريرها. ولديه كتب كثيرة في النقد. - المترجم

١٤- انظر، على سبيل المثال ـ كتاب كرمود **«The Sense of an Ending»** (أوكسفورد: أوكسفورد يونيفرسيتي بريس، ١٩٦٧) وأيضاً **«The Genesis of Secrecy»** (كمبريدج، ماساتشوستس: هارفارد يونيفرسيتي بريس، ١٩٧٩)، وكلاهما يكشف عن إحاطة مرهفة بالقضايا اللاهوتية من ناحية النقد المدني. - المؤلِّف

١٥- حسب العهد القديم يُعتَبَر الاستيلاء على سرير العملاق الضخم، آخر ملوك باشان، انتصاراً كبيراً للإسرائيليين، لأنَّ السرير ذا الأبعاد الهائلة كان رمزاً لجبروت ذلك الملك وسطوته. - المترجم

Tele: @Arab_Books

باطّراد، وأنه في هذا الموضوع كما في العديد غيرها، هيتشنز جاهل جهلاً يوقف شعر الرأس بأجيال من الثقافة التوراتية الحديثة.

في موقع آخر من هذا الكتاب ينتقد بقسوة المحاولة الدِّينية «للتشديد على العقل الأدبي والمحدود على حساب العقل الساخر والمُستفهِم» (صفحة ٢٥٩). وبالنظر إلى أنه يُحاجي مُعظم الوقت على المستوى نفسه مع المتطرّفين، والفرق الرئيس يكمن في وِجهة النظر، فإنَّ من الجليّ جداً على أيّ من الجانبَين اللذَين حدَّدهما بنفسه يقع. وفي مُعظم الوقت يستسلم الساخر الليبرالي دون مقاومة للمتفائل الأخرق. إنَّ التطرُّف في مُعظمه هو فشلُ المُخيِّلة، وفي تناوله الكتاب المقدَّس (كنقيض، فلنقُلْ، لقراءته جورج أورويل أو شاؤول بيلو)، تفشل مُخيّلة هيتشنز فشلاً كارثيّاً. وعلى غِرار دوكينز، يفشل في الإحاطة بطبيعة الدعوى اللاهوتية. إنه أشبه بناقد أدبي فاشل يمزِّق مشهد السير في أثناء النوم في مسرحية ***«ماكبث»*** عن كامل السياق المعقَّد للدراما ويسألنا ساخطاً ما إذا كان ذلك ممكناً. وهذا لا يعني ضمناً أنَّ المسيحيين يعتبرون إنجيلهم قطعة أدبية. في الحقيقة، إنَّ تلك المعارضة الساذجة بحد ذاتها تشكّل جزءاً من المشكلة.

من المؤكّد أنَّ المسيحية ذاتها هي المسؤولة في المقام الأول عن الرداءة الفكرية لنقّادها. وبعيداً عن مِثال الستالينية البارز، من الصعب التفكير في حركة تاريخية خانت بحقارة أصولها الثورية أكثر منها. لقد انتقلت المسيحية تماماً ومنذ زمن بعيد من جانب الفقراء والمحرومين لتقف إلى جانب الأغنياء والعِدوانيين. وفي الحقيقة ليس لدى المؤسسة الليبرالية ما تخشاه منها بل إنها تربح كل شيء. لقد أصبحت في معظمها عقيدة الأثرياء الذين يُقيمون في الضواحي، ولم تعُد الوعد المُدهش للدهماء وللمناضلين الذين يعملون في الخفاء ضد الاستعمار ورافقهم يسوع نفسه. إنّ استجابة أهالي الضواحي للـ ***anawim***،

Tele: @Arab_Books

وهي كلمة يمكن ترجمتها على وجه التقريب إلى الإنكليزية الأميركية بالـ «فاشلين»، هي في الغالب بإزالتهم من الشوارع.

هذا النوع من التقوى يُصاب بالرعب من مشهد صدر أنثى، لكنه يكون أقلّ رعباً بكثير أمام الجور الفاحش الذي يمارسه الأغنياء بحق الفقراء. إنه ينوح على موت جنين، ولكن يبدو أنه لا يتأثّر باحتراق الأطفال حتى الموت في العراق أو أفغانستان باسم هيمنة الولايات المتحدة الأميركية على الكرة الأرضية. وفي العموم، إنه يعبد إلهاً شكّله بطريقة كافرة على صورته هو – إله حليق الذقن، قصير الشّعر، يعبث بمسدس، مهووس بالجنس ولديه اهتمام خاص بذلك الجزء من الكرة الأرضية المُميَّز أونطولوجيّاً[١٦] ويقع إلى الجنوب من كندا وإلى الشمال من المكسيك، وليس بيهوه[١٧] الذي لا وطن له، ولا وجه، ولا دولة، ولا صورة، ويحثّ عباده على الخروج من مستوطناتهم المريحة إلى أهوال الصحراء التي لا دروب فيها، ويُبلغهم ساخراً أنَّ رائحة قرابينهم المحترقة تملأ منخريه. ويُخبروننا أنَّ هناك صلاةً «من أجل المُنجزات الراقية» ويُذكَرُ فيها أنَّ الله «أعظم المُنجزين قاطبة». في الحقيقة، إنَّ الإنجاز الوحيد من إنجازاته التي نستطيع أنْ نراه بأعيننا حقّاً هو العالم؛ وإذا كان هذا أفضل ما يستطيع أنْ يُنجِز، فإنَّ أملنا يخيب بكل وضوح بمواهبه.

بعيداً عن رفضها أنْ تتطابق مع قِوى هذا العالم، أضحت المسيحية اللغة الخاصة المُقززة للنفس، للسياسيين، والمصرفيين الفاسدين، والمُحافظين الجُدد المتعصبين، بالإضافة إلى أنها صناعة تدرُّ أرباحاً طائلة لصالحها. وهناك شركة في الولايات المتحدة اليوم إذا اشتركتَ

---

١٦ – الأونطولوجيا: عِلم الوجود.

١٧ – يهوه: إله العبرانيين.

Tele: @Arab_Books

فيها سنوياً سوف تُرسِل تلقائياً رسائل إلكترونية إلى أصدقائك وزملائك الغادرين عندما يظهر المسيح من جديد، تناشدهم لإجراء حديث الدقيقة الأخيرة معك قبل أنْ «تنتشي» أنت نفسك بالارتقاء إلى السماء ويُتركوا هم وحدهم على الأرض. لعله لا توجد أمة أخرى على الأرض انتزعت مثل هذا الخليط من الهراء الخرافي من العهد الجديد مثل الولايات المتحدة، بما تتصف به من موهبة لا شِفاء منها في المُغالاة.

لقد مارست الكنيسة المسيحية التعذيب ونزع الأحشاء باسم يسوع، وكَمّمت أفواه المُنشقّين وأحرقتْ مُنتقديها أحياء. كانت مُداهنة، ومُنافقة، ومُضطهِدة بوحشية، ومتعصِّبة بخسّة. الأخلاق بالنسبة إلى هذا النوع من الإيمان مسألة تتعلّق بغرفة النوم وليس بغرفة الاجتماع. إنها تدعم الأنظمة الديكتاتورية المجرمة باسم الله، وتعتبر النقد والتشاؤم صفتين غير وطنيتين، وتتخيَّل أنَّ كونكَ مسيحيّاً يعني أنْ ترسم تكشيراً مُبهماً، وأنْ تمتلك رصيداً ضخماً في المصرف، وأنْ يمتلئ فمك بالتفاهات الورعة. إنها تشجب الإرهاب، لكنها تستثني منه إجراءاتها القاسية، كالاختطاف، والتعذيب، ومؤسسات مجرمة كالـ CIA. (بالمناسبة، أحد تدخلات الـ CIA الذي لم يتلقَّ الاهتمام الفوري الذي يستحق كان نشر الوكالة ترجمة إلى الروسية لقصيدة ت.س إليوت *«الأرض اليباب»* في أثناء الحرب الباردة. هل كان ذلك من أجل استعراض فضائل الشِّعر الحر وحرية التعبير، أم من أجل إضعاف معنويات السوفييت ببثّ فيروس روح العدميّة بينهم؟)

إنَّ هذا النوع من الإيمان يفشل في إدراك أنَّ الشفاء الوحيد من الإرهاب هو تحقيق العدالة. وهو أيضاً يفشل في استيعاب كمْ أنَّ خلقَه الشنيع الذي يصخب على أبوابه بشعاً ومُشوّهاً. إنه عاجز عن تمييز ذلك الشيء المُظلِم كجزء منه، وعاجز عن رؤية انعكاس صورته

Tele: @Arab_Books

على وجهه المشوَّه. على ضوء هذا كله، إنَّ هذيان ديتشكينز الميال إلى القتال، إنْ كانت له أية صِفة، مكبوت تماماً. من الصعب تجنُّب الإحساس بأنَّ إلهاً برّاقاً، وداهية، وواسع الخيال كذاك الذي يمكن أنْ يوجد ما كان يمكن أنْ يعثر على طريقة أفضل لإنقاذ العالم من الدِّين.

إذن، أنا أتكلَّم عن التمييز بين ما يبدو لي أنه توراتيّ والنوع الأيديولوجي من الإيمان المسيحي - تمييز لا يمكن أبداً افتراضه ببساطة ولكن يجب مناقشته مطوّلاً. وأحد الأسماء التي تُطلَق على هذه الممارسة العاقّة هو ما أطلقَ عليه نيتشه، الذي رأى أنَّ الكنائس هي قبور الله وأجداثه، بالتعبير الكييركغاردي[١٨] إنقاذ المسيحية من العالم المسيحي. إنَّ أيَّ تعليم من تعاليم الإنجيل يفشل في أنْ يُشكِّل فضيحة وإهانة للوضع السياسي لا معنى له في رأيي بكل معنى الكلمة. إنه مشروع لا يعِد في الوقت الحاضر بالكثير من النجاح. ولكن من وِجهة نظر القيم التي تبرز في أماكن أخرى من الإرث اليهودي- المسيحي نفسه نتعرَّف إلى تلك المحاولات الفاشلة في الكنائس - تماماً كما أنَّ الحضارة الليبرالية، إنْ صحَّ التعبير، هي ناقدة نفسها الأبرز، كثقافة تسمح لنا بأنْ ننتقد بشدّة عيوبها بالإشارة إلى معاييرها العالية الجديرة بالثناء.

ومع ذلك، قد يعترض أحدهم على أنَّ وصف الإيمان المسيحي الذي أوردته هنا هو نِتاج النخبة المثقّفة النائية بنفسها بتعالٍ عن دينٍ موجود فعلاً. هذا ما يمكن أنْ يُسمّى حجّة فرد من حزب الشعب جالس على مقعد في الكنيسة. وطبعاً صحيح أنَّ هناك فجوة بين الفهم اللاهوتيّ الراقي للإنجيل المسيحي، وإيمان ملايين الرجال والنساء

١٨- نسبة إلى الفيلسوف واللاهوتي الدانماركي سيرين كييركغارد (١٨١٣ - ١٨٥٥)، أبي الوجودية. - المترجم

Tele: @Arab_Books

الذين ليس لديهم وقت الفراغ ولا الثقافة لتقصي هذه الأسئلة العلمية. وهناك فجوة مماثلة بين دوكينز وأيّ مؤمن عاديّ بالارتقاء، أو بين الفقه الإسلامي وأولئك الراديكاليين الإسلاميين الضالين الجهلة إلى أبعد الحدود بإيمانهم الخاص. صحيح أنَّ عدداً غفيراً من المسيحيين قد وقعوا فريسة لنُسخ أيديولوجيّة بصورة فاضحة للإنجيل – بمعنى، نُسخ منه تستغلها لصالحها بصورةٍ أو بأخرى ما يُسميها القديس يوحنا بغموض باسم قِوى هذا العالم. وحسب ما أرى، ليس في الكتاب المقدس ما يدعم ما أعتقد أنه ربما لا زال العُرف في جامعة براغام ينغ لطائفة المورمون (إنني أُحجمُ عن وضع تلك الكلمة الأخيرة في المقتطفات المُفزِعة)، حيث يُطلَب من أولئك الطلاب أو أعضاء الهيئة الإدارية الذين يُرسلون لحاهم لأسباب طبيّة أنْ يُثبّتوا على صدورهم ما يُسمى ببطاقة اللحية. ولكن لعلّي تغاضيتُ هنا عن بعض الآيات المُضادة للحِلاقة الواردة في إنجيل لوقا وإنجيل متّى.

الأمر ليس أنَّ هذا الفهم للإنجيل مُقتصر على النخبة المثقّفة. وأنا متأكِّد من أنه كان جديراً بوالدي، الذي ترك المدرسة في سن الخامسة عشرة لكي يعمل عاملاً يدويّاً في مصنع، ولم يقرأ أيَّ كتاب في حياته، أنْ يقرَّ بذلك. وبالطريقة نفسها، إنَّ أولئك الذين يقفون في صف اليسار السياسي ويعتبرون الاشتراكية أكثر من مجرّد معسكرات عمل إلزامي وجرائم جماعية ليسوا ببساطة شلّة من العقلاء تَصادفَ أنْ كانوا على علم بتعقيدات الـ ***Grundrisse*** (الخطة). على العكس، إنَّ مئات الآلافَ من أفراد حركة الطبقة العاملة العاديين رفضوا تلك الادّعاءات (الادّعاءات بحد ذاتها تُطلقها عادة شلّة من المثقفين) لصالح نسخة أكثر أصالة من الاشتراكية. وليس هناك سبب يدعو إلى اتّخاذ أيِّ موقف مختلف من الحركة المسيحية. على أية حال، إنَّ المرء لا يطرح

Tele: @Arab_Books

أسئلة حول، مثلاً، ما إذا كان العهد الجديد[١٩] يقفُ إلى جانب الأغنياء وأصحاب النفوذ بأنْ يُجاري ما يؤمن به معظم الناس، تماماً كما أنَّ المرء لا يُثبت القانون الثاني من الديناميكا الحرارية بهتاف شعبيّ. على المرء ببساطة أنْ يبذل أقصى جهده لمناقشة المسألة بإيراد الدليل.

إنَّ الذين يرفضون ما قد أراه قراءات راسخة للإنجيل لأنها لا تجد دائماً جمهوراً واسعاً بين المسيحيين يُشبهون الذين يعترضون على بعض المذاهب الليبرالية الراسخة ببساطة لأنَّ العديد من الأناس العاديين يؤمنون بوجوب إعدام مشتهي الأطفال جنسيّاً بالكرسي الكهربائي وبإعادة المُهاجرين بحراً إلى البلاد التي أتوا منها. ولكن ليس كلهم يفعلون. إنَّ الأناس العاديين الذين يقولون أشياء مثل: «سيكون عالماً غريباً إذا كان تفكيرنا كله متشابهاً»، أو: «إنَّ تكوين عالم يستلزم وجود الأنواع كلها» (وهو، بالمناسبة، قول مُبتذَل وجده لودفيغ فيتغنشتاين «أجمل وألطف ما قيل») قد لا يكونون جميعاً متمرّسين في قراءة جون لوك أو جون ستيوارت ميل ؛ ولكن هذا لا يعني أيضاً أنهم وحوش فاشستيون. أو على الأقلّ معظمهم ليسوا كذلك.

ثم، إنْ كان الدِّين قد فشل فشلاً ذريعاً في أنْ يرقى إلى مستوى مبادئه الأساسية، فماذا عن الليبرالية؟ ماذا عن ليبرالي الطبقة الوسطى أو عن الأسطر المفيدة التي يُدافع عنها ديتشكينز بحماس؟ ألم يكن هؤلاء أقلّ مثاليّة في ولائهم لمذاهبهم المُثيرة للإعجاب؟ وماذا عن الممارسات العنيفة التي تُرتكب باسم الحرية والديموقراطية في الخارج، والبؤس الذي تُسبّبه التفرقة العرقية والجنسية، والتاريخ الخسيس للاستعمار والإمبريالية، وجيل الفقر والمجاعة، والحرب والإبادة الجماعية الشاملة، وتسليح ودعم طاغية بغيض بعد آخر؟ إنَّ

١٩ – العهد الجديد: بالمعنى الديني؛ القسم الثاني من الكتاب المقدس. – المترجم

Tele: @Arab_Books

إرهاب ارتكاب المذابح الإنسانية التي ارتُكِبَتْ بفظاعة في الغرب لا شيء في الواقع إذا قُرِنَتْ بالتاريخ الطويل من حمّام الدم والاضطهاد الذي ارتكبه الغرب نفسه. صحيح أننا لا نعلم ماذا يُخبئ لنا المستقبل في هذا المجال، ولكن سوف يستغرق من أشدّ الإرهابيين تصميماً وقتاً طويلاً جداً لمنافسة السجل البربري من الحروب والممارسة الإمبريالية الغربية. ومن المُحتَمَل تماماً أننا نحن الذين في الجزء الأكثر ازدهاراً من العالم سوف نهلك عبر شجاراتنا الضروس الخاصة كما يمكن أنْ نهلك عبر سردنا الجديد للإرهاب. إنَّ معظم أولئك المُعلّقين الغربيين الذين استقبلوا جرائم الإرهاب الإسلامي برعب وهذيان لم يصرخوا بصوت عالٍ بالقدر الكافي إزاء اللائحة الطويلة من الأعمال الوحشية التي ارتكبتها حضارتهم المُفتَرَض أنها مُستنيرة. لماذا لم تصرخ نقمتهم الأخلاقية بنبرة عالية إلّا بعد أحداث ١١/٩، عندما أصبحوا هم أنفسهم وللمرة الأولى ضحايا مُحتمَلين لهجوم عليهم؟ لا خطأ على الإطلاق في الاحتجاج على المتعصبين المتعطشين للدماء الذين يسعون إلى حرمانكَ من أطرافك، ما دام لديك حسّ أوليّ بالعدالة بحيث تشير إلى أنَّ أحد أبرز أسباب هذه النية المُجرمة هو الطريقة المُخزية التي عامل بها الغرب الآخرين في الماضي.

يبدو جليّاً جداً من مقالة سوزان فالودي[٢٠] Faludi الجريئة ***«حلم الرعب: ما كشفت عنه أحداث ١١/٩ عن أميركا»*** أنَّ الكثيرين في

٢٠- سوزان فالودي (ولدت عام ١٩٥٩): كاتبة وصحفية ومدافعة عن حقوق المرأة. أميركية. فازت بجائزة بوليتزر للصحافة التفسيرية عام ١٩٩١ عن تقريرها حول فعالية مقاطعة شركة سيف واي التي تدير سلسلة من المخازن التجارية العامة، وهي ثاني أكبر شركة لسلسلة من المتاجر العامة في أميركا الشمالية. ولها باع طويل في مجال الدفاع عن حقوق المرأة. من كتبها ***«الحركة الارتجاعيّة: الحرب غير المُعلنة على المرأة الأميركية»***. - المترجم

Tele: @Arab_Books

الولايات المتحدة الأميركية لم يتعلّموا أيَّ درس من مذابح ١١/٩. تقول فالودي، لقد شكّلت أحداث ١١/٩ أزمة في الرجولة الأميركية استعادت الأمة عافيتها منها بسرعة كبيرة. وبعد مرور فقط بضعة أسابيع على الهجوم، لجأ جورج بوش إلى مساعدة حفنة من أقطاب هوليوود من أجل الترويج لشن حرب على الإرهاب؛ وكان جزء من المشروع الترحيب بعودة الرجولة الأميركية التقليدية بعدما اقتطفَ أحدُ الكتّاب ما أسْمته فالودي «اغتصاب فحولة الرجل الأميركي». لقد أصبح الذكور الأميركيون، تحت التأثير المُخصي للمساواة بين الجنسَين، مترهلين ومخصيين، أصبحوا عاهرات ذكوراً حليقي الذقون وأنيقين، أسلوب حياتهم الرخو جعل الأمة عُرضة للاعتداء الإسلامي. لقد قُطع رمز العضو الذكري لأميركا، كما تخيَّل أحد المُدونين، ورسم تحت الكلام فرجاً كبيراً مُستكيناً. وكانت استجابة أحد الصحفيين الأميركيين على خسارة حياة ثلاثة آلاف شخص بالقول: «حسن، إنَّ هذا يُطيح حتماً بمسألة المساواة بين الجنسين خارج الخريطة!». وقالت إحدى المجلات الإخبارية إنَّ أخلاق ***عُصبة من الأخوة*** لم تتمكن من ضرب جذورها في ثقافة مسلسل ***«الجنس والمدينة»*** المهووسة بالإناث. لقد فقدت الولايات المتحدة فحولتها بالإضافة إلى مناعتها ضد الغزو الأجنبي، أضحت الأمة التي كانت قد واجهت تقليديّاً بعض الصعوبة في التمييز بين الخيال والواقع مشغولة بالخلط بين الاثنين عند كل منعطف.

تقول فالودي إنه بعد هجوم ١١/٩ تعرّضَ المُدافعون عن المساواة بين الجنسين لسخرية قاسية. وبدأ اضطهاد طالبان للمرأة، الذي لفت الكثير من الانتباه بعض الوقت، يتبخر كقضية تستحق الاهتمام عندما بدأت القنابل تنهمر على أفغانستان. في تلك الأثناء، كان يتم الاحتفاء بدونالد رمسفيلد الأحول بوصفه «الفحل»، «جاذب الفتيات»

Tele: @Arab_Books

وأيضاً – كذلك هي أوهام الأيديولوجيا الفاضحة – «أشد الرجال جاذبية». أخيراً خرجت أميركا بفكيها العريضين، وشَعرها القصير وعبثها بالمسدس، التي حُشِرَتْ داخل شكها العُصابي في نفسها بجيشها المؤلف من عاهرين مخصيين، من مخبئها، وهي تضرب على صدرها الجماعي. وبعد الهجوم بوقت قصير، بدأ منحى الموضة عند الرجال يتجه نحو الإعجاب بالقبعة القاسية، والأناقة العسكرية وسترات رجال الإطفاء. ولطالما شعرت الولايات المتحدة الشديدة اليقظة، خلافاً لأوروبا الساخرة دائماً، بنهَم إلى الأبطال، وإذا احتفظتَ بجائزة على شكل نموذج طائرة فذلك يجعل منك بطلاً.

أو إنْ كان هذا صعب التحقيق، هناك دائماً رجال إطفاء نيويورك. والحقيقة الكئيبة حول هجوم ٩/١١، كما تدّعي فالودي، هي أنَّه كان يمكن لطنين ناقوس الموت أنْ يكون أقل هديراً بكثير لو لم يُرسَل رجال الإطفاء إلى مركز التجارة العالمي. لقد مات من رجال الإطفاء ثلاثة أضعاف من ماتوا من موظفي المكاتب في الطوابق جرّاء هجوم الطائرة. ولكنهم أُرسلوا إلى الداخل، وجَعلت استجابةُ وسائل الإعلام منهم جميعاً أبطالاً. وأخذ أحد الصحفيين الأميركيين المعتوهين يهذي قائلاً إنَّ أعضاء هيئة مطافئ نيويورك أصبحوا أبطالاً ممسوسين ببسالة، وإحسان، وقُدسية جديرة بآلهة. والعديد من رجال الإطفاء أنفسهم التمسوا الإذن لهم بالاحتجاج. وأُخفيَتْ حقيقة أنَّهم ماتوا جزئيّاً لأنَّ أجهزة الاتصال تعطّلتْ بصورة لائقة.

وسرعان ما أضحى رجال الإطفاء شخصيات مُثيرة جنسيّاً وبطوليّة أيضاً. وانتشرت موضة اشتهاء رجال الإطفاء جنسيّاً. وصرخَ أحد عناوين الصحف قائلاً: «رجال الإطفاء يُصبحون سلعة رائجة في لعبة المواعدة!». وصبغت النساء أظافر أقدامهن بلون أحمر كلون سيارات الإطفاء. ولم يُنظَر إلى هذا كله كظاهرة غريبة الأطوار وهذيان بقدر

Tele: @Arab_Books

ما اعتُبِرَ ترحيباً بعودة الحالة الجنسية الطبيعية. وتمّ تجاهل المساعدة التي قدّمتها النساء في الطابق السفلي تماماً. وبدل ذلك، سادت خرافة أرامل هجوم ٩/١١ المَرَضيّة، فظهرن كمجموعة من الضحايا الأنيقات مطلوب منهن أنْ يلتزمن بإذعان بسيناريو كَتَبْته لهنّ وسائل الإعلام. واللواتي تمرّدن على صورة ربّة المنزل الأميركية النموذجية التي أُعدّتْ لهن قُمعنَ على الفور. إحدى السيدات اسمها جيسيكا لينتش لم تقبل أنْ تظهر كضحية فعوملت كأنَّ الجنود الأميركيين لم ينقذوها ولم تظهر في أيِّ حدث بطوليّ. وتضافر الإرهاب مع صورة العائلة المثالية: إنَّ الهدف من قتل العراقيين هو حماية أطفالكن. وأعلنت مجلة *تايمز*: «وداعاً للعبة البيسبول، وأهلاً بالأمن»، والمعنى هو أنَّ الهجوم الإرهابي هزّ الأميركيين ومدّهم بإيمان جديد بقيَمهم القديمة. وأينما نظرتَ كنتَ تجد أناساً يتزاحمون عائدين إلى الرحم. واستولتْ رغبة هستيرية بتحقيق الأمن على أمة وعتْ حديثاً أنها قابلة للفناء. والنساء اللائي كنَّ يضعن مستقبلهن المهني فوق الزواج قيل إنهنّ عبّرنَ بمرارة عن ندمهن لهذا الخطأ الفادح الذي ارتكبنه. وعادت من جديد موضة الحياة الزوجية الهانئة. فمَنْ، قبل كل شيء، سيمسك بيدكَ عندما تأتي الضربة التالية؟

بعض ضحايا هجوم ٩/١١ الفعليين، بمن فيهم رجال إطفاء، لم يتكلموا عن قادتهم بلغة متغطرسة، بل عن روابط شكلتها التجارب المشتركة من ضعف، وخوف وهشاشة. وفي تلك الأثناء، كان جواب سادتهم المشوّش هو التفكير في بناء صرح جديد أعلى من البرجين التوأم. والنبأ السيئ كان أنَّ أزمة لحظة الولايات المتحدة المأساوية لم تشكل تحولاً روحيّاً. على العكس، كانت مجرد تجارة، تجارة أكثر فأكثر.

في العموم، دعم ديتشكينز وأمثاله الوضع السياسي الراهن، بدرجات مختلفة من أسلوب **المنُشق** المُصلِح. كان خليقاً به أنْ يستحسن الكلمة الأولى من عنوان هذا الكتاب، ولكن ليس الكلمتين

Tele: @Arab_Books

الأخريين. في الحقيقة، إنَّ حملات ريتشارد دوكينز المتتالية على الدِّين، بما يُشبه الإلحاد الإنجيلي إنْ كان لهذا وجود، تقف على طرف نقيض مع موقفه العام الذي ينتمي إلى نزعة شمال أوكسفورد الهادئة. (ينبغي أنْ أشير إلى أنني أستخدم عبارة «شمال أوكسفورد» بالمعنى الأيديولوجي وليس الجغرافي. وقد يشعر دوكينز بالارتياح حين يدرك أنني لا أعلم حقّاً أين يعيش). إنَّ حملته ضد التطرّف لم يُجارها بصورة مميَّزة أيّ نقد صريح للرأسمالية العالمية، وهو نظام سبّب الكثير من القلق والإحساس بالمهانة اللذين يتغذّى عليهما التطرُّف.

إنَّ دوكينز لا يعجبه ما نطق به سيدنا إبراهيم لأسباب ممتازة؛ لكنه أيضاً وللأسباب نفسها بغضَ أنْ يتخيَّله أحد يضمر اعتراضات أنغلو-سكسونية قوية على لاكان، والوضعيّة situationism، والدعاية السياسية، وتروتسكي، والدادائية، واللاوعي، وجوليا كريستيفا[٢١]، والحركة الجمهورية الأيرلندية، والسماح للأطفال بالركض عُراة في أنحاء الحديقة وبتعاطي المخدرات. إنَّ المرء يعتقد أنَّ هذه الأشياء كلها جديرة بأنْ تكون بغيضة بالنسبة إلى عقلانيته الباردة، الحادة، كالتوالُد العُذري[٢٢]. إنَّ يسوع متطرِّف، بقدر ما ديتشكينز ليس كذلك. ولا يمكن تخيُّل ديتشكينز يصف النظام الرأسمالي بأنه «شيطانيّ بصورة لا لبس فيها»، حسب قول أعظم لاهوتي في القرن العشرين، كارل بارث[٢٣].

٢١- جوليا كريستيفا (ولدت عام ١٩٤١): فيلسوفة، وناقدة أدبية، ومُحللة نفسية، وعالمة اجتماع، ومدافعة عن المساواة بين الجنسين، ومؤخراً روائية فرنسية من أصل بلغاري. تقيم في فرنسا منذ منتصف الستينيات. - المترجم

٢٢- التوالُد العُذريّ: الحمل بدون إخصاب أو تلقيح. - المترجم

٢٣- من كتاب كارل بارث «***Churches Dogmatics***»، المجلد الرابع، الجزء الأول (إدنبرغ: دار ت. أند ت. كلارك، ١٩٦١) صفحة ٥٣١.

Tele: @Arab_Books

باختصار، إنَّ ديتشكينز ليس مجرد عقلانيٍّ ليبراليّ، بل هو نوع قابل للتكيُّف عن طيب خاطر من العقلاني الليبرالي الإنكليزي المنتسب إلى الطبقة الوسطى. ودوكينز بوجه خاص يكتب أحياناً وكأنَّ مقولة: «لا زلتِ عروس الهدوء الطاهرة»[٢٤] طريقة مضحكة جداً لوصف آنية إغريقية. وكراهيته لله لا تمثّل بأيّ حالٍ من الأحوال وجهة نظر عالِم نزيه نظيف مُثيرة للإعجاب من التحامُل. على أية حال لا وجود لمثل هذا النوع من **الحيوانات**. إنه ينتمي إلى سياق ثقافي خاص. والنسخة الدنيوية من الوصايا العشر التي يمدّنا بها في كتاب *«وهم الله»*، وفي أحدها ينصحنا بالاستمتاع بحياتنا الجنسية ما دامت لا تؤذي الآخرين، في مُعظمها تشكيلة من الترهات الليبرالية المُخففة. ويمكن مُقارنتها في هذا المجال بـ «أكرِمْ أباك وأمك» التي يعتبر أحد فقهاء العهد القديم أنها لا تشير إلى الأبوين بل إلى عجائز القبيلة ومَنْ لا فائدة منهم ولم يعُد في استطاعتهم أنْ يعملوا. أو«لا تسرق»، التي تُشير في حُكم أحد المعلّقين ليس إلى الممتلكات الخاصة (لم يكن هناك إلّا القليل منها في ذلك الوقت) بل إلى ممارسة الاختطاف القديمة للشبان من القبائل الأخرى ليستخدموهم كطاقة عاملة. أو«حافظ على قداسة يوم السبت»، التي لا تشير إلى التردُّد على دار العبادة بل إلى الحاجة إلى فترة راحة من عبء العمل. إنه نوع من متطلبات مبكرة لتحقيق الصحة والسعادة. أو«لا تزنِ»، التي تنذرنا بألّا نستغل سحرنا الجنسي لإفساد علاقات أناس آخرين فيما بينهم. ويقول هربرت ماكيب[٢٥] إنَّ الوصايا: «تأمرنا بأنْ نتخلّى عن

٢٤- «لا زلتِ عروس الهدوء الطاهرة»: البيت الأول من قصيدة **«أغنية لآنية إغريقية»** للشاعر الرومانسي الإنكليزي جون كيتس (١٧٩٥ - ١٨٢١). - المترجم

٢٥- هربرت ماكيب (١٩٢٦ - ٢٠٠١): كاهن دومينيكاني، ولاهوتي وفيلسوف أيرلندي مولود في بريطانيا. - المترجم

Tele: @Arab_Books

الآلهة ونعيش حياة قويمة، في علاقتنا بالآخرين وبتحقيق العدالة فيما بيننا»[٢٦].

ومع ذلك، من المناسب تماماً بالنسبة إلى ليبرالي مثل دوكينز ويجعله منسجماً مع نفسه بشكل مُطلَق أنْ يُعارض الليبرالية الجديدة (إنه منتقد شرس لسياسة الولايات المتحدة الحالية الخارجية)، تماماً كما أنه يمكن للمرء أنْ يكون مولعاً بالعهد الجديد ولكن ليس بالفاتيكان. إنَّ دوكينز يؤيد عن حق القيمَ الليبرالية في حين إنه يرفض عدداً كبيراً من جوانب الليبرالية الموجودة فعليّاً. ولا خَطْب في ذلك. إنه ببساطة يعني أنه ليس في موقع يخوله في هذا المجال أنْ يصف الإبريق الديني بأنه أسود. يمكننا أنْ نزعم بكل ثقة أنَّ هيتشكينز لا يتعرَّف إلى حبيبه جيفرسون في غوانتانامو باي، مهما بلغت درجة صداقته مع بعض المهندسين المعماريين في بؤرة الجحيم تلك. كل ما في الأمر أنه لا هو ولا دوكينز يُبديان المقدرة نفسها على النظر إلى جانبي المسألة في وقت واحد (وهو أمر لا يُشبه البتّة كون المرء مُنصفاً معصوماً) عندما يتعلّق الأمر بالدِّين. وهنا تبدأ فجأة العقلانية الليبرالية التي تحرِّض كراهيتهما للدين بالتخلّي عنهما.

واليسار السياسي، أيضاً، ليس بعيداً عن الصرامة الكائنة بين المُثُل العليا النبيلة وتجسّدها البغيض، وهذه حقيقة تُخفِّف من حدّة الاحتجاج على الدِّين. وبالمناسبة، من المُحيِّر أنه بينما يبدو أنَّ اليسار لا يعترض كثيراً على اللاهوت اليهودي (بنجامن، بلوخ، أدورنو، وأشباههم)، أو حتى على، فلنقُل، لاعنف البوذية، فإنه يُبدي كراهيّة للطابع المسيحي للإيمان. لعلّ كراهية الدِّين تبدأ في المنزل.

٢٦- هربرت ماكيب، من كتاب ***«Faith Within Reason»*** (لندن: دار كونتينوم، ٢٠٠٧) صفحة ٤٦.

Tele: @Arab_Books

الماركسية بدأتْ إلى جانب أشياء أخرى كاستجابة إلى حركة مسيحية خانت أُصولها، وانتهى بها الأمر في قِطاع عالمي كامل يؤدي المهمة نفسها. كل ما في الأمر أنَّه من أجل فهم أعمق لأسلوب وسبب حدوث هذا، وكيفية منع تكرار حدوثه، على المرء أنْ يلجأ إلى تيارات معيَّنة أساسية في الماركسية نفسها. إنَّ المذهب الإنساني الليبرالي ببساطة ليس راديكالياً بالقدر الكافي لهذا الغرض. وبطريقة مشابهة، تحدث الخيانات المُثيرة للاشمئزاز لموقف الكنائس المسيحية، كما ألمحنا، في ظل الحكم على الإنجيل نفسه.

على المرء أنْ يُلاحظ أنَّ ما يُعتَبَر وجهة نظر «عصر التنوير» أبعد ما يكون عن الوضوح. لقد كان فرانسيس بيكون متحمساً للسِّحر، وكان ديفيد هيوم شخصية بارزة من عصر التنوير وصاحب عقل عميق الشك، وكان نيوتن بارعاً في الخيمياء، بينما آمن فولتير بالله. ومع ذلك، فإنَّ قصة الاستنارة الليبرالية تحكي عن تحرُّر مُبهج يُشكِّل إرثاً لا يُقدَّر بثمن. وليس هناك مفكر يبزّ كارل ماركس في تشبّثه بهذا الرأي. في الحقيقة، قالت هانا آرندت[٢٧]، التي لم تكن اشتراكيّة بالمعنى الدقيق للكلمة، إنَّ اعتراضها الوحيد على ماركس هو إعجابه بالرأسمالية[٢٨]. (أعتقد أنَّ إحدى إنجازات أوروبا الرأسمالية المبكرة كانت الليبراليّة المُستنيرة). ويجب الدفاع عن قيم عصر التنوير، التي العديد منها يهودي-مسيحي في أصله، في وجه حماقات ما بعد الحداثة المُدَّعية، وحمايتها بكل قوة شرعية إذا لزم الأمر من أولئك الثوريين ذوي المبادئ السامية الذين يسعون إلى نسف أدمغة الأطفال

٢٧- هانا آرندت (١٩٠٦ - ١٩٧٥): مختصة في فلسفة السياسة. أميركية من مواليد ألمانيا. من كتبها «*أصول الدكتاتورية*»، و«*آيخمان في القدس*». - المترجم

٢٨- ملف نهيل، من كتاب «**Hannah Arendt: The Recovery of the Public World**» (نيويورك: دار سينت مارتن، ١٩٧٩) الصفحتان ٣٣٤-٣٥.

Tele: @Arab_Books

الصِّغار باسم الله. إنَّ بعض المنتمين إلى اليسار السياسي عمَدوا، بصورة فاضحة، إلى إخراس كل ما صدر من نقد لأعمالهم الوحشية لهفةً منهم إلى توجيه إصبع الاتّهام إلى حُكامهم، ويجب معاقبتهم على هذا النِّفاق.

إنَّ عصر التنوير تكوَّنَ بعمق من قيم نشأتْ من التراث المسيحي. ولكن كان صحيحاً أيضاً، كما يقول ديتشكينز، اعتبار الدِّين الموجود فعلاً جزءاً من البربرية والاستبداد اللذَين سعى إلى مواجهتهما بجسارة. ومع ذلك، من مفارقة الاختيار، أنه ورث حملته الشجاعة ضد الخرافة جزئيّاً من المسيحية نفسها، برفضها الآلهة والأنبياء الزائفين كلهم، والأصنام، والتعاويذ، وطقوس السِّحر، وقِوى الظلام كلها، باسم لحم الإنسان ودمه. ومن المعروف دون بوح أننا نُدين لعصر التنوير بحرية الفِكر، والمساواة بين الجنسين، والاشتراكية، والنزعة الإنسانية، والعديد من مكتباتنا المدنية، والكثير من إرثنا الجمهوري والديموقراطي.

في الوقت نفسه، إنَّ النزعة الإنسانية الليبرالية المُستنيرة تعمل عمل الأيديولوجيا الشرعية لثقافة رأسمالية أكثر انغماساً في الدم من أية فترة أخرى في تاريخ الإنسانية. وهذا، من ناحية، ما نسي ديتشكينز أنْ يقول بصورة غير مفهومة، إنَّ الماركسية وحدها تحكي كيف أنَّ هاتين القصتين المتناقضتين هما في السرّ واحدة. إنها تُذكرنا بالإنجازات الجبّارة لفرانسيس بيكون، ولكن أيضاً بأنه آمن بالتعذيب. وهي تُصرّ على أنَّ الحداثةَ تعني معاً منع الحمل وهيروشيما، وحركات التحرُّر والحرب البيولوجية. والبعض يعتقدون أنَّ من الغرابة الإشارة إلى أنَّ أوروبا كانت المقرّ التاريخي للحداثة، ناسين أنَّ هذا يعني أيضاً أنها كانت مقرّ مَحرقة اليهود. إنَّ الجواب الراديكالي للسؤال عما إذا كانت الحداثة ظاهرة إيجابيّة أم سلبيّة هو نعم أو لا واضحة. إنَّ أحد أفضل

Tele: @Arab_Books

الأسباب في رأيي لكونها لا تزال ماركسية، بعيداً عن السخط المُرضي الذي تُظهره أحياناً للآخرين، هو أنه ليست هناك أية عقيدة أخرى أعرفها تدَّعي أنَّ عصر التنوير الليبرالي الذي يُناصره ديتشكينز كان في وقت واحد تقدُّماً آسراً في النزعة الإنسانية وكابوساً لا يُطاق – وزيادة على ذلك، إنَّ القصة الثانية التي هي الجانب المقابل للأولى، التاريخان المتصادمان بُنيويّاً يشتركان في الجريمة بدل أنْ تجمعهما علاقة وثيقة.

هكذا يستطيع الماركسيون أنْ يتكلّموا عن الشيء ونقيضه في وقت واحد. وما يقولونه لا يخفِّف من الكآبة الحزينة لأعداء التنوير أولئك (سواء أكانوا من النبلاء أم ينتمون إلى ما بعد الحداثة) الذين، كما يبدو، كان اختراع كل شيء بالنسبة إليهم، من الحاصدات المشتركة ومُخدّرات الأسنان إلى المساواة بين الجنسين والكفاح من أجل التحرر من الاستعمار، خطأً فاضحاً. في الوقت نفسه، ينظر الماركسيون بقسوة إلى تلك الفورة التقدمية، التي يُعتَبَر دوكينز (وهو طفل روحيّ لـ هـ. ج ويلز و س.ب سنو) مثالاً لامعاً لها، ولا زال التاريخ ككل يتبوّؤها، بغضّ النظر عن بعض البقع الغريبة، والعنيدة الباقية من البربرية هنا وهناك. وإذا افترضنا وجود أسطورة تقيّة وخرافة يمكن تصديقها، فهي الإيمان العقلاني–الليبرالي بأننا، ما عدا بعض العثرات القليلة، نمشي قُدُماً نحو عالم أفضل. هذا الإحساس الهشّ بالانتصار هو من بقايا عصرٍ بطوليّ من الليبرالية، عندما كان نجم الطبقات الوسطى صاعداً. واليوم، هو متلازم مع المذاهب الكلبيّة، والشكوكيّة، والعدمية التي انحطّ فيها الكثير من السلالات الشريفة. والراديكاليون هم الذين يعتقدون أنَّ الأمور سيئة إلى أقصى درجة معنا، ولكن يمكن تحسينها كثيراً بشكلٍ مُلائم؛ والمُحافظون يعتقدون أنَّ الأمور سيئة جداً ولكن هذا هو حال الحيوان الإنساني؛ والليبراليون يعتقدون أنَّ هناك قدراً قليلاً من الخير والشر فينا جميعاً.

Tele: @Arab_Books

كما يقول دان هيند[٢٩]، إنَّ التهديد الرئيس للقيَم التنويريّة اليوم لا يأتي من تناسق الأثاث، والشّفاء بالإيمان، ونسبيّة ما بعد الحداثة، أو من التطرُّف الديني[٣٠]. وكالمعتاد، لقد أتى من بعض ثمار التنوير نفسه، الذي طالما كان عدوَّ نفسه. وقد تمَّ اختطاف لغة التنوير باسم الجشع المشترك، والدولة البوليسية، والعِلم الوسطيّ سياسيّاً، والحرب الاقتصادية الدائمة. والنزعة الفردية الاقتصادية للطبقات الوسطى المُستنيرة المُبكّرة فرَّخت الآن وأنتجتْ شركات ضخمة سحقت الحقوق الجماعية والفردية، مُشكِّلةً مصائرنا دون أدنى مُساءلة شعبية. والدولة الليبرالية، التي أُسّست من بين أسباب كثيرة لكي تحمي الحرية الفردية، ازدهرت في عصرنا وتحولتْ إلى دولة إشراف. وسُخِّرَت العقلانية العلمية وحرية الاستعلام لغايات الربح الاقتصادي وأسلحة الحرب. وأحد الأسباب الحيوية لإعلان الولايات المتحدة شنّ حرب بلا حدود على الإرهاب هو حرصها على تدفُّق أرباح لا تتوقف إلى العدد الكبير من شركاتها. لقد انحدرت الثقة المُستنيرة في العقل المُجرّد إلى استئجارٍ للمثقفين والخبراء لنشر الدولة وتوحيد الدعاية السياسية. وبلغتْ حرية التعبير الثقافي ذروتها في البلاغة الأيديولوجية التافهة، والأخبار المُسيَّسة لوسائل الإعلام الشعبية التي تجلب الأرباح.

إنَّ المصلحة الشخصية المُستنيرة والعقلانيّة تجلب معها لاعقلانيّة

٢٩- دان هيند: بريطاني. عمل في النشر منذ عام ١٩٩٨، ومؤخراً أصبح رئيس تحرير دار بودلي هيد للنشر. مقالاته الصحفية تظهر في مجلة لوبستر وفي ملحق تايمز الأدبي. ألّف أول كتاب له بعنوان «***The Threat to Reason***». - المترجم

٣٠- انظر كتاب دان هيند «***The Threat to Reason***» (لندن: دار فرسو، ٢٠٠٧) في مواقع متفرقة منه.

Tele: @Arab_Books

الهدر، والبطالة، والجور الفاضح، ومجال الإعلان المتلاعب، وتراكم رأس المال لذاته، واعتماد أسباب الرزق كلها على التقلُّب العشوائي للسوق. ويجلب معه أيضاً الاستعمار والإمبرياليّة، اللذين لا يتوافقان بأيّ حال من الأحوال مع القيَم المُستنيرة. إنَّ الفردانيّة Individualism السياسية، المتوقّع منها حمايتنا من عجرفة القوة، ينتج عنها ضمور متطرّف في التضامن الاجتماعي. ومشروع السيطرة على الطبيعة المُستنير والحيوي، الذي يُحررنا من أنْ نصبح ضحايا مسحوقين ومكتئبين لبيئتنا، نتج عنه تلوُّث كوكبنا بجرثومة البيع بالجملة. وبادّعائنا أنَّ العالم ملكنا، نجد أنَّ الأمر انتهى بنا إلى امتلاك كتلة ضخمة من المادة الميتة. وبتشديدنا على أرواحنا الحرّة، اختزلنا أجسادنا لتغدو قِطعاً في آليّة ضخمة.

إنَّ مذهب الكونيّة universality، الذي كان يعني في عزّ أيامه أنَّ لكل إنسان، كائناً مَنْ كان، الحقّ في أنْ يُسمَع صوته، يعني للبعض أنَّ العالم الغربي نفسه هو الحامل الوحيد للقيَم الكونيّة. وقد أزاح مفهومُ العولمة الرؤيا الشجاعة للعالميّة internationalism، والعولمة تعني أنه يحقّ لرأس المال أنْ يُمارس سلطته المُطلقة أينما يشاء وعلى مَنْ يشاء. والمُساواة تعني من بين أشياء أخرى وأرقى الفرصةَ المساوية للتفوُّق على الآخرين أو استغلالهم في السوق. والنقد المُنشِّط للأسطورة والخرافة انحدرَ إلى مستوى النزعة العلميّة[٣١] scientism الخالية من الحياة التي تعتبر أنَّ لا شيء لا يمكن معالجته وتحريكه في المُختَبَر يستحق أنْ يؤخذ بعين الجَدّ. والقاعدة الكانطية بوجوب تحلّي المرء بالشجاعة للتفكير من أجل نفسه تضمّنت تجاهلاً مُحتقِراً لمنابع التراث ونظرةً صِبيانيّة إلى السلطة بوصفها قمعيّة بالفِطرة.

٣١- العلميّة: طريق العلماء ومذاهبهم المُميَّزة ؛ المذهب الذي يقول إنَّ الأساليب العلمية يجب أنْ تُطبَّق على فروع المعرفة كافة. - المترجم

Tele: @Arab_Books

هناك معنى آخر، أيضاً، ينتهي الأمر بقيَم التنوير فيه إلى التخاصم مع نفسها. وهو أنَّه لم يكن في الإمكان التمييز بين الدفاع عنها والاستهزاء بها. ولكي يُنقذنا الغرب من شيوعية تُصادر حريتنا، راح يرعى نظامَ حُكم استبداديّاً خسيساً بعد آخر. فلكَي لا يقضي إرهاب إسلاميّ على الحريات المدنية الأميركية، ألقت الولايات المتحدة الأميركية بثقلها كله دعماً لسحق مثل تلك الحريات في المملكة العربية السعودية، وأوزبكستان، وباكستان، وفي سلسلة من أنظمة الحكم البغيضة الأخرى. ويبدو أنَّ لديها أيضاً نيّة بطرد تلك الحريات من أرضها هي. إنَّ أضمن طريقة لحماية الحرية في هذا العالم الأورويليّ[٣٢] على هذا الأساس هي تدريب فرق الموت وتسليح الأنظمة الديكتاتورية. إنَّ لدى الولايات المتحدة على المدى الطويل سياسة لدعم الأنظمة الملكية ذات الأساس الديني باسم الحياة، والحرية، والسعي إلى تحقيق السعادة. إنَّ قوى اليمين المسيحي، بعيداً عن كونها تشكل مُستنقعاً صغيراً من اللاعقلانيّة تنتظرها لحظةٌ سيعمل عندها تقدُّم العقل الحتمي إلى محوها، أضحت تتكامل مع أعمال النظام السياسي الأميركي، في تحالفٍ حقير مع الوعّاظ، وجماعات الضغط السياسي، ورجال الأعمال، وأصحاب محطات التلفزيون الإنجيلية، وسماسرة السلطة في واشنطن، وسياسيي الجناح اليميني.

لا شيء من هذا كله يوحي بأنَّ عصر التنوير أنهى عمله. الأمر أبعد ما يكون عن هذا. إنَّ قِيَمه لا زالت حيّة تُرزق، على الرغم مما في

٣٢- نسبة إلى الكاتب البريطاني جورج أورويل (١٩٠٣ - ١٩٥٠)، صاحب الرواية الشهيرة «١٩٨٤» والتي يُصور فيها بتشاؤم وسوداوية غير مسبوقَين عالماً يتحكّم به الدكتاتوريون بنظامٍ أساسه قمع كل ما هو إنساني في الإنسان وتحويله إلى آلة بلا حس، وذلك بالقتل والتنكيل. وأصبح اسم أورويل يقترن بالتشاؤم والسوداوية. - المترجم

Tele: @Arab_Books

استطاعة بعض أنصاره المُفترضين أنْ يفعلوا. حرية التعبير والبحث، التعاطُف الإنساني، النزعة العالمية، المساواة في الوجود، الحكومة المفتوحة، الكفاح ضد أشكال النزعة الاستبدادية الظلاميّة، ونهم للتحرُّر السياسي: هذه القيَم لم تُزل عن وجه الأرض، على الرغم من غالبية الجهود الضخمة التي بذلها النظام الرأسمالي-الليبرالي الذي يعيش رسميّاً على مثل تلك القيم. وكون النظام حافظ على الكثير من هذه الأشياء النفيسة، المُهلهلة لكنها لا زالت سليمة، هو شهادة على دهائه وارتياحه. وكونه صانها من التعرُّض لسلسلة شرسة من الضربات الخارجية، بدْءاً بالفاشية وانتهاءً بالإرهاب، يُحسب أيضاً لصالحه. إنَّ العدو الذي في الداخل أثبتَ أنه هو المشكلة. إنَّ الثقافات الرأسمالية-الليبرالية تُسبِّب أمراضاً تقضي على قيمها الخاصة.

إنَّ هذا التناقُض الحيويّ لا يمكن الإحاطة به ما دامت اللاعقلانيّة دائماً تبدو صورة عن الآخر. وتقسيم العالم بين معقول وغير معقول، الذي يتزامن في أيامنا هذه بصورة مناسبة مع محور الغرب والشرق، يتغاضى عن حقيقة أنَّ الرأسماليّة تلد اللاعقلانيّة بصورة متوقّعة كما يتَّضح أنَّ المخلوقات الفضائيّة غريبةَ ولكن يمكن أنْ نميِّز بسهولة أنها نُسخ منّا. وليس بسيطاً، كما يبدو أنَّ ديتشكينز يتخيَّل بصورة مُعزّية، القول إنه لا زالت هناك جيوبٌ من الظلاميّة داخل عالم مُستنير. إنَّ الظلاميّة أعمق من ذلك. وعند الاختيار بين الغرب والشرق يُفضّل المرء أحياناً أنْ يدعم ثلّة حقيرة معيَّنة من المتعصّبين القتلة. وقد يعتقد المرء أنَّ هذه قد تكون هي الفرصة لممارسة إذلالٍ ونقدٍ ذاتي ليسا بالضبط من مميزات كتابة ديتشكينز.

إنَّ ديتشكينز الذي يميل إلى حزب الأحرار ينسب الدِّين إلى مرحلة الطفولة المبكّرة من الإنسانيّة، مرحلة استمرتْ أطول بصورة كارثيّة مما كان مرغوباً فيها. وهيتشنز يُحيلُ الإيمان الديني، بتعالٍ مُهذَّب،

Tele: @Arab_Books

إلى ما يُسميه «قبل التاريخ» أو«طفولة نوعنا» (صفحة ٦٤)، ككبح لِما يمكن للمرء أنْ يرى أنه خلافَ ذلك تقدُّمٌ محتوم. الخطير هنا هو صورة العالم المُختزَلة بشكل مُذهل، ويدل على بلاهة صاعقة، أشبه برسم بدائي لطفل. هناك شيء يُكافح ليتقدَّم، وشيء يعمد إلى إعاقته؛ وبينما الأول جيد بجلاء، فإنَّ الثاني بغيض بلا تحفُّظ. والمهم هو التخلص مما تبقّى من الخرافة والقفز بشجاعة إلى الأمام نحو عقلانيّة فيكتوريّة راقية. وهيتشنز، الذي تبرز ثقافته الخاصة المُكلفة عبر استخدامه المتكبِّر لكلمة «زرائب»، وعبر وصفه المُدمِّر لمؤلّفي الكتاب المقدّس بأنهم «ثديّات إنسانية فظّة وغير مُثقّفة» (صفحة ١٠٢)، يتكلَّم بتعالٍ متغطرِس عن الماضي وأيضاً عن الشرق. وتفوّقه الثقافي يمتد في جذوره إلى ديموقريطس[٣٣] وأيضاً جزئيّاً إلى الإسلام.

يعتبر هيتشنز، بسُخرية عالمية عَرَضيّة، أنَّ ذرّية العصور القديمة «ضيّقة الأفق». ويقول بروح فيورباخ، وأوغست كونت، وهربرت سبنسر التقدّمية، إنَّ الدِّين ينبع من «الطفولة الخائفة والصارخة لنوعنا»، وهي فترة «لا أحد (خلالها)[٣٤]... كانت لديه أدنى فكرة عما يجري» (صفحة ٦٤). إنَّ المرء ليعتقد بثقة أنه لا يُضيف أسخيلوس[٣٥] إلى هذا الرفض المتكبِّر عن عمد. وفي معرض حديث القديس بولس عن التحوُّل الثوريّ من نظام حكم القانون (الصبياني) إلى نظام الرحمة (الراشد)، يعتبر الإيمان بالمسيح تخلياً ناضجاً عن الأصنام

٣٣- ديموقريطس (٤٦٠؟ - ٣٧٠؟ ق.ب): فيلسوف يوناني. طوّر نظرية المادة الذريّة لأستاذه ليوسيبوس. - المترجم

٣٤- من وضع المترجم للتوضيح.

٣٥- أسخيلوس (٥٢٥؟- ٤٥٦؟ ق.م): كاتب مسرحي يوناني. يُعتَبَر أبا التراجيديا اليونانية. لم يتبقَّ من أعماله إلا سبع مسرحيات. بينها «**سبعة ضد طيبة**» و«**الفرس**» و«**بروميثيوس مُقيَّداً**» و ثلاثيّة «**أوريستا**». - المترجم

Tele: @Arab_Books

والخرافات الصبيانية. وكان يمكن أنْ يكون لبولس عقل طفل وليد يحبو، في تقدير هيتشنز. لكنَّ المدهش أنَّ أعماله الأدبية لا تكشف عن أيّ شيء من هذا.

في دراسته الرزينة «*عصر دنيوي*»، يُفنّد تشارلز تيلر بشكل باتّ الأسطورة الشهيرة، العجائبية في خطّها الدالّ على بساطة العقل، القائلة إنه في سياق الشؤون الإنسانيّة أُطلقَت النظرة الدينية للعالم بفعل التراكم الثابت للدليل العلمي. في هذا اللاهوت السطحيّ والجاهز، حلّ عصر العلم بانتصار محل عصر الإيمان. إنها واحدة من عدد غفير من أساطير أو خرافات التنوير. ففي المقام الأول، كما يُشير تيلر، لم يُنظَر إلى علم القرن السابع عشر الجديد الميكانيكي في العموم على أنه يُشكل تهديداً لله. في الأزمان المبكّرة، كان العلماء في الغالب مُدافعين عن الأرثوذكسية الدينية. وكان مذهب الرُّبوية[٣٦] أحد الاستراتيجيات للسماح للعلم والدِّين بالتعايُش. إنَّ الإيمان والتنوير لم يكونا أبداً ببساطة متناقضَين. وفي القرن التاسع عشر، كان أحد أشد فروع الإيمان الديني بشاعة، المسيحية الإنجيليّة، الأكثر رواجاً للسعي لتحرير العبيد.

لم يكن هناك حينئذ درب مَلَكيّ يصل بين العلوم الطبيعية والإلحاد. ولم يكن بروز الاهتمام بالطبيعة يمثّل خطوة خارج وجهة النظر الدينية، بل تشويه لها. يقول تيلر: «إنَّ المواجهة الصّرف بين «الدِّين» و«العلم» وهمٌ، أو، بالأحرى، تركيبة أيديولوجية»[٣٧]. إنَّ الصورة التي يرسمها العلم الحديث للواقع هي بحقّ في العموم أدقّ بكثير من تلك

٣٦- الرُّبوية: مذهب فكري يدعو إلى الإيمان بدين طبيعي مبني على العقل لا على الوحي: الإيمان بالله من دون الاعتقاد بديانات مُنزَّلة. - المترجم

٣٧- تشارلز تيلر، من كتاب «*A Secular Age*» (كمبريدج، ماساتشوستس: دار بلكناب بريس أوف هارفرد يونيفرسيتي بريس) صفحة ٣٣٢.

Tele: @Arab_Books

التي ترسمها الأسطورة ما قبل الحديثة، حتى وإنْ بدا أنَّ عدداً كبيراً من الفرضيات العلمية التي كانت ذات يوم مُثمرة قد دُفنَت بصورة سيئة. ولكن كما بيَّنَ كلود ليفي-شتراوس في كتاب «*العقل الهمجي*»، هناك عنصر من التنوير في الأسطورة، تماماً كما أنَّ هناك جرعةً من الأسطورة في العلم. هناك منطق يُجرِّد العِلم بموجبه العالمَ من هالة السِّحر فقط لكي يُكيِّفه مع نفسه.

إنَّ ما حدث ليس أنَّ العلم فضَحَ بالتدريج مُغالطات الأسطورة والدِّين. إنَّ هذا الاعتقاد على أية حال يعني أنْ نكتب التاريخ حصراً على مستوى الأفكار. ويعني أيضاً أنْ ننسب إلى الدِّين من التأثير أكثر مما اكتسبه في العزلة، وهذا أحد الجوانب التي يشترك فيها ديتشكينز مع الإسلام الراديكالي. إنَّ ما حدث، كما يقول تيلر، كان تحولاً سريعاً في كامل «التخيُّل الاجتماعي» للحقبة الحديثة المُبكرة، التي تتضمن تغيّرات في مفاهيم الزمن، والمكان، والسلطة العليا، والذات، والمجتمع، والجسد، والانضباط، وما شابهها، وشكّلَت العقلانية العلمية ببساطة أحد عناصرها. وهذا لا يعني أنَّ الأسطورة أفسحت الطريق للحقيقة الواقعة، بل إنَّ وجهة نظر أخلاقية استسلمت لأخرى. لقد مثّلت العقلانيّة العلمية شكلاً جديداً من فهم الذات الإنساني، لا يُعتَبَر ببساطة إنكاراً لما حدث سابقاً. لقد دعمها إطارها الأنطولوجي والرمزي، وليس فقط الرفض العنيد لمثل هذه الأشياء. وهذا لا يعني كأنّ عقلانيّة كونيّة، أبدية، استطاعتْ أخيراً، بعد أن استنزفت وقتها بصبر على امتداد قرون من الظلام، أنْ تشق طريقها بصعوبة لتخرج من تحت ركام تافه من السذاجة الدينية.

إنَّ ارتقاء العقلانيّة العلميّة، الحديثة، يُمثِّلُ مكسباً لا يُقدَّر بثمن. لعلّ أولئك الممثلين لما بعد الحداثة الذين يرمون ظلّاً من الشك على قيمة العلم لن يتوقعوا أنْ تُجرى لهم عملية جراحيّة عندما تكف قلوبهم

Tele: @Arab_Books

عن الوجيب، أو يقوموا بأيّ عمل مراوغ كركوب طائرة. ولكن من طبيعة تحامُل ديتشكينز أنه أيضاً لا يُسجّل الخسائر المُتضمَّنة في العقلانية العلمية كما نعرفها، في تقليص الواقع إلى مواجهة مباشرة بين ذات بلا جسد ومادة جامدة. وإذا كان ما نُخاطر بتسميته علم ما بعد الحداثة يتحدّى هذه الثُنائيّة الديكارتيّة، فإنه يفعل ذلك بطُرُق تعود بنا إلى ما قبل الحداثة. توما الأكويني، مثلاً، لا يرى اللقاء بين الموضوع والمادة كمواجهة بل كتعاون، يُساهم فيه العقل بنشاط في نسج الواقع ويدفعهما مع قِواه الخاصة، بإخراج الوضوح المتأصِّل للمواد إلى النور، نحو إدراك الذات المُثمر[٣٨]. إنَّ العالَمَ يُصبح بصورة ما حقيقيّاً أكثر في كونه يُصبح مفهوماً، في حين إنَّ العقل يعود إلى ذاته في أثناء فعله ذلك. وخلافاً للمذهب المثالي الذاتي كله، فإنَّ التشديد في هذه العلاقة التبادلية يكمن بالنسبة إلى الأكويني على جانب المادة، كما يعتقد ثيودور أدورنو[٣٩]. وما كان يمكن أنْ يتعامل مع التصور الحديث أو ما بعد الحديث لذاتٍ إنسانية تُبرِز معانيها العشوائية أمام عالمٍ لا معنى له جوهريّاً.

مهما كان اعتقاد المرء في المذهب الديكارتي، إلّا أنه على الأقلّ يُخفِّف من العجرفة الإنسانية. إنَّ العالم بالنسبة إلى الأكويني ليس ملكنا، نُشكّله ونتلاعب به على هوانا، بل هِبة تجسّد الآخريّة otherness العصيّة على المعرفة، هِبة يجب احترام كتلتها المادية

٣٨- انظر كتاب جون ميلبانك وكاثرين بيكستوك ***«Truth in Acquinas»*** (لندن: دار رونليدج، ٢٠٠١)، وكتاب فرغوس كر ***«After Acquinas»*** (أوكسفورد: دار بلاكويل، ٢٠٠٢)

٣٩- ثيودور فيزنغروند أدورنو (١٩٠٣ - ١٩٦٩): فيلسوف، ولاهوتي وناقد موسيقي ألماني. من مؤلفاته «**فلسفة الموسيقى الجديدة**»، و«**الديالكتيك السلبي**». - المترجم

Tele: @Arab_Books

واستقلالها. إنَّ هذا الاحترام هو، على الأقلّ، إحدى السّمات التي يشترك فيها فقهاء اللاهوت مع العلماء. وعندما يتعلّق الأمرَ بالمعرفة، لا صلة للأكويني بالـ «الصور التمثيلية» أو«الصور العقلية» أو«بيانات الإدراك» الديكارتية أو التجريبية: حين نرى فيلاً فإننا نرى فيلاً، وليس صورة عقلية خاصة أو بقعة رمادية غير مُنتَظَمة على بؤبؤ عيننا. في عمليّة المعرفة، يكون الذات والموضوع واحداً. وعليه ليس هناك منفَذ يمكن للشك أنْ يتسرّب منه. وكما قال هايديغر عن مثل ذلك الشك، إنَّ الفاضح ليس إمكانية ألّا يوجد أيّ شيء هناك، بل هو الانغماس الجادّ في هذا الوهم قبل أيِّ شيء. ولأنَّ الأكويني، مثل هايديغر الذي أساء فهمه بصورة مؤلمة، يرى الذات ماديّة – كعملية ارتباط نشط مع العالم، بدل أنْ تكون نافذة منفصلة للتأمّل فيه – فليس هناك مجال لشكوكيّة ما بعد الحداثة. إنَّ المعرفة هي ببساطة لحظة أو جانب من تواطئنا جسديّاً في الواقع، لحظة تسرقها الحداثة بشكل زائف وتحفظها.

يقول الأكويني في ***«Contra Gentiles»***: إنَّ العمل هو الكمال المُطلَق لكل شيء. والوجود بالنسبة إلى الأكويني هو فعل وليس كينونة. حتى الله بالنسبة إليه هو صيغة فعل وليس اسماً. الجسد نفسه يفكك ثُنائيّة الذات والموضوع. المهم هو كيف، بوصفي عاملاً مُشاركاً في العالم، أجد نفسي دائماً وسط ذلك، وليس التحديق بتجرُّد إليه من خلال قوسي محجري عينيّ. ولا شك في أنَّ الأكويني كان سيشارك فيتغنشتاين في ذهوله أمام العبارة المبتذلة: «العالم الخارجي». ما معنى أنَّ شجرة السيتيسوس تقع «خارجي»، وليس إلى جانبي؟ إذا رأيتها على أنها «في الخارج»، فإنَّ ذاتي الحقيقية يجب أنْ تكون قابعة بصورة ما داخل جسدي، كرجل يُشغّل رافعة. فمَنْ يُشغّله هو؟

بالنسبة إلى الأكويني، كما بالنسبة إلى هايديغر وفيتغنشتاين، إنَّ

Tele: @Arab_Books

خبرتنا في العالم هو عملية انهماكنا الجسدي فيه. وإذا كانت تلك الخبرة تأخذ شكلاً متنقّلاً وليس حدسيّاً، فذلك لأنَّ طبيعتنا المادية تمنعنا من الوجود دون وسيط. إنَّ اللوغوسنتريزم[٤٠] Logocentrism مُخصَّص للملائكة. صحيح أنَّ في استطاعة الأكويني أنْ يتجنّب الشكوكيّة بالتضرُّع إلى العليّ القدير، الذي هو أساس الوجود والمعرفة وبالتالي ضمانة توافقهما المتناغم. والحق، إنَّ هذا التناغُم الراسخ مُسبقاً هو أيضاً بالنسبة إلى الأكويني فرصة لعلم الجمال. ويمكن أنْ يكون الشّعار غير المُعلَن هو «لا نظرية معرفة بلا لاهوت». ومهما كان الأساس اللاهوتي لنظرية المعرفة هذه، أو طرافة افتراض أنَّ صباغ الشّعر يُصبح صباغ شعر كلما عرفته أكثر، فإنها نظرية أغنى، وعمليّة أكثر، ومُعاصِرة، وفي العموم أكثر جاذبية من النمط العقلاني القديم الطراز الذي يبدو أنَّ ديتشكيز يقبله بداهة. إنه حتماً أقرب إلى كارل ماركس منه إلى جون لوك.

إنَّ التغيُّر الراديكالي في المُتخيَّل الاجتماعي الذي يُسجّله تشارلز تيلر، يعكس، كأمثاله من حالات التحوُّل، تغيُّراً أعمق في الممارسة الاجتماعية. لم يكن مجرّد مسألة إبهام دينيّ يتلاشى أمام نور العقل الصافي، بل كان أيضاً مسألة مفاهيم مختلفة للعقلانيّة. إنَّ العقل بالنسبة إلى أوغسطين، وأنسيلم والأكويني، لا ينفصل عن بعض الالتزامات الأخلاقية، والأونطولوجية، والميتافيزيقية وحتى الجماليّة التي تسقط ببساطة من صورة العالم الحديث. وهو أيضاً لا ينفصم عن إرث معيَّن من الـ ***sapientia*** أو الحكمة. يتبع ذلك أنه إذا طُرِحَ السؤال: «هل الإيمان بالله أمرٌ عقلانيّ؟» من زاوية تصوُّر عقليّ (إجرائيّ، أو تفاؤليّ،

---

٤٠ – اللوغوسنتريزم: عبارة صاغها الفيلسوف الألماني لودفيغ كلاغز. وهي تشير إلى تراث العلم والفلسفة «الغربيين» الذي يركّز على الكلمة أو فعل الكلام في معرفة العالم. – المترجم

Tele: @Arab_Books

أو إثباتيّ) مختلف، سؤال مهما كان في الإمكان التحقُّق منه تجريبيّاً أو الاستدلال عليه عقليّاً، فمن المتوقع أنْ يُجيب عن نفسه بنفسه[٤١]. والمرء ليس في حاجة إلى أنْ يستسلم إلى مشهد العالم بوصفه حشداً من العقلانيات غير المتكافئة لا يمكن تمييزها بحيث إنَّ معايير ما يُعتَبَر صحيحاً أو راسخاً في مجال، فلنقُل، علم الإنسان ليست هي نفسها معايير تاريخ الفن. ينبغي ألّا نفترض أننا نعلم بالضبط علامَ يتوقف العِلم، ومن ثم نرى إنْ كنا نستطيع أنْ نطبّق أساليب أخرى من الكلام (التحليل النفسي، على سبيل المثال) على هذا النموذج. ماذا لو أنَّ نقطة التحليل النفسي في هذا المجال حوّلت النموذج نفسه؟ قد تمر فكرة يورغن هابرماس[٤٢] عن العقلانية الصريحة كصيغة مقبولة للعقل في القارة الأوروبية، ولكن نُظِرَ إلى أوراق اعتمادها بمزيد من الريبة في الفلسفة الأنغلو-سكسونية.

إنَّ العِلم والعقلانيّة (وإنْ كان تيلر لا يعبِّر عن ذلك بهذه الطريقة) ألعاب لُغَوية مرتبطة بما نفعل؛ وحدوث تحول في ألعاب لغتنا يعكس في العموم اضطراباً في أشكال الحياة الماديّة. ويصرّ تيلر على قول إنَّ التغييرات الراديكالية في الصور التمثيلية لا يكون لها معنى إلّا وهي أمام مثل هذه الخلفيّة الثقافية. لقد تورّطنا الآن في عالم من الممارسات الاجتماعية لم يعُد للسموّ فيه أيُّ معنى. لعلّ هذا يُشبه ما جال في فكر كارل ماركس عندما سأل كيف يمكن إنتاج شِعرٍ ملحميّ في عصر الطاقة البخارية. في مثل تلك الحالات، لا يعود

٤١- هذه النقطة ذكرها جون إ. سميق، في مقالة «Faith, Belief and the Problem of Rationality»، في كتاب ***Rationality and Religious Belief***»، تحرير C.F Delaney (نوتردام، Ind.: دار نوتردام بريس، ١٩٧٩).

٤٢- يورغن هابرماس (ولد عام ١٩٢٩): مُنظِّر اجتماعي ألماني. من أبرز أعماله ***«النظرية والممارسة»*** و***«المعرفة والمصالح الإنسانية»***. - المترجم

Tele: @Arab_Books

في الإمكان طرح أسئلة عميقة معيَّنة، في حين سرعان ما تبرز أسئلة جديدة مزلزلة.

لقد برزت صورة جديدة، مهيبة للإنسان، حرّاً، مُسيطراً، أشبه بالوسيط، مُستقلاً، منيعاً، مهيباً، مسؤولاً، رابط الجأش، مفكّراً، هادئاً وغير مُرتبط بأحد. هذه الصورة المتفاوتة أخلاقيّاً، والدقيقة تاريخيّاً التي يحتفي بها ديتشكينز كالعقل نفسه. بالنسبة إليه، هي تمثّل الإنسان وهو يتقدَّم في السن. إنه لا يرى أنَّ هذا النضج، المُعبَّر عنه بصورة رائعة في ليبراليّة إيمانويل كانط، لا ينفصم عن قلق طفولي معيَّن. إنَّ القوة، والهيمنة والاستقلال فضائل مُثيرة للإعجاب، لكنها أيضاً محاولات للسيطرة على عالم أصبح الآن يبدو كمخلوق فضائيّ مُهدِّد. إنَّ السيادة تبرهن على أنها لاَّ تنفصل عن العزلة. وإنسان التنوير، وهو في ذروة اطمئنانه، يجد نفسه وحيداً بصورة مُخيفة في الكون، لا شيء يُصادق عليه غير نفسه. وعليه فإنّ سلطانه ينطلق مع إحساس مُقزز بالعشوائية والمُصادفة، سوف يزداد حدَّة مع تكشُّف العصر الحديث. ما معنى أنْ ننتزع من العالم بيد القِيَمَ التي كانت اليد الأخرى قد وضعتها توّاً؟ ما معنى إنشاء موضوع إنساني أساسه نفسه هو؟

لكنَّ السموّ ببساطة لم يرحل. وهذا بالضبط، من ناحية، ما يشتكي منه ديتشكينز؛ لكنَّ المسألة أشد تعقيداً من ذلك. فكلما كانت استجابة الدِّين أقلّ للرغبة الإنسانية في عالم يتجاوز العلم، والرفاهية المادية، والسياسة الديموقراطية، والنفعيّة الاقتصادية، سعى الأدب أكثر، والفنون، والثقافة، والإنسانيات، والتحليل النفسي، وأيضاً (وهو المرشَّح الأحدث)، علم البيئة بقوة للإقامة في تلك البقعة الخالية. إذا كانت الفنون قد أضحت ذات أهمية استثنائية في حقبة حديثة تُعتَبَر فيها، عمليّاً، مجرد نوع آخر من الرفاهية، فذلك لأنها تزوّد بنوع بديل من السموّ في عالمٍ نُفيَتْ منه القيم الروحيّة إلى حدٍّ بعيد.

Tele: @Arab_Books

أتصوّر أنَّ هذا أحد الأسباب التي جعلتْ من كريستوفر هيتشينز ليس فقط مُلحداً متحمساً بل بروفسوراً في الأدب في جامعة أميركية. يمثل الأدب، بالنسبة إليه وإلى بعض أصدقائه، أحد آخر ملاجئ الروح الإنسانية في عالم شرير. إنه اسم يصِفُ كيف أنَّ حتى أشدّ العقلانيين ورعاً لا يعيش بالعقل وحده، بل بإيمانٍ باقٍ بإبداع معيَّن لا يُسبَر غوره. أنا نفسي درَّستُ الأدب على مدى خمسةٍ وأربعين عاماً، وأراهن على أني أحببت المادة بقدر حب هيتشكينز الحميم لها. وأُشير ببساطة إلى أننا إذا اعتمدنا على الأدب لكي يسمو بنا، فمن المؤكَّد أننا سنقع في مشكلة عويصة. والسبب ليس بالضرورة لأننا يجب أنْ نعتمد بدل ذلك على الدِّين، بل لأنه، بدءاً بماثيو أرنولد و ف.ر ليفيز إلى إ.أ ريتشاردز، والنقد الجديد، ونورثروب فراي وجورج ستاينر، انتهى الأمر بحملةِ تحويلِ الأدب إلى دينٍ كاذب إلى تسبّب ضرر جسيم له. إنَّ الأدب في وقتٍ واحد أكثر وأقلّ أهمية من ذلك.

يكتب تشارلز تيلر قائلاً إنَّ المُميَّز في العصر الحديث، بالمقارنة مع عصر ما قبل الحديث المتطابق[٤٣] مؤقتاً، هو ظهور «سرد واحد للإدراك الذاتي الإنساني، المعروف بأنه قصة التقدُّم، أو العقل والحرية، أو الحضارة أو الكياسة أو حقوق الإنسان» (صفحة ٧١٦). ولا يحتاج المرء إلى أنْ يُضيف أنَّ تيلر لا يُعارض تلك المُثُل العليا، ما دامت مُرتَّبة بشكلٍ مناسب. كل شخص يُناصر التقدُّم، والعقل، والحرية، والكياسة، تماماً كما يُبدي كل شخص إعجابه بنلسون مانديلا. إنه مجرد تقدُّم، وعقل، وحرية، وكياسة لم يعُد كثيرون يُريدونها في هذه الأيام. إنَّ كلمة «تقدُّم» بحد ذاتها أصبحت الآن مُلوّثة كثيراً لاهوتيّاً بحيث تُصبح في بعض السياقات تقريباً غير قابلة للاستعمال؛ ورجال

٤٣ – المتطابق، أي المؤلَّف من طبقات. – المترجم

Tele: @Arab_Books

أمثال ديتشكينز، مع تأكيدهم الأنيق على أنَّ التنوير سوف يتقدَّم بقوة ومرح بطاقته الخاصة لولا بقايا صِفات رجعية، هم الذين ساعدوا على خذله بلهجة بلاغتهم المنتصرة ببلاهة. إنَّ فكرة التقدُّم تحتاج أيضاً إلى مَنْ يُنقذها من رضا ديتشكينز الذاتي ومن شكوكيّة ما بعد الحداثيين الرائجة. هناك حقّاً تقدُّم – ما دمنا نضع في أذهاننا أنَّ الحضارة التي تُبديها تميل أيضاً إلى تدمير الكوكب، وذبح الأبرياء، وتصنيع الجور الإنساني بتسارُع لا يمكن تصوّره.

الغريب هو أنَّ هذا يبدو أنه فشل في لفت انتباه ديتشكينز. صحيح أنَّ هيتشنز يُنكر أنَّ الحضارة الإنسانية ستتطوّر «بخط مستقيم»، لولا أنَّ ما قبل تاريخنا الساذج يمنعنا من تحقيق ذلك. وهو يكتب بنثرٍ صافٍ على النمط المُنمَّق التجاري: «علينا أولاً أنْ نسمو بما قبلَ تاريخنا ونهرب من الأيدي الخشنة التي تمتد لتُعيدنا إلى القبور ومذابح الكنائس العفنة وملذات القبول والرفض المُذنبة» (صفحة ٢٨٣). قد يعتبر البعض تلك الأشياء المرعبة أخفّ وطأة قليلاً من العنف العسكري الذي يبدو أنَّه يجد هوى عند هيتشنز. وبدل أنْ نُجرّ إلى مذابح الكنائس العفنة، يجب ربما أنْ نُجر إلى الأمام نحو حرب بيولوجية وكارثة بيئيّة. ويُطمئننا هيتشنز بأننا حالما ننفض عنا سذاجتنا نستطيع «أنْ نتطلّع بوعي إلى الأمام نحو المزيد من تطوير عقولنا البائسة، وتحقيق خطوات متقدمة مذهلة في الطب وفي إطالة الحياة» (صفحة ٩٤). ما دمنا لا نلغي أنفسنا في أثناء ذلك، طبعاً. ولدى دوكينز رؤية عن التقدُّم لا تقلّ غطرسة. والحقّ، على الرغم من حداثته الخجول اتَّضح أنه أشبه بهيجليّ عتيق الطراز، يؤمن بـ ***Zeitgeist*** (روح عصر) (كلمة من انتقائه) ينطوي على تطوُّر أخلاقي مُطّرد، مع فترات فقط من «نقيض ذلك». ويقول مُغرّداً على طريقة مُعلِّق رياضي تلفزيوني

Tele: @Arab_Books

متحمِّس: «إنَّ الموجة كلها تتقدَّم باطّراد»[٤٤]. ويُضيف، إنَّ معظم الناس في القرن الحادي والعشرين، الذين ينزّون بالرضا الأخلاقيّ في كل كلمة، «متقدّمون أشواطاً عن نظرائهم في العصور الوسطى، أو في زمن سيدنا إبراهيم، أو حتى مؤخراً في حقبة العشرينيات» (صفحة ٢٧١). على ضوء هذه القراءة للتاريخ، سوف يبدو دوكينز نفسه بعد قرن أو نحوه من الآن كأنه من ساكني الكهوف.

صحيح أننا أصبحنا من نواح معيَّنة أكثر حساسية تجاه مَصَاب الآخرين، وإنسانيّة خجول وأصبح من المُرجَّح كثيراً أنْ يشعروا بمزيد من المسؤولية تجاه الغرباء. هذه الخطوات المتقدمة سوف تُكافأ بسخاء. ولكن من قبيل التحامُل الفادح أنْ نُصنّفهم دون أنْ نتوقف عند الهولوكوست والحربين العالميتين. في الواقع إنَّ دوكينز يذكر الحرب العالمية الثانية، ولكنْ فقط لكي يُشير إلى أنَّ نسبة الضحايا أعلى من تلك التي نجمت عن الغزو الأميركي للعراق – وهذه هدية أخرى مُبهرة في طريق ارتقائنا الحثيث نحو القداسة. وهو أيضاً يُلمِّح إلى هتلر – وهذه «نقطة عكسية» بصورة حادة، كما يعترف – لكنه يذكُر أنَّ جرائمه ما كان يمكن أنْ تُعتَبَر بشعة جداً في عصر الإمبراطور كاليغولا أو جنكيز خان.

إذن هتلر أيضاً هو أحد أعراض التقدُّم الأخلاقي. حتى غوبلز[٤٥] كان يمكن أنْ يجد من الصعب أنْ يتقبَّل هذا الكلام. الفوهرر أيضاً وُلِدَ ونشأ كاثوليكيّاً، كما يُسرِع دوكينز إلى الإشارة، وهذه حقيقة تسمح له أنْ يبرهن على أنَّ هذه الإبادة الجماعية على الأقلّ لم تكن

٤٤– من كتاب ريتشارد دوكينز ***«The God Delusion»*** (بوسطن: دار هيوتن ميفلن، ٢٠٠٨) صفحة ٢٧١.

٤٥– بول جوزيف غوبلز (١٨٩٧ – ١٩٤٥): سياسي ألماني نازي، وزير دعاية هتلر السياسية. – المترجم

Tele: @Arab_Books

من عمل زميل مُلحِد. ولا أحد يعلم إنْ كان هتلر قد نذر نفسه لتلاوة الصلوات وللحبل بلا دنس. من هذه الناحية، يبدو أنَّ هيتشنز يعتقد أنَّ أشكال الفكر الشموليّ دينيّة؛ وعلى الرغم من أنه يشنّ هجوماً عنيفاً على تواطؤ الكنيسة الكاثوليكية المُقزز للنفس مع الفاشيّة، إلّا أنه أيضاً يُحاول بمكرٍ صريح أنْ يُشتت الانتباه عن حقيقة أنَّ النازيّة والستالينيّة لعلّهما نظاماً حكم مدنيان وذلك بتوجيه نيرانه على دعم الكنيسة لهما.

ويُسلِّم دوكينز برحابة صدر بأنه صحيح أنَّ هتلر ذبح من الناس أكثر مما فعل جنكيزخان ؛ ولكن – هكذا يُعلِّق كأنما بتبرير جزئيّ – تقنيّة القرن العشرين كانت رهن إشارته. وفيما عدا ذلك، نحن مدعوون إلى اعتقاد أنَّ القرن العشرين، أكثر القرون التي سُفكَتْ فيه الدماء قاطبة على المدى الطويل، كان منارة للتقدُّم الأخلاقي لأَنَّ المرء كان يسمع القليل من الحديث العنصري في الحانات، أو على الأقلّ في الحانات التي يتردد عليها أمثال دوكينز. إننا جميعاً نصبح ألطف فألطف باستمرار. والتقدُّم العلمي والتطور الأخلاقي سوف يبدو أنه يواكبهما يداً بيد، بالنسبة إلى دوكينز كما بالنسبة إلى العقلانيين الفيكتوريين السُذَّج. إنَّ فكرة أنَّه كان يمكن للعلم أنْ يُساهم فعلاً في انحطاطنا وأيضاً في تهذيبنا لم تخطر في بال أَحد حتى من باب الفضول. ولا حتى في بال هيتشكنز. وهذان مثالان ممتازان على أنهما رجلان ذكيان جداً جعلتهما الأيديولوجيا بليدين في نواحٍ معيَّنة.

ودوكينز يتمتع بقدر كافٍ من اللباقة بحيث يعترف بوجود «انتكاسات محلية ومؤقّتة» في طريق التقدُّم الإنساني (يخطر في بال المرء انتكاسات صغيرة مثل بلسن[٤٦]، وهيروشيما، والفصل العنصري

٤٦– بلسن: قرية في شمال شرق ألمانيا كانت، بالإضافة إلى قرية برغن، موقعاً لمعسكر اعتقال نازي بين ١٩٤٣–٤٥. – المترجم

Tele: @Arab_Books

وما إلى ذلك)، لكنَّ الاتّجاه العام نحو الأعلى لا يمكن إلّا أنْ يُلاحَظ. ونفهم، إذن، مما ورد على لسان السيد العلم العام نفسه أنه بغضّ النظر عن بعض العثرات المحلية الصغيرة كالكارثة البيئية، والحروب العرقيّة، واحتمال وقوع فاجعة نووية، فإنَّ التاريخ يسير نحو العلاء. حتى الإنجيليين المُشرقين، المُبتهجين، ليسوا متفائلين مَرَضيّاً كثيراً. ما هذا إنْ لم يكن مثالاً على الإيمان الأعمى؟ أية روح عقلانيّة تنخرط في مثل تلك الأسطورة الدنيوية؟

بعض العلماء يعتبرون أنَّ إحدى الأساطير الدنيوية الشبيهة بتلك هي فكرة دوكينز عن الـ «memes»، وهي وِحدات ثقافيّة تورَّث فيما يُشبه المُحاكاة الساخرة للانتقال الجيني. في هذا الدمج للثقافيّ والبيولوجي، يُعتَبَر دوكينز الابن الحقيقي لنزعة القرن التاسع عشر التفاؤليّة. إنه دمج يتغاضى عن حقيقة أنَّ التقدُّم الأخلاقي والعلمي، بعيداً عن الارتقاء المترادف، يمكن أنْ ينخرطا في صراع حادّ معاً. قد يكون لدينا وسائل تواصُل عن بُعد، ولكن أصبحنا نمارس المذابح أكثر من أيِّ وقت آخر. إنَّ العديد من انتصارات الحضارة في جوهرها تقدّمٌ نحو البربرية. إنَّ دوكينز هو بنّاء عتيق الطراز لنظام مصغَّر جداً خارج مباشرة من رواية جورج إليوت ***«ميدلمارتش»***، يبحث عن مفتاح للأساطير كلها أو للنسيج الأساسي للحياة كلها. وهذه الكلّيات المنتصرة كلها قُدِّرَ لها أنْ تفشل، تماماً كما خبا حماس المُعمّمين في ***«ميدلمارتش»*** في نهاية المطاف. مثل هذه الأنظمة المُصغَّرة تتعارض مع الحرية التي يُناصرها دوكينز عن حق. بهذا المعنى، يتعارض فِكره مع نفسه.

لا خطب في الإيمان بإمكانيّة التقدُّم، كنقيض لوجود أيديولوجية قوية له. ليس من قبيل التناقُض أنْ تتكلَّم لصالح التقدّم وترفض في الوقت نفسه أنْ تكون مُرتهناً عند التقدُّم. وينبغي على ديتشكينز أيضاً أنْ يضع في حسبانه أنَّ العديد من الرموز الدينية كانوا مُدافعين

Tele: @Arab_Books

متحمسين عن التقدُّم مثله. ولكن ليس كلهم. وكما يُشير أليستر كوك[٤٧]، إنَّ العديد من الإسلاميين البارزين يرفضون السرد الغربي للتقدُّم الذي لا يرحم، بالإضافة إلى النزعة المادية والفردية الغربية. وعندما أعلنت مجموعة من الاختصاصيين في واشنطن مؤخراً أننا «لا نستطيع أنْ ننجو... في مواجهة أناس لا يُشاركوننا قيَمنا»، نسوا أنَّ الحضارة الغربية استطاعت أنْ تبقى حيّة بهذه الطريقة بالذات على مدى قرون. وكانت معروفة باسم الاستعمار. من الواضح أنه لم يكن قصدهم أنَّ الحضارة الغربية لن تنجو من نقد شديد لمادّيتها المفرطة وفرديتها الأنانيّة، وأنه ربما يكون ذلك لصالحها. لكنَّ الاختصاصيين انتهوا إلى أنَّ الجواب يكمن في إحياء «الأفكار الغربية اليقينيّة»، بالإضافة إلى تصميم على استخدام الوسائل كافة، بما فيها الخَيار النووي، ضد أعدائها[٤٨].

يمكن للثقة المستنيرة ضمن سيادة العقل الإنساني أنْ تكون سِحرية كمآثر الساحر مرلين، والإيمان في مقدرتنا على تحسين الذات غير المحدود هو وهم ساذج كالإيمان بجان الأساطير. بل إنَّ هناك معقوليّة تبدو فيها النزعة الإنسانية أحياناً، عندما نتلفّت حولنا في العالم، مقبولة تقريباً كالمعصوميّة البابويّة. هل في الإمكان وصف عالم عاجز عن إطعام عدد كبير من سكّانه بأنه راشد؟ هل يُعتَبَر ما قاله ج.ل. أوستن[٤٩]

٤٧- أليستر كوك (١٩٠٨- ٢٠٠٤): صحفي ومقدِّم برامج تلفزيونية وإذاعية أميركي من أصل إنكليزي. من أبرز برامجه في الإذاعة برنامج «**رسالة من أميركا**» وبقي يُقدّمه على مدى سنوات طويلة، ثم جمع حلقاته وأصدرها في كتاب في أواخر حياته - المترجم

٤٨- أليستر كوك، «The Naïve Armchair Warriors Are Fighting A Delusional War»، صحيفة ***الغارديان*** (٢٤ آذار - مارس ٢٠٠٨).

٤٩- ج.ل. أوستن (١٩١١- ١٩٦٠) فيلسوف إنجليزي. له مقالات. - المترجم

Tele: @Arab_Books

عن القديس أوغسطين دلالة تقدُّم؟ وفيما يتعلَّق بالعقل، ماذا نفهم من نظام رأسمالي هو في وقت واحد عقلاني بصورة بارزة ويمثل لاعقلانية هائلة يُراكم حبّاً بالتراكم ويفرز في أثناء ذلك كميات ضخمة من النفاية واليباب؟ وكما يعلم إدموند برك[٥٠]، يمكن للضوء الفائض أنْ ينتج عنه ظلام؛ وفائض من العقل يمكن أنْ يتحول (كما يُبيِّن ابن بلد برك جوناثان سويفت في *«رحلات غاليفر»*)، إلى نوع من الجنون. إنَّ نوعاً من العقلانيّة ينفصل عن حياة الجسد والمشاعر سوف يفشل في تشكيل المجال الموضوعي من الداخل، لذلك يتركها فريسة للعماء والعنف. إنَّ البدائيّة شديدة القُرب من العقلانيّة.

إنَّ هذا أحد المعاني التي يستطيع عقل التنوير بسهولة، على الرغم من أنه لا يمكن تقديره، أنْ يُنتج نقيضه. إنَّ أيديولوجيا التقدُّم، التي تعتبر أنَّ الماضي يُشكل خطراً كبيراً ويجب نبذه إلى غابات ما قبل التاريخ، تسلبنا إرثنا التاريخي، وبالتالي مصادرنا الأنفس من أجل المستقبل. وأولئك الذين يأملون في الإبحار إلى ذلك المستقبل بمحو الماضي سوف يجدون ببساطة أنه يعود بقوة. إنَّ انبعاث الدِّين عالميّاً هو أحد الأمثلة عن هذه العودة للمكبوت. لقد كان العقل المستنير المعتز بنفسه أعمى بدرجة كبيرة أمام طبيعة الإيمان الديني. لم يتمكّن من تحويل الحاجات والأشواق إلى رموز لا تتبخَّر ببساطة لأقلّ لمسة تحليل واقعيّة. ولأنه لم يستطع أنْ يجد في ذلك الإيمان غير التطيُّر المُضحك واللاعقلانيّة الصبيانية، أثبتَ أنه عاجز عن قهره. ومن المتوقع أنْ يلقى ديتشكينز المصير نفسه.

أما كارل ماركس، الذي كما رأينا سمِعَ في الدِّين ما سمّاه تنهيد

٥٠- إدموند برك (١٧٢٩ - ١٧٩٧): رجل دولة بريطاني من الحزب المحافظ. مُنظّر سياسي مُحافظ، وخطيب. وُلد في أيرلندا. استنكر الثورة الفرنسية. - المترجم

Tele: @Arab_Books

مخلوق مُضطَهَد، فكان أقلّ سذاجة. إنَّ الدِّين يحتاج إلى مَنْ يفكّ رموزه بصبر، لا إلى مَنْ يُنكره بعجرفة. إنه ينبع من عالمٍ ينبغي على العقل ألّا يشعر بالغربة فيه. فقط عندما يتمكن العقل من التعرُّف على الاهتمامات والرغبات الأساسية التي يستمدّ منها الكثير من قوته يستطيع أنْ يُثبت أنه من المتانة بحيث يمنع تلك الرغبات من أنْ تتحول إلى فوضى، وبالتالي تطغى على العقل نفسه. وهذا أحد أسباب عدم نجاح أيِّ هجوم عنيف يُشنّ ببساطة على الدِّين على مستوى النقاش العقلي.

لقد عرف يوريبيدس ذلك قبل زمن بعيد[٥١]. فالملك بنثيوس في مسرحية ***«الباخوسيات»*** هو عقلاني غرّ كانت استجابته لديونيسوس الغاوي الحسيّ، والوحش المُدمِّر بتهديده بقطع رأسه عن كتفيه. وكالغرب هذه الأيام، يمكنه أنْ يتعامل مع الإرهاب فقط بمحاولة تقييده بالأصفاد. إنَّ الإرهابيين الذين يُهددون الأبرياء يجب أنْ يُقهَروا بقوة شرعية تعمل بصمت. لكنَّ لجوء بنثيوس إلى الإكراه، كغالبية الاستراتيجية السياسية الغربية هذه الأيام، هو وسيلة للتنصُّل من حقيقة ما يواجه، وبالتالي قُدِّر له الفشل كنمط من الاحتواء. وبالنسبة إلى الغرب اليوم، مثل هذا الإكراه يمكن أنْ يكون طريقة لتجنُّب تفحُّص أسباب الإرهاب، هو مشروع لا يمكن قهره أبداً من دونه. وهو أيضاً طريقة للتنصُّل من مسؤوليته الجزئية عن ذلك الغضب العارم المُضطرب على أبوابه. إنَّ شكلاً فقيراً من العقل، يواجه عنفاً عارماً، يُصبح مسعوراً، كنوع من الإفراط (الفوضى) يحفِّز شكلاً آخر (الحكم الفردي) ويوجِده. ويعي أنصار فرويد أنَّ الكبت إنما يجعل الرغبة أقوى.

٥١- لقد كتبتُ مطوّلاً عن هذا الموضوع في ***«Holy Terror»*** (أوكسفورد: أوكسفورد يونيفرسيتي بريس، ٢٠٠٥)، الفصل الأول. - المؤلّف

[صدر بالعربية تحت عنوان «**الإرهاب المقدَّس**». ترجمة أسامة أسبر. عن دار بدايات للنشر، جبلة، سوريا. ٢٠٠٧] - المترجم

Tele: @Arab_Books

إنَّ بنثيوس لا يستطيع أنَّ يرى أنَّ على العقل أنْ يتواصل مع قوى غير عاقلة بحد ذاتها، لكي يحافظ على هيمنته. وهذا لا يعني أنَّ عليه أنْ يذعن لها، بل أنْ يعقد معها ما يُشبه الهدنة المؤقتة. ولذلك فإنَّ ملك طيبة مُدان بتحوّله إلى مرآة تعكس صورة الهمجية التي يستهجن. هذا الملك العنيد لا يرى أنَّ التوظيف المُفرِط للعقل، النوع الذي لا نقول عنه معقول بل عقلاني، يمكن أنْ يكون دفاعاً ضد القوى اللاعقلانية داخل النفس. وهذا الدفاع قد ينتهي به الأَمر إلى إثارتها. وهكذا يجد بنثيوس نفسه، كشخصية أنجلو في مسرحية شكسبير ***«Measure for Measure»***، شديد الاشتياق سرّاً إلى المباهج الجنسية نفسها التي يستهجنها. وبدل أنْ يتبيَّن في نفسه شيئاً من الإله ديونيسيوس المتوحش الشنيع، من العمل الذي يُسمّى في المسيحية بالتوبة، يُعامِل هذا الإرهابيَّ المقدَّس ببساطة كآخر همجي يجب خنقه، وهكذا ينتهي به الأمر إلى تمزّقه إرباً بغضب الإله الشهوانيّ. إنَّ بنثيوس العقلاني بجنون عاجز عن أنْ يرى نفسَه في هذا الظلام، تماماً كعجز الغرب عن الاعتراف بدوره في الإرهاب الموجَّه ضده الآن.

المفارقة هي أنَّ فكرة التقدُّم لها رنين دينيّ. إنَّ تشارلز تيلر يقول عنها في كتابه ***«عصر دنيوي»*** إنها «بديل الله» (صفحة ٢٧٩). لكنَّ الإيمان المسيحي بالآخرة أبعد ما يكون عن كونه ارتقاءً بلا حدود. إنَّ ملكوت الله لا يصل كنغمة انتصار عالية في لحن التاريخ المتصاعد. إنه ليس تحقُّق ارتقاء تاريخيّ مهيب، بل تحقّق تلك النقاط المُضيئة كلها في تاريخ كافح فيه الرجال والنساء لتحقيق العدالة، وبفعله هذا إنما تنبَّأ بقدوم سَلام وعدل عالميين الذي هو حكم الله. وبهذه الطريقة، يؤمن اللاهوت المسيحي بإمكانية تحويل التاريخ بعيداً عن عجرفة فكرة التقدُّم. وكما لاحظ والتر بنجامن[٥٢]، أنَّ حكم الله يمثّل ببساطة تلك

٥٢- والتر بنجامن (١٨٩٢ - ١٩٤٠): ناقد ومُنظِّر ثقافي ألماني. - المترجم

Tele: @Arab_Books

المعارك المتفرقة، المُخفقة غالباً، لصالح المُضطهَدين كما يُنظَر إليها من زاوية الأبدية، متجمّعة في ***nunc stans***، أو نقطة واحدة، حيث تجتمع لكي تُنجَز وتبلغ الخلاص كسردٍ متناغم[٥٣]. إنَّ الحداثة تؤمن بالسرديات الفخمة، بينما ما بعد الحداثة لا تفعل؛ اليهود والمسيحيون يعتقدون أنه لا زال هناك واحد، سوف يعمل على استرجاع أحداث الماضي. يكتب بنجامن قائلاً: «وحدها بشريةٌ حصلت على الخلاص تستقبل اكتمال ماضيها»[٥٤].

لعل الكلمة الأخيرة حول موضوع التقدُّم ينبغي أنْ تكون لثيودور أدورنو، ضحية مسيرة النازية التاريخية المنتصرة. يقول أدورنو: «يُستحسَن التفكير في التقدُّم بأشدّ التعبيرات خشونة وأساسيّة: ينبغي ألّا يجوع أحد بعد الآن، ينبغي ألّا يُعذَّب أحد، كفانا محرقات. حينئذٍ فقط سوف تتحرَّر فكرة التقدُّم من الأكاذيب»[٥٥].

إنَّ الماركسية لم تتشاجر أبداً مع الأفكار الضخمة للتنوير الليبرالي. إنها فقط تساءلت بسذاجة زائفة لماذا، كلما جرتْ محاولة لمعرفتها، تنقلب بما يُشبه المنطق العنيد إلى عكسها، بحيث تُصبح الحرية بالنسبة إلى البعض استغلالاً بالنسبة إلى البعض الآخر، وتولِّد المساواة النظرية ظلماً حقيقيّاً، وما إلى ذلك. إنَّ الليبرالية هي حكاية مبهجة عن التحرّر من الأساقفة والبطاركة، وتُشدد على الحقيقة الفاضحة

٥٣- انظر والتر بنجامن، «Theses on the Philosophy of History»، في كتابه «***Illuminations***»، تحرير هانا آرندت (لندن: دار كولينز/ فونتانا، ١٩٧٣).

٥٤- المصدر السابق، صفحة ٢٥٦.

٥٥- اقتطفها دتليف كلوسن، من كتاب «***Theodor W. Adorno: One Last Genius***» (كمبريدج، ماساتشوستس: هارفرد يونيفرسيتي بريس، ٢٠٠٨) صفحة ٣٣٨.

Tele: @Arab_Books

التي تقول إنَّ الرجال والنساء أحرار، ومتساوون، ويُقررون مصائرهم بأنفسهم لمجرّد انتسابهم إلى الجنس البشري. وهذه إحدى أشدّ الأفكار الليبرالية الثاقبة التي ترى النور إدهاشاً، على الرغم من أنَّ لها سابقة في التراث اليهودي-المسيحي. في أيام عزّها، كانت ليبراليّة الطبقة الوسطى أقرب إلى كونها تياراً ثوريّاً منها إلى الاشتراكيّة. إنَّ أية اشتراكيّة تفشل في بناء إنجازاتها الرائعة تُخاطر بإفلاسها الأخلاقي والمادي من البداية.

في الوقت نفسه، عزّزت الليبرالية فكرة بسيطة عن الذات، نظرة تعاقديّة بلا حياة إلى العلاقات الإنسانيّة، نسخة نفعيّة هزيلة من علم الأخلاق، فكرة وسائليّة instrumental فجّة للعقل، اشتباهاً مذهبيّاً بالمذهب، معنى سقيماً للجماعيّة communality الإنسانية، إيماناً مُكتفياً بذاته بالتقدُّم والتحضُّر، تبلُّداً ذهنيّاً حيال الجوانب الأكثر خبثاً من الطبيعة الإنسانيّة، وصورة سلبيّة بصورة مُدمِّرة للسلطة، والدولة، والحرية، والتراث. إنَّ العقل كشكلٍ من أشكال الهيمنة أنتجَ بعضاً من جوانب الحضارة الغربية نفسها التي تُعتَبَر الراديكالية الإسلاميّة ردّة فعل مَرَضيّة لها. بهذا المعنى، إنَّ المُتحضِّر والبربريّ، المُستنير واللاعقلانيّ، ليسوا بأيّ حالٍ من الأحوال متناقضين كما قد يبدون هكذا ببساطة.

إنَّ ما كان قبل زمنٍ بعيد قد سمّاه ماكس هورخايمر[٥٦] وثيودور أدورنو ديالكتيك التنوير[٥٧] هو شكل من الفِكر الازدواجي البنّاء الذي

٥٦- ماكس هورخايمر (١٨٩٥ - ١٩٧٣): لاهوتي اجتماعي ألماني من مدرسة فرانكفورت. من كتبه ***«Eclipse of Reason»*** (١٩٤٧)، و***«Critical Theory»*** (١٩٦٨). - المترجم

٥٧- انظر ماكس هورخايمر وثيودور أدورنو، ***«Dialectic of Enlightment»*** (نيويورك: دار هردر أند هردر، ١٩٧٢).

Tele: @Arab_Books

يبدو أنَّ دوكينز على وجه الخصوص، بإيمانه المُنافق، الفيكتوري الراقي، بالتقدُّم العلمي، فشل في أنْ يستوعب أنه على حق دون أدنى شك في إصراره على واقع التقدُّم. وحده المنتمي إلى ما بعد الحداثة الذي ينبغي أنْ يخرج من مخبئه أكثر يُنكر ذلك. ولكن كما رأينا، يبدو إنَّ ديتشكينز، مثل هربرت سبنسر، و غ.هـ. لويس، وأيّ عدد من الأيديولوجيين الفيكتوريين، لا يؤمنون فقط بالتقدُّم – بل بالتقدُّم بوصفه مذهباً نادراً ومُستبعَداً في هذه الأيام كالإيمان بالعودة الوشيكة للملك آرثر. بمعنى أنَّ اللاعقلانيّة الليبرالية لها مقالاتها الميتافيزيقية الخاصة عن الإيمان، وإلى هذا المدى تشترك مع الإيمان الديني الذي تشجبه بقوة. وذات يوم اشتكى لودفيغ فيتغنشتاين لأحد أصدقائه «لقد تسبّب رَسِلْ والكهنة فيما بينهم بأذى غير محدود، أذى غير محدود»، جامعاً بذلك بين أشهر العقلانيين الليبراليين البريطانيين المُناهضين للدين في أيامه ورجال الدِّين الذين ندّد بهم بشدة[٥٨]. ما مدى بُعد الحلم بمستقبل عقلانيّ صِرف كبديل للجنّة؟ هل «التقدُّم» هو الترجمة الليبراليّة «للحياة الآخرة»؟ هل تخلّصت العقلانيّة الليبرالية من عبء الدِّين؟

إنَّ السائدَ الآن هو نوع فائق التحضُّر من السيادة الثقافية، نوع يشعر ولا شك بأنه مُهان بعنصرية مُبتذلة، بين الطبقة المُثقَّفة أدبيّاً. وبما أنَّ تصنيف الآخرين بأنهم متدنون بسبب عِرقهم لم يعُد مقبولاً، فإنه قد استُبدِلَ بنفيهم إلى الظلام الخارجي بسبب دينهم. ويتحدّث الروائي مارتن إيميس عن المجتمع الإسلامي بقوله إنه «أقلّ تطوراً» من الغرب، في الوقت الذي ينهمك الغرب في ذبح مئات الآلاف من أفراده. إنَّ من الصعب الانحدار إلى أسفل من هذا. ومن المُرعِب

٥٨- اقتطف من كتاب رش ريس ***Ludwig Wittgenstein: Personal Recollections*** (أوكسفورد: دار باسيل بلاكويل، ١٩٨١).

Tele: @Arab_Books

أيضاً، كما لاحظت توّاً، مشاهدة بعض الليبراليين الغربيين يستسلمون لليبرالية دون قتال من الهجوم الأول على قيَمهم الليبرالية. هناك رواية مألوفة تكمن خلف ذعره – حكاية خرافية تضم أولاً البربرية ومن ثم الحضارة، ولكن دائماً مع إمكانية أنْ تعود البربرية لتحلّ بيننا. إنَّ الحضارة ممزوجة بالعَرق والكدّ من نتانة مُستنقعات الهمجية، ومُعرَّضة دائماً لخطر الانزلاق من جديد والعودة إليها. لقد كان هذا قلقاً فيكتوريّاً مألوفاً.

إنَّ ما تستشرفه تلك الحكاية الخرافية هو أنَّ البربرية والحضارة ليسا فقط متعاقبَين بل ومتزامنَين – إنَّ الحضارة الإنسانية هي، من بين أشياء أخرى رائعة، شكل «راق» أو مُتسام من العنف أو العدوانيّة. وبالنسبة إلى الفكر الراديكالي، تبقى البربريَّة أحد الأوضاع المُخوَّلة سرّاً أو الجانبَ السفلي المُستتر قليلاً من ذلك الشيء النفيس الذي نُسمّيه الحضارة – المعنى الخفيّ البربريّ الذي أصبح في السنوات الأخيرة وبعون من جورج بوش وعصاباته من المُحافظين الجُدُد أقلّ إحساساً بالخجل وتستُّراً. والعنف الذي يكون في المعتاد أساس الدول–القوميّة[٥٩] لا يفسح المجال ببساطة لتحضُّر تالٍ، بل يتصعَّد ليغدو تحكماً عدوانيّاً بالطبيعة، بدونه من الصعب على الحضارة أنْ تبقى. ويتصعَّد أيضاً ليتولى مهمّة الدفاع عن الدولة السياسية، والمعروف الآن باسم السلطة العسكرية، أو القانونيّة أو السياسية. وأحد أسباب كون الإرهاب مُفزعاً، بعيداً تماماً عن فحشه الأخلاقيّ، هو أنه يكشف للحضارة عن جانب من ذاتها السريّة المُنكَرة. إنَّ في قلب الحرية يكمن قدر من القسر، تماماً كما أنَّ العقل دائماً يرشح من عكسه.

٥٩– الدول–القوميّة: دول مؤلَّفة من قومية واحدة لا من قوميات متعددة. – المترجم

Tele: @Arab_Books

لا يضير تهجُّم ديتشكينز العنيف المفرط بصورة هزلية على الدِّين – في الحقيقة، قد يدعمه بصورة هائلة – أنْ يخوض في الموضوع بوصفه عقلانيّاً ليبراليّاً، بدل أنْ يُخضعه لنوع من التأنيب العشوائي لا هو ليبرالي ولا عقلاني. إنَّ نزاهة ريتشارد دوكينز هادئة إلى درجة أنه في كتاب يُناهز عدد صفحاته الأربع مئة، يكاد يعجز عن التسليم بأنَّ الإيمان الديني تنتج عنه فائدة إنسانية واحدة، وهذه وجهة نظر مستحيلة بديهيّاً بقدر ما هي زائفة عمليّاً. والملايين الغفيرة من البشر الذين كرّسوا أنفسهم لخدمة الآخرين الغيريّة باسم المسيح أو الله Allah أو بوذا مُحيَتْ ببساطة من التاريخ الإنساني – وذلك بشن حملة ذاتية ضد التعصُّب الأعمى.

أما هيتشنز، فإنه يعدُ في كتاب «*God Is Not Great*» في الصفحة ٢٧ بمناقشة «العديد» من الأمثلة عن أعمال المؤمنين الغيريّة، ولكنه يفشل في ذلك بصورة غامضة، فيما عدا تلميح أو اثنين عاديين. ويُبلغنا أيضاً بأسلوب يُدينُ به نفسه بشجاعة أنَّ «النزعة الإنسانية ارتكبت العديد من الجرائم التي عليها أنْ تعتذر عنها» (صفحة ٢٥٠)، لكننا لا نكتشف أبداً ما هي بالضبط. وعلى أية حال، يبدو أنَّ كتاب هيتشنز يدّعي أنَّ المتدينين لم يُنجزوا أيَّ شيء من أجل قضية النزعة الإنسانية العلمانية، وهذا يُشبه قول إنَّ أيَّ تقدُّم أحرزه المدافعون عن حقوق المرأة يعود برمّته إلى التأثير اللطيف لآبائهم.

إنَّ مما يُعزِّز نزاهة ديتشكينز الأخلاقيّة وصدقه الفكري بقدر كبير هو أنْ يُوشّي نقده اللاذع الممسوس أحاديّاً لموضوع الدِّين بتلميحات غريبة غير مباشرة إلى، فلنقُل، العمل على تخفيف المعاناة الإنسانية التي تولّت المسيحية والأديان الأخرى نشرها على مدى قرون بين البؤساء في الأرض، أو جهودها المبذولة في قضية السلام العالمي، أو الاستعداد الذي أبدته بعض النماذج الدينية للتضحية بحياتها من أجل

Tele: @Arab_Books

إخوانهم، أو رجال الدِّين الذين وهبوا حياتهم كشهداء في الكفاح ضد الدكتاتوريات المدعومة من الولايات المتحدة. إنَّ الاعتراف بهذا كله لا يعني بالضرورة بالنسبة إلى ديتشكينز الإبقاء على جُرح قاتل في الأيديولوجية. إنَّ العديد من الليبراليين الغربيين يُميّزون بحرص بين نقدهم لِما يُسمّى الإسلام الليبرالي ونقد الإسلام نفسه؛ ونادراً ما ينتابهم الكثير من الشك عندما يتعلَّق الأمر بالمسيحية. يبدو أنَّه ليس صحيحاً أنَّ الليبرالية تبدأ في المنزل.

إنني أعيشُ في أيرلندا، وقد تعرَّض الأيرلنديون بصورة مُخزية لسوء المُعاملة والاستغلال من قِبَل الكنيسة الكاثوليكية بطرق مألوفة جداً ولا داعي لذِكرها. لكنَّ ما يجهلون دون أدنى شك هو أنه لم تُقدَّم لهم أية نسخة من الإنجيل تتطلّب حتى أدنى جهد لرفضها. ولذلك هم قادرون على تبنّي الإلحاد أو اللاأدريّة بسهولة. إنَّ ديتشكينز لا يفعل الشيء نفسه. وهذا شكل من الحرمان على المرء أنْ يعترض عليه بصورة ملائمة، حتى وإنْ كان شكلاً ألطف من القسوة من البقاء حبيساً مدى الحياة على أيدي راهبات ساديات مُضطربات العقول لأنكَ وُلِدتَ خارج رباط الزواج.

إنَّ الكنيسة الكاثوليكية تفوح منها هذه الأيام رائحة كريهة مفهومة في أيرلندا حتى إنَّ الناس ينتقلون إلى الجانب الآخر من الشارع أحياناً عندما يلمحون كاهناً يقترب. في الماضي كان ربما صاحب المنزل. لكنَّ الممارسات الوحشية والغبية التي مارستها الكنيسة الأيرلندية لا تمنعني من تذكّر كيف أنَّ أجيالاً من أسلافنا كان يمكن، من دونها، أنْ تعبُر دون تعليم، أو تربية، أو عزاء، أو دفن. وقد مات أحد أسلافي في أواخر القرن التاسع عشر، الدكتور جون إيغلتون، وهو لا يزال في عشرينيات عمره متأثّراً بمرض التيفوئيد أُصيبَ به من جرّاء السهر على صحة الفقراء. وآخر، اسمه الأب مارك إيغلتون، وقع في مأزق مع أسقفه لأنه وجّه اتهاماً

Tele: @Arab_Books

إلى صاحب الأرض من على المنبر[٦٠]. وأتصوَّر أنَّ الداروينيّ الورع دوكينز لن يُعجبه الرأي القائل إنَّ المميزات السياسية المُكتسَبة يمكن أنْ تورَّث جينيّاً، ولكن قد يبدو هذا مثالاً ثانويّاً حول الموضوع.

قبل أنْ يجفّ الحبر الذي كتب به دوكينز كتابه «*The God Delusion*» وكتاب هيتشنز «*God Is Not Great*» كان قد خرج عشرة آلاف راهب بوذي في بورما، مدفوعين بمبادئهم الدينية، في مسيرة ضد الحكم الفردي الوحشي فضُربوا وسُجنوا وقُتلوا بسبب ما فعلوا. وبسبب انتحار راهب بوذي في سايغون في عام ١٩٦٣ تحركت الضمائر الأميركية حول الحرب الدائرة في الهند الصينية. وراهب فييتناميّ آخر، اسمه ثيتش نهات هانه، أصبح شخصية بارزة وسط حركة حقوق الإنسان الأميركية وأقنع مارتن لوثر كينغ بمناهضة الحرب في فييتنام. وفي كمبوديا، حيث ذبح الخمير الحمر تقريباً كل الرهبان في البلد ويبلغ عددهم ستون ألف راهب، أصبح الراهب ماها غوسانادا الشخصية المحورية في إعادة بناء البلد. وفي التيبت، خرج رهبان بوذيون في عام ١٩٨٧ في أول مظاهرة كبرى منذ أعوام، وكانت النتيجة أنهم عوملوا معاملة قاسية[٦١]. إنْ كان في استطاعة الاشتراكيين أنْ يمدحوا الطبقات الوسطى بوصفها القوة الأشدّ ثوريّة في التاريخ، من دونها لا وجود للحقوق والقيَم التي نحافظ عليها، فلماذا يكون ديتشكينز مراوغاً فكريّاً وبفظاظة بحيث يُنكِر منجزات الإيمان الديني،

٦٠- يبدو أنَّ صاحب الأرض المذكور كان أحد أسلاف إيسلينغ فوستر، زوجة المؤرخ الأيرلندي روي فوستر، الذي رأيتُ أنَّ أعماله تستحق بين حين وآخر أنْ تُنتَقَد من وجهة نظر راديكالية. - المؤلف

٦١- انظر مقالة بانكاج ميشرا «The Burmese Monks› Spiritual Strength Proves Religion Has a Role in Politics»، في **الغارديان** (الأول من تشرين الأول، ٢٠٠٧).

Tele: @Arab_Books

في حين يواصل التأكيد – وهذه نقطة قد يوافق المرء عليها – على أنَّ كفّة تلك الإسهامات الرائعة في خير الإنسانية فشلتْ في نهاية المطاف في أنْ ترجَح أمام الممارسات الإرهابيّة التي قام بها الدِّين المُنظَّم.

من المذهل أنَّ آلهة التنوير الليبرالي أمثال هيتشنز، ودوكينز، ومارتن إيميس، وسلمان رشدي، وإيان مكيوين ليس لديهم الكثير ليقولوه عن شرور الرأسمالية العالمية في مقابل شرور الإسلام الراديكالي. بل الحقيقة هي أنَّ غالبيتهم لم يذكروا كلمة «رأسمالية» على الإطلاق، مهما بلغ احتجاجهم بين حين وآخر على تجاوزاتها. ولا لاحظ أحد أنَّ كثيراً منهم هاجم، مثلاً، أنظمة الحُكم المرعبة التي تدعمها أميركا في المملكة العربية السعودية أو باكستان. والفكرة المألوفة (وإنْ كانت، كما يبدو، ليست مألوفة جداً في وسائل الإعلام الأميركية) القائلة، بعد مرور ثلاثين عاماً على اليوم الذي سبق الهجوم على البرجين التوأم، إنَّ حكومة الولايات المتحدة أطاحت بعنف بحكومة تشيلي المُنتَخَبة ديموقراطيّاً، ونصّبت مكانها دكتاتوراً دمية بغيضاً ظل يذبح من الناس أكثر بكثير ممّن ماتوا في مركز التجارة العالمية. والولايات المتحدة دعمتْ أيضاً على مدى سنين عديدة نظام الحكم في أندونيسيا الذي ربما أبادَ من الناس أكثر مما فعل صدّام حسين. وربما على الذين تلفّعوا بالعلم الأميركي كلفْتة احتجاج ضد الممارسات الإسلامية الوحشية أنْ يتذكّروا هذه الحقائق باستمرار.

هناك سبب وجيه لاعتقاد أنَّ عنف الإرهاب الإسلامي الفظيع هو، من بين أشياء أخرى، ردّة فعل ضد هذا التاريخ الاستبدادي. وكما قال إعجاز أحمد[٦٢] إنَّ الإسلاميين المتطرفين هم أولئك الذين يظهر

٦٢– إعجاز أحمد: مُنظِّر أدبي ومُعلِّق سياسي ماركسي هندي. ولد في أوتار براديش ثم انتقل إلى باكستان بعد انفصالها عن الهند. – المترجم

Tele: @Arab_Books

الغرب في تصوراتهم المتزمّتة المُبالغ فيها ليس أكثر من بؤرة فساد وفسق، وبعد أنْ هاجروا إلى ما يرون أنه (وهو كذلك في الغالب) وسط غربي عِدائي، «يتصورون أنه ينتظرهم ماضٍ مُشترك دائم لن يأتي أبداً»[٦٣]. إنه وهم يشتركون فيه مع العديد من المهاجرين، خاصة الأميركيين من أصل أيرلندي. ومع ذلك، كما يشير إعجاز أحمد، فإنَّ كل أولئك المؤهلين للانضمام إلى تنظيم «القاعدة» ينشؤون في بلدان لها تاريخ طويل، مُخزٍ، من الهيمنة الأوروبية أو الاحتلال المُستعمر. وفي العالم العربي، هؤلاء المنشقّون شاهدوا حكّامهم «يرهنون ثرواتهم الوطنية لصالح الغرب: مُبددين ثروة صاحب الأرض على رفاهيتهم ورفاهية أسرهم؛ ويُنشئون جيوشاً يُقاتل بعضها بعضاً ولا تقاتل أبداً الغازي والمُحتل». وعندما يعجزون عن تكوين جيوش موثوقة يضمونها إليهم، ينتقلون إلى تصميم جيش خاص بهم: سرّي، غير وطني، مُكرَّس للدعاية للمأثرة. ويُضيف أحمد: «لقد شاهدوا أعداداً لا حصر لها من المدنيين يُقتَلون على أيدي الأميركيين والإسرائيليين بحيث إنهم لا يعتبرون قتلهم للمدنيين عملاً إرهابيّاً، أو حتى يُقارَن بما عاناه شعبهم. وإنْ كان لا بدّ من وصف أنفسهم فإنهم يعتبرون أنهم لاإرهابيين»[٦٤].

إنَّ على الذين يرتابون في مثل هذه التصريحات ذات السّمة الدعائية الإسلامية أنْ يلاحظوا أنَّ قائلها يُقارن العنف الصادر عن تلك الجماعات بتلك التي كانت تصدر عن الإرهابيين الثوريين في روسيا القيصرية، في حين إنه يُشبِّه «نظام الحُكم السرّي العقابيّ بصورة رهيبة» لطالبان بممارسات بول بوتْ في كمبوديا. ولكن

٦٣- إعجاز أحمد، «Islam, Islamism and the West»، في ***Socialist Register*** (لندن ك. مرلين، ٢٠٠٨) صفحة ١٢.

٦٤- المصدر السابق، صفحة ١٤.

Tele: @Arab_Books

يُذكرنا أحمد أيضاً، بأسلوب نادر متوازن في تلك المناظرات، بأنّ «حكم طالبان كان فظيعاً لكنه كان الفترة الوحيدة بعد أفغانستان ما بعد الشيوعية التي لم تتعرَّض خلالها النساء للاغتصاب من قِبَل النخبة الحاكمة، ولم يتلقَّ أيُّ حاكم رشاوى، ولم يُزرع الخشخاش ولم يُصنَّع الهروين»[٦٥]. والمقارنة الصحيحة هي مع حكم المُجاهدين العسكري السابق المُسلَّح من قِبَل الولايات المتّحدة. فإنْ كان طالبان قد حوّلوا البلد برمّته إلى سجن شاسع للنساء، في ظروف من الجوع الجماعي والعوز، فإنَّ حكم المُجاهدين كان يعني حلقات الاغتصاب الجماعي، وبؤر الفساد، والإعدام الجماعي.

خلال نصف قرن مضى أو نحوه، كما يُشير أحمد، بدأت الغالبية العظمى من الإسلاميين الناشطين سياسيّاً كموالين للغرب، ثم انتقلوا إلى معسكر المناوئين له بالدرجة الأولى بسبب عدائيّة السياسات الغربية. وبالنسبة إلى الشيعة، كان المذهب الخُميني الذي يقول إنه ينبغي على الحكومة المدنيّة أنْ ترضخ كليّاً لهيمنة الدِّين، وإنَّ العصيان المُسلَّح وسيلة مشروعة لتحقيق هذه الغاية، بدعة مذهلة في السُّنّة الإسلاميّة ترى التغيير السياسي من منظور انتخابيّ. والذين يسعون إلى فرض الإسلام عبر البندقية يُشكّلون أقلّية صغيرة جداً. والدِّين الإسلامي يُحرِّم الانتحار وقتل المدنيين. وظهور هذا المذهب العنيف في رأي أحمد يعود إلى مجموعة من العوامل. كان هناك قمع القوى اليسارية والقوى المدنية المناهضة للإمبريالية في إيران جراء الانقلاب المدعوم من الـ CIA في عام ١٩٥٣، الذي استعاد النظام المَلَكي، وأطاح بالشيوعيين والديموقراطيين الاجتماعيين، وأوجدَ قوة أمنيّة داخلية متعطشة لسفك الدماء. ولاحقاً تسبّب حُكم الشاه الفردي

٦٥- المصدر السابق، صفحة ٢٩.

Tele: @Arab_Books

المُطلَق، بالإضافة إلى روابطه الحميمة مع الولايات المتحدة، في إحداث حركة ارتجاعيّة دينية راديكالية على شكل ثورة إسلاميّة في عام ١٩٧٨. وتحولت إيران، بمساعدة الـ CIA، من أمّة تضم يساريين علمانيين وديموقراطيين اجتماعيين إلى دولة إسلاميّة متشدّدة.

في أندونيسيا، الأمة التي تضم أكبر عدد من السكان المسلمين في العالم ولكنها كانت ذات يوم تضم أيضاً أكبر حزب شيوعي غير حاكم، أطيحَ بحكومة سوكارنو العلمانية المناهضة للاستعمار في عام ١٩٦٥ بانقلابٍ مدعوم من الولايات المتحدة، بأكبر حمّام دم من الشيوعيين فريدٍ من نوعه في تاريخ ما بعد الحرب العالمية الثانية، نتجَ عنه مقتل نصف مليون أو أكثر، وإنشاء ديكتاتورية سوهارتو. وفي أفغانستان، كانت الولايات المتحدة هي التي دعمت وأطلقت يد الجهاد الإسلامي ضد الشيوعيين المحليين والسوفييت، وأسّستْ بذلك لحكومة إسلامية عسكرية من المجاهدين. وفي الجزائر، وهي دولة هدّدها حزبٌ إسلامي مُنتَخَبٌ ديموقراطيّاً تهيّأ لتشكيل حكومة أوقفَت العمليّة الانتخابية باستحسان صاخب من الولايات المتحدة وأوروبا. وكانت إحدى نتائج هذا القمع أنه أمدّ العناصر الجهاديّة داخل الحركة الإسلاميّة بالقوة. وفي مصر، قمع نظام حكم مبارك المدعوم من الولايات المتحدة حزبَ الإخوان المسلمين المُمثَّل في مجلس الشعب، وسجن قادته، وتلاعب بالانتخابات. وفي الأراضي الفلسطينية المُحتلّة، صوّتت الجماهير بلا تحفُّظ لحركة حماس، لكنَّ انتخاب تلك الحكومة الشرعية تسبّب في تضييق الخناق الاقتصادي الغربي الذي استمرَّ في استنزاف حياة الشعب الفلسطيني.

وفي رأيي أحمد ورأيي، لا شيء مما سبق يمنح أيَّ قدرٍ من الشرعية لاستخدام الإرهاب. ولا يوحي بأنَّ الغرب مسؤولٌ عن التفجير الانتحاري. إنَّ المُفجّرين الانتحاريين هم المسؤولون عن التفجير

Tele: @Arab_Books

الانتحاري. لكنه يدل على أنَّ للغرب دوراً هامّاً في خلق الظروف التي تبدو فيها مثل هذه الجرائم تستحق الارتكاب. ولا ريب في أنَّ أحمد على حق بادّعائه أنَّ «ما يخلق الظروف الموضوعية التي تجعل الإسلام «المعتدل»، الديموقراطي، يفسح المجال، في أماكن عديدة، لتشكيلة من المتطرّفين، الألفيّين[٦٦]، هو مزيج من أنظمة الحكم المحليّة (الإسلاميّة)، المُناهضة لليسار وفي الغالب اليمينية الدكتاتورية، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، سياسات (الغرب) الإمبريالية-الصهيونية الصارمة»[٦٧]. إنَّ الغرب هو الذي ساعد الإسلام الراديكالي على الازدهار بتعزيزه بوصفه قوة مُضادة لما يُسمّى الشيوعيّة - وهي صفة استُخدِمَتْ لوصف أيِّ بلد جرؤ على إشهار مبدأ القومية الاقتصادية في وجه الوحدة الرأسمالية الغربية. والغرب، أيضاً، هو الذي، بضمانه الإطاحة بتلك الحكومات العلمانية في العالم الإسلامي التي إما تتسامح مع الشيوعيين أو ترفض أنْ تنحاز إلى الغرب (كسوكارنو في أندونيسيا وعبد الناصر في مصر)، أو الذي دعا حتى إلى شكل معتدل من القومية الاقتصادية (كمُصدَّق في إيران)، إنما ضيَّقَ حيِّز السياسة العلمانية في تلك المجتمعات وبالتالي ساعد على بروز الأيديولوجية الإسلاميّة.

زيادة على ذلك، عندما نما التوجُّه الإسلامي وأضحى تياراً قويّاً في العديد من تلك الدول، قدَّم الغرب لها أوراق اعتماده على طبق من ذهب بوصفها «مُعادية للإمبريالية» وذلك بدعمه حكاماً مُستبدين أمثال مبارك والنظام الملكي السعودي الدكتاتوري ضدها، في حين كان يعدّ لشن حرب مقدّسة على السوفييت في أفغانستان. في تلك الأثناء، استمرت إسرائيل في الاستهزاء بالقانون الدولي باحتلالها

٦٦- الألفيّون: هم المتعلّقون بعصر ألفيّ سابق كان مزدهراً. - المترجم

٦٧- المصدر السابق، صفحة ٢٥.

Tele: @Arab_Books

فلسطين. إنَّ الإسلاميين المُسلّحين هم في الغالب مُعادون للساميّة متعصبون ومتطرفون، يجهلون تماماً دينهم الإسلامي، وقمعيون ماضويون بشراسة، ومستعدون للقتل دون أنْ يرفّ لهم جفن. ومع ذلك، كما يقول أحمد، ليس غريباً أنَّ «الإسلاميين لا يُصدّقون أنَّ القانون الغربي... لن يمنحهم العدل أبداً»[٦٨]. وعندما يُجَرّ آرتفول دودجـر[٦٩] في رواية ديكنز إلى قفص الاتّهام في المحكمة وهو يصرخ محتجاً «هذا ليس مكاناً لتحقيق العدل»، إنما يُقدِّم عرضاً من رثاء الذات لكي يُثير عطف الآخرين. وهو أيضاً، كما تبيِّن الرواية، على حق تماماً.

بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٦٥، كما يقول أحمد، كانت المجتمعات ذات الغالبية المُسلمة، من أندونيسيا إلى الجزائر، تتقبَّل بصورة خارقة الأفكار اليسارية، والعلمانية. وكما لاحظنا توّاً، رأى العديد من فقهاء الإسلام أنَّ الإسلام والاشتراكية (أو حتى الماركسية) تنسجم مع بعضها، وشكّكوا في القاعدة الإسلامية حول الملكية الخاصة. وفي خمسينيات القرن العشرين، كان أضخم تنظيم سياسي في العراق هو الحزب الشيوعي. وبالمقارنة، بين منتصف ستينيات القرن الماضي وحتى أواخر السبعينيات، عشية الانقلاب في أندونيسيا، وتدمير الجيوش العربية في الحرب العربية-الإسرائيلية، وأول تحركات المجاهدين الأفغان، وصل اليسار والعلمانية في العالم الإسلامي إلى مأزق حادّ، عندما ازدادت قوة التنافُس بين حركات التطرُّف في إيران والسعودية.

حطَّم الانتصار الإسرائيلي المدعوم غربيّاً في عام ١٩٦٧ التيار

٦٨- المصدر السابق، صفحة ٢٦.

٦٩- آرتفول دودجر (حرفيّاً يعني: المحتال الماكر): هو نشّال صغير في رواية تشارلز ديكنز *«أوليفر تويست»*. - المترجم

Tele: @Arab_Books

الناصري، العقلاني-العلماني، والاشتراكي -الفاشي، الذي كان يجتاح ذات يوم العالم العربي، بشكل كامل. والتيار الإسلامي الذي برز إثر تلك الهزيمة اتّهم عبد الناصر بفشله في قيادة القوى العربية إلى النصر على إسرائيل. وعلى الأثر انتقل التوازن السياسي داخل الوطن العربي بعيداً عن الحركة الناصرية التي فقدت مصداقيتها إلى وهّابيي السعودية المتطرفين الملَكيين الموالين للغرب. وما عجزت السياسة العلمانية كما بدا عن إنجازه، كان في استطاعة سياسة دينية متعصّبة أنْ تحققه بدل ذلك.

وهكذا ساعد الغرب في إعـداد الظروف التي ستُطلق العنان لشن اعتداءات مُستقبلية على سلطتها. وبعد المجازر التي ارتكبها الإسرائيليون في الأردن عام ١٩٧١ ازدادت الأيديولوجيا الإسلامية بين الفلسطينيين قوة على قوة. وبحلول عام ١٩٩٠، ومع بروز دولة إسلامية في أفغانستان تحت وصاية الولايات المتحدة، بدأ بعث الإسلام الراديكالي. حينئذ أخذ العالم يشهد شكلاً مسعوراً من التطرُّف الديني – تطرّفاً إما تصالح مع الغرب الإمبريالي وتغذّى منه، كما حدث في السعودية، أو استمر في كفاحه المناهض للإمبريالية بينما كان يؤسس (أو يسعى إلى تأسيس) أنظمة حكم لاهوتيّة، قمعيّة، كارهة للأجانب وأبويّة بصورة وحشية في بلدانه. وهذه الروح النضالية لم يُرَ فيها مُعلّقون من أمثال مارتن إيميس وآخرون كُثُر في الغرب إلّا أفعال أناس معتوهين، جاهلين بصورة بائسة أو متجاهلين ما يُسميه أحمد «القرائن الخبيثة التي يمكن أنْ تنمو فيها أنواع السرطانات كافة». ويتابع «إنَّ على العالم العِلماني أنْ يحتوي ما يكفي من العدل بحيث لا يُضطر المرء فيه إلى أنْ يستحضر على الدوام عدل الله مقابل جور الوثنيين». إنَّ الحل للقضاء على الإرهاب الديني هو العدل العلماني.

لا شيء من هذا يدّعي بأنه لا وجود للإسلاميين المتعصبين من دون

Tele: @Arab_Books

إمبريالية غربية. فهم موجودون فعلاً، تماماً كما أنه يوجد دون أدنى شك إنجيليون مسيحيون متعصبون. كل ما في الأمر أنه، من دون وجود مُعسكر الاعتقال الضخم المُسمّى قِطاع غزّة، لم يكن مُستبعداً على الإطلاق أنْ يبقى البرجان التوأم قائمين. إنَّ الذين يكرهون أنْ يعزوا حتى هذا القدر من العقلانيّة إلى راديكاليّة إسلاميّة التي يُفضّلون أنْ يعتبروها ببساطة مُصابة بمرض عقلي، يجب أنْ يتحاوروا مع العاملين في المخابرات البريطانية الذين كانت مهمتهم قبل بضع سنوات رصد تحركات الجيش الجمهوري الأيرلندي. إنّ هؤلاء المناهضين المحترفين للإرهابيين لديهم من المعرفة ما يجعلهم لا يتقبّلون الكثير من الهستريا الرخيصة الحمقاء حول الإرهابيين بوصفهم وحوشاً وحيوانات مجنونة. إنهم يعون جيداً أنَّ سلوك الجيش الجمهوري الأيرلندي، مهما بدا إجراميّاً أحياناً، كان بالمعنى الضيِّق للكلمة عقلانيّاً وأنَّه، دون أنْ يعترفوا بهذه الحقيقة، من المُستبعَد هزيمتهم. ولا شك في أنه يمكن القول عن الـ CIA، بسجلِّها المترع بعمليات الاختطاف، والتعذيب، والاغتيال، ودعمها لفرق الإعدام والتحريض على الديموقراطية الكاذبة، أنها مؤهَّلة لتكون مُنظَّمة إرهابيّة؛ لكنَّ هذا لا يعني أنَّ عملاءها غير عقلانيين. معاذ الله. إنَّ الجانب الآخر من اتّهام العدو بالمرض هو تبرئة الذات. وما دمنا ننظر إلى الدِّين بوصفه المُضاد المُباشَر للعقل، سوف نستمر في ارتكاب مثل هذه الأخطاء. وسوف نتحول الآن إلى هذا الموضوع.

Tele: @Arab_Books

الفصل الثالث

الإيمان والعقل

إنَّ الفرويديين والراديكاليين السياسيين، بالإضافة إلى عدد غفير ممَّن لا يعتبرون أنفسهم من أولئك أو هؤلاء، يدركون أننا من دون العقل سوف نغرق، ولكن أيضاً إنَّ العقل، مع ذلك، ليس في نهاية المطاف هو الجزء الأعمق فينا. إنَّ ريتشارد دوكينز يدّعي بحماقة طنّانة أنَّ الدِّين يُلغي العقل من أساسه، وهذا الكلام لم يصحّ حتى على حلقات الطلاب الاستبدادية البلهاء التي اكتنفتني من كل جانب في المدرسة الثانوية. فمن دون العقل، نفنى؛ لكنَّ العقل لا يُسيطر على كل شيء. ليس شاملاً. حتى ريتشارد دوكينز يعيش بالإيمان أكثر من العقل. بل إنَّ حتى أولئك المراقبين غير المتسامحين الذين تبيَّنوا أقلّ نفحة هوس باللاعقلانية في حملته الحماسية لصالح العقلانية العلمانية. إنَّ حماسته المناهضة للدين تجعل المفتش الكبير[1] يبدو أشبه بليبرالي بليد.

١- المفتش الكبير: شخصية وردت في رواية دوستويفسكي *«الإخوة كارامازوف»*، ويمثّل ممارسة الإرهاب والتنكيل والقتل باسم الدين. والأمر نفسه ينطبق على محاكم التفتيش التي سادت في إسبانيا بعد زوال الحكم العربي في الأندلس – المترجم

Tele: @Arab_Books

في الحقيقة، يبدو إنَّ دوكينز يُغذّي ما يُشبه الديانة الماويّة[٢] داخل الدِّين نفسه - بالمفهوم المثالي بدرجة يائسة، على سبيل المثال، القائل إنَّ الأيديولوجيا الدينية (كنقيض، مثلاً، للظروف المادية أو للظلم السياسي) هي التي تقود الإسلام الراديكالي بصورة أساسية. وبالمقابل، ترمي دراسة روبرت بيب[٣] Pape الجيدة حول الموضوع، القائمة على أساس كل عملية تفجير انتحارية منذ عام ١٩٨٠، ظلّاً من الشك على هذا الافتراض[٤]. بهذا التضخيم لدور الدِّين، يقترب دوكينز من العديد من الإسلاميين الراديكاليين أنفسهم. إنَّ إيمانه بسلطة الدِّين ضخم كإيمان البابا.

إنَّ الادّعـاء بـأنَّ العقل لا يُهيمن بصورة كاملة، لكنه يستسلم للاعقلانيّة، صعب على الراديكالي السياسي كما على الفرويدي أو اللاهوتي. لكنَّ العقل لا يسود إلّا إذا استطاع أنْ يستفيد من طاقات وموارد أعمق منه، وأكثر عناداً، وأقلّ هشاشة، وهذه حقيقة تتجاهلها في الغالب العقلانيّة الليبرالية بصورة كارثيّة. مما يوصلنا إلى مسألة الدِّين والعقل، التي هي أبعد ما يمكن عن كونها مجرد مسألة لاهوتيّة. لعل ليس هناك دليل أوضح على أميّة ديتشكينز اللاهوتيّة من كونه يبدو أنه يقرّ بما يمكن تسميته وجهة نظر يتي[٥] Yeti حول الإيمان بالله. أعني بهذا وجهة النظر القائلة إنَّ الدليل على وجود الله لدينا حتى الآن،

٢- نسبة إلى الزعيم الصيني ماو تسي تونغ.

٣- روبـرت أنتوني بيب الأصغر (ولـد عام ١٩٦٠): عالم سياسي أميركي، معروف في عمله في شؤون الأمن القومي. وهو مُحاضر وكاتب في شؤون الإرهاب ومكافحته. - المترجم

٤- انظر كتاب روبرت بيب، ***Dying to Win: The Strategic Logic of Suicide Terrorism*** (نيويورك: دار راندوم هاوس، ٢٠٠٥).

٥- يتي؛ أو رجل الثلج الرهيب: مخلوق شكله يتراوح ما بين الإنسان والدب يُقال إنه موجود في جبال الهيمالايا، ولا شيء مؤكّد حول وجوده. - المترجم

Tele: @Arab_Books

مثل يتي، ووحش بحيرة لوخ نس[٦]، أو مدينة أتلانتس المفقودة، غامض راديكاليّاً، ناهيك عن كونه مُريباً تماماً؛ ولأننا لا نستطيع أنْ نبيِّن وجود الله بطريقة مباشرة معقولة كالتي نبيِّن بها وجود ظاهرة اشتهاء أكل الموتى أو مايكل جاكسون، فإننا نرضى بدل ذلك بشيء أقلّ من اليقين، يُعرَف باسم الإيمان.

إنَّ المرء يكاد لا يحتاج إلى أنْ يُبيِّن حتى لطلاب سنة أولى لاهوت أية مُحاكاة مُضحكة هذه للدين المسيحي. إنَّ ديتشكينز يضيع في أشد المسائل أوّليّة في اللاهوت التي يختار أنْ يتكلَّم فيها بثقة ذاتية هائلة. من ناحية، إنَّ الله يختلف عن المخلوقات الفضائية أو الـ يتي بأنه لا يمكن إدراكه. بهذا المعنى، الدِّين أقرب شَبَهاً إلى جني السن منه إلى ذي القدم الكبيرة[٧]. ومن ناحية أخرى، الدِّين ليس في المقام الأول مسألة إقرار بفرضيّة أنَّ الكائن الأسمى موجود، وهنا ينحرف كل من الإلحاد واللاأدريّة. إنَّ الله ليس «موجوداً» ككيان في العالم. المُلحد والمؤمن يمكنهما على الأقلّ أنْ يتّفقا حول هذا. وزيادة على ذلك، الإيمان في مُعظمه أدائيّ وليس افتراضيّ. والمسيحيون يؤمنون حتماً بوجود الله. ولكن هذا ليس معنى الإقرار الإيماني «أنا أؤمن بالله»؛ إنه أقرب إلى عبارة مثل «أنا أؤمن بكَ» منه إلى إقرار مثل «لديّ إيمان راسخ بأنَّ بعض الغيلان شاذون جنسيّاً». لقد آمن سيدنا إبراهيم بالله، ولكن من المشكوك فيه أنه حتى خطر في باله أنه ليس موجوداً. وتقليديّاً يُقال إنَّ الشياطين يؤمنون *بوجود* الله، لكنهم لا يؤمنون به *هو*.

٦- بحيرة لوخ نس: موجودة في اسكتلندا. دارت شائعات كثيرة حول رؤية بعض الناس لوحش فيها يُشبه الديناصور. وهناك صورة فوتوغرافية مُبهمة تبيّنه وهو يُبرز رأسه من تلك البحيرة، ولا شيء مؤكّد حول حقيقة وجوده. - المترجم

٧- ذو القدم الكبيرة: مخلوق ضخم يعلو جسمه الشعر يُشبه القرد يُقال إنه يعيش في شمال أميركا. - المترجم

Tele: @Arab_Books

إنَّ المُنظرين الغيلان يرتكبون خطأً آخر. بالنسبة إلى المسيحية، الإيمان يُعتَبَر تقليديّاً مسألة يقين، وليس قبولاً، أو عملية تخمين بارعة، أو تأمُّلاً. وهذا لا يعني أنه لا يُعتَبَر أيضاً أقلّ شأناً من المعرفة. ولكن فقط العقلانيون الذين سددوا ما عليهم يعتقدون أنَّ لا شيء مؤكَّداً إلّا المعرفة اليقينيّة، إنْ كان لها وجود. إنَّ الإيمان، كما يُلاحظ مؤلف كتاب «*Epistle to the Hebrews*»، هو ضمان الأشياء التي نصبو إليها، الإيمان بأشياء غير مرئية. وفضيلة الأمل بالنسبة إلى المسيحية تتضمَّن أيضاً نوعاً من اليقين: إنه مسألة ثقة مؤكَّدة، وليس تمنّياً. ومهما كان ما يفصل العلم عن الدِّين، فهو ليس قضية يقين بالنسبة إلى عالم اللاهوت. إنَّ اليقين الذي يُلائم الإيمان ليس حتماً نفسه النوع الذي يُلائم ملاحظة علمية مُحصَّنة مثل، «لقد تحول توّاً إلى اللون الأحمر»، أو «إنَّ الفأر ثمل بصورة واضحة وعليه أوقفَت التجربة»، ولا تشبه في شيء الجُمل التالية «أحبّك»، أو «إنَّ الديموقراطية الليبرالية أفضل بكثير من العبودية»، أو «أخيراً تحصل إيما وودهاوس[٨] المتعجرفة على القصاص الذي تستحق».

إنَّ العلاقات التي تربط بين المعرفة والإيمان مُعقّدة بصورة جليّة. الإيمان، على سبيل المثال، يمكن أنْ يكون عقلانيّاً لكنه ليس صحيحاً. بالنسبة إلى أسلافنا، بالنظر إلى افتراضاتهم وحجم معرفتهم، الأمر العقلاني هو أنْ يتبنّوا معتقدات معيَّنة اتَّضحَ لاحقاً أنها زائفة. لقد اعتقدوا أنَّ الشمس تدور حول الأرض لأنها تبدو أنها تفعل ذلك. (على الرغم من أنَّ فيتغنشتاين تساءل بخبث، كيف سيبدو الأمر لو أنَّ الأرض كانت تدور حول محورها؟). إنَّ الادّعاءات حول العالم يمكن أنْ تكون صحيحة ولكن ليست عقلانية البتّة. ولا ريب في أنَّ

٨- إيما وودهاوس: بطلة رواية «*إيما*» لجين أوستن. - المترجم

Tele: @Arab_Books

الكثير مما يُخبرنا به فيزيائيو الذرة صحيح، ولكن كان من الصعب أنْ يبدو عقلانيّاً لصمويل جونسن أو لبرتراند رسل، وهو يوسِّع إحساسنا بالأشياء الطبيعية حتى درجة التمزُّق. إنَّ كلمة «معقول» ليست هي التي تبرز تلقائيّاً في أذهاننا عندما يُقال لنا إنَّ الذرّة نفسها يمكن أنْ تمرّ من منفَذَين مختلفَين في وقت واحد.

من المهم أنْ نلاحظ أنه كما يمكن للمرء أنْ يؤمن بلا معرفة، فإنَّ العكس أيضاً صحيح. لو أنَّ الله، في ثورة غضب عارم جرّاء استشراء الإلحاد في كل مكان تقريباً إلّا في الولايات المتحدة الأثيرة بصورة خاصة لديه، نطق بالكلمات المجيدة التالية «**أنا هنا فوق، يا أغبياء!**» كتبها بأحرف على علوّ ميل من الأرض عبر صفحة السماء، فليس من الضروري أنْ تترك أيّ أثر على مسألة الإيمان. بدل ذلك، قد يبدو الأمر أشبه بالكائنات الفضائية في رواية آرثر. سي كلارك الذين يتجسّدون لكي يراهم الناس جميعاً، لكنهم لا يتركون أيَّ أثر على أيِّ شيء، وفي نهاية المطاف يتمّ تجاهلهم تماماً. لكي تكون لمثل هذه المكاشفة الذاتية أية صِلة بالإيمان، ولا تكون مجرد معلومة أخرى تُضاف إلى ذخيرتنا، يجب أنْ تبيِّن بعملية تحوُّل راديكاليّة ما نقول وما نفعل. وقد ترك يسوع العهد الجديد بغضب هذه النقطة حول ما إذا كانت رؤيتنا لتلك العلامة قد أنتجت ذلك التحول مُثيرة للريبة. والذين طالبوا بنظرية أو بفرَضيّة بدل جسد مصلوب ليس من المتوقَّع في المُجمل أنْ يؤمنوا بأيّ معنى من معاني الكلمة.

وقد يتصوَّر المرء أنَّ الله قد تجلّى فجأة للروائي توماس هاردي فوق زريبة الأبقار. إنَّ هاردي ما كان ليتأثّر بقوة بذلك المشهد، ذلك أنَّ هاردي كان يرى في الله النقطة الروائية التي تتمركز حولها وجهات النظر الإنسانية الصِّرف كلها؛ وحتى إنْ كان في الإمكان لكينونة ما أنْ تحتل هذا الموقع في المبدأ، فهو لم يفهم بوصفه مُفكراً ثوريّاً

Tele: @Arab_Books

جيداً الصِّلة التي تربطه بوجود إنسانيّ منحاز ومنظوريّ أصلاً. وهذا، بالمناسبة، استخدام للارتقاء أكثر أصالة بما لا يُقارَن من أيِّ شيء خرج به دوكينز بحيث لا يمكن أنْ ينبذ فكرة الله. بالنسبة إلى هاردي، إنْ كان لله وجود فلن يكون لديه أيُّ شيء مُثير للاهتمام يقوله. وفي إحدى قصائده يعترف بأنَّ الله خلق العالم فعلاً، لكنه منذ ذلك الوقت لم يعُد يهتم به على الإطلاق. وكما قال فيتغنشتاين: «لو كان في استطاعة الله أنْ يتكلَّم، فلن نهتم بما يقول».

في كتابه «*In Defence of Lost Causes*»، يقول سلافوج تجيجيك[٩] Zizek إنَّ التعصُّب يخلط بين الإيمان والمعرفة. فالمتعصِّب يُشبه العُصابي الذي لا يستطيع أنْ يثق في أنَّه محبوب، لكنه يطلب بروح صبيانية برهاناً لا يمكن دحضه على تلك الحقيقة. إنه ليس *مؤمناً* على الإطلاق. إنَّ المتعصّبين لا دين لهم. في الحقيقة، إنهم صورة الشكوكيين التي تعكسها المرآة. وفي عالم يتَّسم بغياب تام لليقين لا يمكن الوثوق إلّا في حقائق صلبة، لا تقبلُ الجدال وصادرة عن الله ذاته. ويقول تجيجيك: «بالنسبة إلى [المتعصبين دينيّاً]، التصريحات الدينية والتصريحات العلمية تنتمي إلى شكل المعرفة الإيجابيّة نفسه... وظهور كلمة «علم» مقرونة بأسماء بعض الطوائف المتعصّبة (العلم المسيحي، وجماعة الساينتولوجيا[١٠]) ليس مجرد نكتة بذيئة، لكنها تُشير إلى انكماش الإيمان إلى مرتبة المعرفة الإيجابيّة»[١١].

٩- سلافوج تجيجيك (ولد عام ١٩٤٩): فيلسوف ومُحلل نفسي من سلوفينيا. - المترجم

١٠- الساينتولوجيا: حركة دينية علمية تؤكّد على دور الروح أو طاقة الحياة في الكون الماديّ. - المترجم

١١- سلافوج تجيجيك، ***«In Defence of Lost Causes»*** (لندن: دار فرسو، ٢٠٠٨) صفحة ٣١.

Tele: @Arab_Books

هذا بالضبط ما يُفكر فيه ديتشكينز أيضاً. فبالنسبة إليه، أيضاً، التصريحات الدينية هي من نوع التصريحات العلمية نفسه؛ الفرق هو أنها جوفاء وبلا أية قيمة. ويُشير هربرت مكيب، الذي يتبنّى الرأي الأرثوذوكسي القائل إنَّ الدِّين المسيحي عقلاني ولكنه عصيّ على البرهان، إلّا أنَّ المطالبة ببراهين صلبة قد تكون في الحقيقة حركة. ويكتب قائلاً: «من قبيل الأسطورة الرومانسية القول إنَّ هناك نوعاً من التفوق الأخلاقي في الأشخاص الذين يرفضون أنْ يتخذوا قراراتهم لأنَّ الدليل ليس قويّاً مئة في المئة. وقد رأينا عدداً كبيراً من الذين أصرّوا على أنهم ليسوا ***متأكّدين*** تماماً من أنَّ اليهود أُعدموا في ألمانيا، وأنَّ سياسة الفصل العنصري كانت جائرة بصورة شنيعة، وأنَّ الكاثوليك يُضطَهَدون في بعض الأماكن، وأنَّ السجناء يُعذَّبون في أماكن أخرى، وما إلى ذلك»[١٢]. ثم إنَّ العقلاني العلمي يمرّ بسرعة فائقة على القضية الشائكة حول ما الذي ينبغي اعتباره يقيناً، وأيضاً أنواع اليقين المختلفة التي نعيش بها.

إنَّ لا أحد سبقَ أنْ رأى اللاوعي، ومع ذلك الكثيرون يؤمنون بوجوده، على أساس أنّه يُضفي معنى رائعاً على وجودهم في العالم. (إنَّ المرء ليشك في أنَّ هذا يتضمَّن ديتشكينز، بما أنَّ الإنكليزيّة تتصف بالحس السليم وليس باللاوعي). زيادة على ذلك، إنَّ غالبية ما نؤمن به لا نعرفه معرفة مباشرة؛ بدل ذلك، نؤمن بمعرفة الاختصاصيين. وصحيح أيضاً أنَّ الكثير من الناس يؤمنون بأشياء لا وجود لها، كالإيمان بمجتمع يشمله العدل. باختصار، إنَّ مسألة الإيمان والمعرفة برمّتها أشدّ تعقيداً مما يعتقد العقلانيّ.

١٢- هربرت مكيب، ***«Faith Within Reason»*** (لندن: دار كونتينوم، ٢٠٠٧) صفحة ١٣.

Tele: @Arab_Books

إنَّ لا شيء من هذا يوحي، كما يبدو أنَّ ديتشكينز يعتقد، بأنَّ الدعاوى الدينية لا تتطلّب برهاناً يدعمها، أو أنها فقط تعبِّر عن حقائق «شعرية» أو ذاتيّة. فإن اختلط جسد يسوع بتراب فلسطين، فإنَّ الدِّين المسيحي عبث. ويمكننا أنْ نوضّح الصلات التي تربط الإيمان والمعرفة هنا بإيراد تشبيه. فإنْ كنتُ أحبك، يجب أنْ أكون على استعداد لشرح السبب الذي يجعلك محبوباً لديّ، وإلّا فإنَّ كلمة «حب» هنا ليست أكثر من نخير. ينبغي أنَّ أُعطي أسباباً لعاطفتي. لكنني يجب أيضاً أنْ أعترف بأنَّه قد يُصادق شخصٌ آخر بكل إخلاص على أسبابي ومع ذلك لا يشعر نحوك بأيّ حبّ. إنَّ البرهان بحد ذاته لن يَبُتّ في القضية. فعند نقطة ما على الطريق، تظهر طريقة للنظر إلى الدليل، تتضمَّن نوعاً خاصاً من الارتباط الشخصي به؛ ولا شيء من هذا يمكن إحالته إلى الحقائق نفسها، من ناحية تحفيزها بصورة حتمية بمجرد وجودها. إنَّ رؤية شيء على أنه بطّة وليس أرنباً، أو جريمة استئصال البظر وليس عادة وثنية فاتنة، ليست وجهة نظر يمكن إدراكها من المظاهر. (بالمناسبة، قد نلاحظ الفرق بين هذا والفكرة المريبة القائلة إنَّه يمكن للعقل أنْ يذهب بنا بعيداً، يُصبح بعدها من الأساسي القيام بقفزة وجودية نحو الظلام). يمكنكَ أنْ تعرف كل ما يمكن معرفته كاختصاصيّ في الأدب الألماني عن *«سوناتات إلى أورفيوس»*[١٣]، لكنَّ هذا ليس ضماناً أنها لن تترك لديك إحساساً بارداً.

لا ينبغي على أيٍّ من هذا أنْ يُثير استغراب عالِم مثل دوكينز. وأنا أعتبر أنَّ العلماء بمعنى هامّ مؤمنون ومحبّون للجمال. إنَّ كل تواصُل يتضمَّن إيماناً؛ في الحقيقة، إنَّ بعض اللغويين يرون العوائق المُحتَمَلة التي تقف في وجه الفهم اللفظي من الكثرة والتنوُّع بحيث إنَّ من قبيل

١٣- *«سوناتات إلى أورفيوس»*: مجموعة قصائد للشاعر الألماني رينر ماريا ريلكه (١٨٧٥ - ١٩٢٦). - المترجم

Tele: @Arab_Books

المُعجزة الصغيرة أنه يحدث أصلاً. وبما أنَّ العقل في الأساس جدليّ، فإنه، أيضاً، مسألة تواصُل، وبالتالي ينطوي على نوع من الإيمان. ولا معنى في التلويح هكذا ببساطة بالدليل إلّا إذا كان لديك قدرٌ من الثقة في أولئك الذين جلبوه، أو قدر من المعايير لِما يُعتَبَر دليلاً موثوقاً، وناقشته مطوّلاً مع العارفين به.

إنَّ المُلحد اليميني ألان باديو، الذي بوصفه أعظم فيلسوف فرنسي حيّ يكاد يكون مجهولاً لدى العالَم الأكاديمي الإنكليزي، يفهم هذا بصورة أفضل بكثير من نظرائه العقلانيين الليبراليين الأنغلو-سكسونيين. إنَّ باديو يُدرك أنَّ الحقيقة التي تنطوي عليها أفعال الإيمان ليست حقيقة افتراضية مستقلة ولا اختُزِلَتْ إليها[١٤]. إنَّ الإيمان بالنسبة إليه يتألّف من الولاء العنيد لِما يُسميه بالـ «حَدَث» – أيّ حدث أصيل بكل معنى الكلمة خارجَ تماماً عن الدفق السلس لمجرى التاريخ، لا اسم له ولا يمكن فهمه ضمن السياق الذي يظهر فيه. إنَّ الحقيقة هي ما ينفذ في قلب العالم، وينفصم عن الشريعة القديمة ويؤسس واقعاً جديداً راديكاليّاً. إنّ مثل «أحداث الحقيقة» الخطيرة هذه تظهر بأشكال وأحجام متنوعة، بدءاً من انبعاث يسوع (الذي لا يؤمن به باديو البتّة) فالثورة الفرنسية، ولحظة ظهور التكعيبية، ونظرية مجموعة كانتور[١٥]، وتأليف شونبرغ[١٦] الموسيقي، والثورة الثقافية الصينية، والسياسة النضالية في عام ١٩٦٨.

١٤- انظر ألان باديو، ***«Being and Event»*** (لندن: دار كونتينوم، ٢٠٠٥).

١٥- نظرية مجموعة كانتور؛ أو مُفارقة كانتور: نظرية رياضية وضعها العالم الرياضي الألماني غيورغ كانتور (١٨٤٥- ١٩١٨) – المترجم

١٦- أرنولد شونبرغ (١٨٧٤- ١٩٥١): مؤلف موسيقي أميركي من أصل نمساوي، يهودي. ابتكر تأليفاً في الموسيقى من دون اللجوء إلى المقامات الموسيقية المعروفة، معروف باسم قواعد السلسلة النغمية. – المترجم

Tele: @Arab_Books

بالنسبة إلى باديو، إنَّ المرء يُصبح عضواً إنسانيّاً أصيلاً، كنقيض لمجرد عضو نكرة في النوع البيولوجي، عبر ولائه الشديد لمثل ذلكَ الوحي. وليس هناك حَدَث حقيقة من دون أنْ يقوم ذلك العضو بعمل حاسم (وحده عضوٌ يستطيع أنْ يؤكّد أنَّ مثل ذلك الحدث الحقيقة قد وقع فعلاً)، وهذا لا يعني أنَّ تلك الأحداث هي مجرد أحداث ذاتيّة. ولكن أيضاً لا يوجد هناك عضو إلّا ذاك الذي وُلِدَ بفعل إخلاصه لهذا الكشف. إنَّ الحقائق truths والأعضاء يولدون بعمل مفاجئ. وما يُحفِّز عضو على الوجود بالنسبة إلى باديو هو حقيقة خاصة جداً، واستثنائية، تنتج عن عمل التزام يولَد فيه العضو. ويتذكّر المرء الكلمة الإنكليزية «troth»، التي تعني معاً الإيمان والحقيقة. لكن كلمة الحقيقة هي أيضاً مسألة تضامن، وتنطوي عادة على مولد مجتمع مؤمن كالكنيسة. هذا الالتزام يُنتج نظاماً جديداً من الحقيقة، وكلمة أخلاقي تعني بالنسبة إلى باديو الإخلاص لهذه الحقيقة. وحدث الحقيقة، كالنعمة الإلهية، يمثّل دعوة مُتاحة للجميع. وقبل وجود الحقيقة، نحن جميعاً سواسية.

إنَّ أحداث الحقيقة تلك بالنسبة إلى باديو حقيقية بقدر كاف – بل إنها حقيقية أكثر من المجموعة البائسة من الأوهام المعروفةً عموماً بأنها وقائع. لكنها ليست واقعية بمعنى أنها لا «تنتمي» إلى الأوضاع التي نتجت عنها، ولا يمكن أخذها بعين الاعتبار إلى جانب عناصر أخرى في هذا السياق. إنَّ البعث بالنسبة إلى المسيحيين ليس مجرد كلمة مجازيّة. إنه حقيقة تامة، ولكن ليس كما لو أنكَ التقطتَ صورة فوتوغرافية له وأنتَ تتلطى خلف جدث المسيح حاملاً آلة تصوير كوداك. إنَّ المعاني والقيم أيضاً حقيقية، ولكن أيضاً لا تستطيع أنْ تلتقط لها صوراً فوتوغرافية. إنها حقيقية بالمعنى نفسه الذي تصف به قصيدة بأنها حقيقية. وكالأشياء النادرة الموجودة في الفضاء، أو

Tele: @Arab_Books

المجموعات الرياضية التي تنتمي حصراً إلى نفسها، فإنَّ الأحداث كما يصوّرها باديو هي نوع من المستحيل عندما يُقاس بمقاييسنا المعتادة للأشياء العادية. ولكن على الرغم من أنَّ أفكاره يمكن أنْ يعتبرها أمثال ديتشكينز في هذا العالم رطانة باريسية، يعتبر باديو نفسه مفكّراً تنويريّاً، يحشد موارد العِلم، والمساواة، والعالمية لكي يُكافح ما يُسميه «خزي الخرافة».

لقد أُتيحَ لي في موقع آخر أنْ أنتقد أفكار باديو[١٧]. إنَّ هذه النظرية تعاني من عدد مرعب من المشاكل. لكنَّ باديو يفهم النقطة الحيوية القائلة إنَّ الإيمان يُبيّن التزاماً نابعاً عن حب قبل أنْ يُعتَبَر وصفاً للأشياء كما هي. من الواضح جداً أنه يتضمّن أيضاً وصفاً للأشياء كما هي، تماماً كما الحقائق الأخلاقيّة المُلحّة. ولا فائدة من إصدار أوامر عليا ضد السرقة إنْ كانت الممتلكات الخاصة ممنوعة. إنَّ القطب الشمالي ليس في حاجة إلى سن قوانين ضد الهجرة. كل ما في الأمر أنَّ الإيمان لا يمكن اختزاله إلى المُصادقة على افتراضات معيَّنة لا يمكن البرهان عليها. إنَّ ما يُحرِّك الناس بحيث يُؤمنون، فلنقُل، بإمكانية وجود مجتمع غير عنصري هو مجموعة من الالتزامات، وليس في المقام الأول مجموعة من الافتراضات، يجب أنْ يكون لديهم أصلاً قدرٌ من الولاء لفكرة العدالة، ولإمكانية تحقيقها، إذا أُريدَ تحفيزهم إلى العمل بمعرفة أنَّ الرجال والنساء لا يُقبَلون في سوق العمل بسبب لون بشرتهم. إنَّ المعرفة بحدّ ذاتها لا تكفي لفعل ذلك.

يقول كيركغارد في كتابه «*The Sickness unto Death*»: «إنَّ المؤمن هو، قبل أيّ شيء، إنسان عاشق»، وهذا ادّعاء لا ينطبق

١٧- انظر تيري إيغلتُن، «***Trouble With Strangers***» (أوكسفورد: دار ويليبلاكويل، ٢٠٠٨)، الجزء ٣، الفصل ٩.

Tele: @Arab_Books

بأيّ حال فقط على المؤمنين في الدِّين. إنَّ العقل، بالنسبة إلى القديس أنسيلم، يمدّ جذوره في الله، بحيث لا يمكن للمرء أنْ يبلغه بصورة تامة إلّا عبر الإيمان. وهذا جزء مما يعني بإقراره المُشدَّد «أنا أؤمن لكي أفهم» – افتراض يمكن أنْ يُطبَّق، بمعنى مختلف، على مؤمنين أمثال الاشتراكيين ومناصري حقوق المرأة. ولأنك مهتم بحماس بتحرير المرأة، يمكنك أنْ تتوصل إلى فهم أفضل للنظام الأبويّ. أو أنك لا تُبدي أيّ اهتمام. إنَّ التفكير يحصل ضمن حدود ما يُشبه الإيمان، الانجذاب، الميل، التوجُّه، النزوع، أو التزام سابق. وكما يقول باسكال، إنَّ القديسين يعتقدون أنَّ علينا أنْ نحب الأشياء قبل أنْ نعرفها، ربما لأنه فقط من خلال انجذابنا إليها نستطيع أنْ نتوصل إلى معرفتها بصورة تامة[١٨]. وبالنسبة إلى أوغسطين والأكويني، الحب هو شرط الحقيقة المُسبَق: إننا نسعى وراء الحقيقة لأنَّ أجسادنا المادية تكشف عن رغبة داخلها، هائلة، فيها، رغبة هي تعبير عن توقنا إلى الله. إنَّ براهين الأكويني الشهيرة على وجود الله بالتفكير في الكون تفترض مُسبقاً إيماناً به. ونيَّتها ليس إثبات وجود الله كما يُثبت المرء وجود كوكب لم يكن مُكتَشَفاً، بل أنْ تبيِّن للمؤمنين كيف يمكن لإيمانهم أنْ يكون له معنى في العالم الطبيعي.

إذن الإيمان بالنسبة إلى الأرثوذكسية المسيحية هو ما يجعل المعرفة الحقيقية ممكنة، وهذا يصحّ أيضاً بقدرٍ ما على الحياة اليومية. وهناك تشابه بعيد بين هذا وادّعاء فلاديمير لينين بأنَّ النظرية الثورية لا يمكن أنْ تكتمل إلّا على أساس حركة ثورية شاملة. إنَّ المعرفة تُحصَّل عبر

١٨– انظر جان–إيف لاكوست، «Perception, Transcendence and the Experience of God»، في كتاب ***Transcendence and Phenom-enology***، تحرير بيتر م. كاندلر الابن وكونور كننغهام (لندن: دار أتلانتيك ن ٢٠٠٧)، صفحة ٥. سوف نشير إلى هذا العمل أكثر بين أقواس بعد المقتطفات.

Tele: @Arab_Books

الانهماك الحيوي، والانهماك الحيوي يتضمَّن الإيمان. إنَّ الإيمان يُحفِّز العمل، دون أدنى شك؛ ولكن بأحد المعاني تستطيع أيضاً أنْ تُبرز معتقداتك عبر عملك. وزيادة على ذلك، ولأنَّنا نفهم المعرفة بالدرجة الأولى على أنها معرفة الأشياء وليس معرفة الأشخاص، نفشل في أنْ نلاحظ طريقة أخرى يتضافر بها الإيمان مع المعرفة. وبالإيمان بشخص ما فقط نستطيع أنْ نُخاطِر بكشف دخيلتنا له أو لها بصورة كاملة، وبهذا نجعل التعرُّف الصحيح علينا أمراً ممكناً. إنَّ الوضوح هنا مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتوفُّر، وهذه فكرة أخلاقية. وهذا أحد المعاني التي تجتمع فيها المعرفة مع الفضيلة. كما يوبِّخ الدوقُ لوتشيو الشائن في مسرحية «*Measure for Measure*» قائلاً: «إنَّ الحب مزوَّد بأفضل معرفة، والمعرفة بأعزّ حب» (الفصل ٣، المشهد ٢)

في الختام، وحده الحب (الذي يُعتَبَر الإيمان شكلاً خاصّاً له) يمكنه أنْ يُحقق الهدف شبه المستحيل في رؤية وضع ما كما هو فعلاً، بعيداً معاً عن المفاتن الهشّة للروايات الرومانسية والأوهام المشوَّشة للرغبة. إنَّ الواقعية الهادئة، والرصينة، التي يتّسم بها هذا النوع تتطلَّب أنواع الفضائل كافة – الانفتاح على ارتكاب الخطأ، والإيثار، والتواضُع، وسماحة الروح، والعمل الكادح، والتماسُك، والاستعداد للتعاون، والحُكم النابع عن ضمير حيّ، وما شابهها؛ وبالنسبة إلى الأكويني، الفضائل كلها تستقي منبعها من الحب. الحب هو الشكل الأسمى للواقعية المُجرّدة برصانة من الأوهام، ولهذا هي توأم الحقيقة. والاثنان يشتركان أيضاً في أنهما معاً في المعتاد مكروهان. إنَّ الراديكاليين يشكون في أنَّ الحقيقة في العموم مرغوبة أقلّ مما يريدنا أصحاب النفوذ أنْ نعتقد، وقد رأينا توّاً إلى أين يمكن لحبٍّ أنْ يودي بك بالنسبة إلى العهد الجديد. وفي أحد معاني الكلمة، غياب الشغف يعني موت المعرفة، ولكنها ليست كذلك بمعنى آخر. إننا من

Tele: @Arab_Books

دون نوع من الرغبة أو الانجذاب لن ننهض ونجاهد لتحصيل المعرفة في المقام الأول؛ ولكن لكي نحصّل المعرفة الحق علينا أيضاً أنْ نبذل أقصى جهدنا للتغلب على إشراك الرغبة وخدعها. يجب أنْ نحاول ألّا نشوّه ما نكافح لمعرفته من خلال الوهم، أو أنْ نختزل موضوع المعرفة إلى صورة ذواتنا النرجسية.

في هذه الأيام هناك أولئك الذين يعتبرون الإيمان بالاشتراكية شيئاً أشدّ غرابة من الإيمان الدخيل بأنَّ مريم العذراء المباركة قد صعدت جسداً وروحاً إلى السماء. فلماذا إذن لا يزال بعضنا يتشبّث بهذا الإيمان السياسي، خلافاً لما يعتقده الكثيرون بأنه عقل ودليل صلب؟ ليس فقط، في اعتقادي، لأنَّ الاشتراكية هي فكرة ممتازة إلى درجة أنها أثبتت باستمرار أنَّ من الصعب تشويه سمعتها، وذلك على الرغم من جهودها الجبارة. بل لأنَّه أيضاً لا يمكن للمرء أنْ يقبل أنَّ هذا – العالم الذي نراه يئنّ من الألم من حولنا – هو الطريقة الوحيدة التي يمكن بها للأشياء أنْ تكون عليه، على الرغم من أنّ هذا قد يكون الحال فعلاً، عمليّاً؛ ولأنَّ المرء يُحدّق بانشداه متسائل إلى هذه الأنماط العمليّة التي تعتبر هذا كله جيداً، بوجود مُصلح مُضطرب أو اثنين؛ ولأنَّ التنازل عن هذه الرؤيا يعني خيانة ما يشعر المرء أنها أشدّ القوى الإنسانية والقُدُرات نفاسة؛ ولأنه مهما بذل المرء من جهد فإنه يعجز ببساطة عن التخلص من الاعتقاد البدائي بأنَّ ليس هكذا ينبغي أنْ يكون عليه الحال، ومهما بلغ وعينا بأنَّ هذه الرؤية للعالم على ضوء يوم القيامة، كما يمكن لوالتر بنجامن أنْ يقول، هي حماقة بالنسبة إلى أصحاب البنوك وعائق كبير في طريق سماسرة البورصة؛ ولأنَّ في هذه الرؤيا شيئاً يلامس أعماق الكيان ويُثير هناك موافقة حماسية؛ ولأنَّ عدم الشعور بهذا يعني ألّا تكون نفسك؛ ولأنَّ المرء يُفرط في حب هذه الرؤيا عن البشرية بحيث لا يمكن أنْ يتنازل، أو يبتعد، أو يقبل الرفض جواباً.

Tele: @Arab_Books

لا شيء من هذا يُناقض العقل - كما هو الحال، مثلاً، إذا تحول العالم إلى أرض يباب بسبب القنبلة النووية، أو إذا كانت الاشتراكية قد رسَخَتْ دون حتى أنْ نلاحظ ذلك. كل ما في الأمر أنَّه نوع مختلف من الملاحظة العلمية أو معلومة يومية - كاختلاف إيمان ديتشكينز بقيمة الحرية الفردية عن مثل هذه الأشياء. إنَّ ديتشكينز يعجز عن تبرير هذه المعتقدات علميّاً، ولا يوجد أيّ سبب مهما كان يدفعه إلى فعل ذلك. وهذا لا يوحي، طبعاً، بأنه مُعفى من إقامة الدليل عليها. إننا نعتنق الكثير من المعتقدات التي ليس لها أيّ مُبرِّر لا يرقى إليه الشك، لكنها مع ذلك عقلانية ويمكن اعتناقها. في الحقيقة، إنَّ المُعادين للأساسيين[١٩] سيدّعون أنَّ لا شيء مما ندّعي من معتقدات أو معرفة يمكن تبريره بصورة صلبة. وإذا كان البرهان يعني أيّ شيء يُجبِر على الموافقة، فإنه قصير الأمد بصورة صارمة. إنَّ توماس الأكويني لم يؤمن حتماً بأنَّ وجود الله بديهيّ.

ولكن لا حاجة إلى القول إنَّ هذا لا يعني أنَّ معرفتنا وإيماننا بأكملهما وهم. إنَّ النهَم إلى التبرير المُطلَق هو مرض عصبيّ، وليس عناداً يُثير الإعجاب. والأمر أشبه بالتأكّد كل خمس دقائق من عدم وجود مكمن لأفعى كوبرا تُصدر فحيحها في سريرك، أو كالرجل في كتاب فيتغنشتاين *«Philosophical Investigations»* الذي يشتري نسخة ثانية من الصحيفة اليومية لكي يتيقَّن من أنَّ ما قالته النسخة الأولى صحيح. إنَّ على التبريرات أنْ تنتهي عند مآلٍ ما؛ والمآل الذي تنتهي عنده عموماً هو نوع من الإيمان.

سوف يبدو أنَّ كريستوفر هيتشنز يُبدي اعتراضه على مسألة التبرير

١٩- الأساسيون: نسبة إلى مذهب الأساسيّة Foundationalism: وهو إحدى نظريات المعرفة التي تقول إنَّ المعتقدات يمكن تبريرها بما يُسمّى معتقدات أساسيّة basic beliefs أو foundation beliefs. - المترجم

Tele: @Arab_Books

هذه. إنه يكتب قائلاً عن المُلحدين أمثاله في كتابه «*God Is Not Great*»، «إنَّ معتقدنا ليس مُعتقداً؛ ومبادئنا لا تشكّل ديانة»[٢٠]. إذن الإنسانيّة الليبرالية ضمن تشكيلة ديتشكينز ليست مُعتقداً. إنها لا تتضمن، على سبيل المثال، أية ثقة في عقلانية الرجال والنساء أو رغبة في الحرية، ولا قناعة بوجود شرور الاستبداد والقمع، ولا إيماناً مشبوباً بأنَّ الرجال والنساء يكونون في أحسن أحوالهم عندما لا يرزحون تحت عبء الخرافة والتطيُّر. إنَّ هيتشنز واضح عندما يقول إنَّ ليبراليين علمانيين أمثاله (إننا نتلطّف هنا ونستبعد رفيق سفره الذي ينتمي إلى المُحافظين الجُدد) لا يعتمدون «فقط على العلم والعقل»، إذن هو لا يُقارن بين الاعتقاد وافتراضات على أساس علمي. إنَّ ما يفعله حقّاً هو مقارنة معتقداته هو بمعتقدات أناس آخرين. ويقول: «إننا [معشر الليبراليين] لا نثق في أيّ شيء يتناقض مع العلم أو يزدري العقل». إنَّ معظم المسيحيين لا يعتقدون في الواقع أنَّ إيمانهم يتناقض مع العلم – على الرغم من أنه من المقبول الادّعاء أنَّ العلم يتناقض بصورة ما مع نفسه طوال الوقت، وهذا يُعرَف بأنه تقدُّم علميّ. إنَّ هيتشنز يفشل في التمييز بين المعتقدات العقلانية وتلك اللاعقلانية. واعتقاده بأنَّ على المرء ألّا يثق في أيّ شيء يهين العقل هو أحد الأمثلة على الاعتقاد العقلاني، في حين إنَّ اعتقاده بأنَّ كل معتقد أعمى هو مثال على أنه لاعقلاني.

لا نستطيع القول بالضبط إنَّ ديتشكينز يتلهَّف إلى الإشارة إلى العديد من الفرضيات العلمية التي جمعها بثقة أسلافنا وانهارت وأضحت هباءً، ومدى احتمال أنْ تلقى المصير نفسه معظم المعتقدات العلمية

٢٠- كريستوفر هيتشنز، «***God Is Not Great***» (لندن: دار أتلانتيك، ٢٠٠٧) صفحة ٥. وسوف نورد المزيد من هذه الإشارات بين أقواس بعد إيراد المقتطفات.

Tele: @Arab_Books

العزيزة علينا في هذه الأيام. أما عن ازدراء العقل، فهناك الذين يعتبرون دعم هيتشنز الفظ لغزو الولايات المتحدة للعراق هو كذلك بالضبط. (إنَّ دوكينز، لصالحه، يُناهض الحرب بقوة). والغريب أنه عندما يتعلَّق الأمر بذلك الغزو، فإنَّ هذا الصحفي الثرثار، المتعوِّد على بث آرائه حول كل شيء بدءاً بالأم تيريزا وانتهاءً بحياة المقاهي في طهران، يُصاب فجأة بنوبة من الحياء. ويُخبرنا «لن أتّخذ موقفاً من الإطاحة بصدّام حسين في نيسان ٢٠٠٣» (٢٥). ولِمَ لا؟ إلّا أنه، مع ذلك، يناقش أمر الحرب قليلاً، مارّاً بدبلوماسيّة على مواضيع مثل الأعمال الوحشية أو عطش الغرب الذي لا يرتوي إلى النفط.

ويُبلغنا هيتشنز أنه يعتبر آراءه الماركسية السابقة «مسألة إيمان» (١٥١)، ويتركنا نتساءل إنْ كان في ذلك الوقت آمن بأنَّه يمكن تبرير الجور علميّاً. حتى أشدّ الماركسيين يقيناً قد يَجفُل لدى سماع هذه الفكرة. (وعلى الرغم من أنه لم يعُد ماركسيّاً إلّا أنه يشعر، كما يُخبرنا، بأنه «ليس أقلّ راديكاليّة» مما كان حينئذ (١٥٣)، وفكرته هذه عن نفسه يشترك فيها مع عدد من الناس أقلّ ممَّن يشكون في أنَّ كيت وينزلت[٢١] هي المسيح الدجّال). ولاحقاً يُشير مُنتقصاً إلى «المؤمنين» (٢٣٠)، دون أنْ يعي، كما يبدو، بوصفه بطل حرية التعبير والعدوان الاستبدادي، اللذين لا يمكن عرضهما في المُختَبَر كبضائع صريحة، أنه هو نفسه يجب أنْ يندرج منطقيّاً تحت هذا الوصف. إنه يضع نفسه وسط هذه الفوضى العقلية الهزلية المعتدلة لأنه يبدو أنه يفترض أنَّ كل إيمان هو إيمان أعمى. ويتساءل المرء ما إذا كان هذا ينطبق على الإيمان بأصدقائه أو أطفاله. إنَّ كثيراً من الناس لديهم إيمان أعمى بأولادهم. وهذا خطأ. فالمرء لا يمكن أنْ يستبعد مُسبقاً إمكانية

٢١- كيت وينزلت: الممثلة السينمائية المعروفة، بطلة أفلام مثل «**تايتانك**» و«**لغز**» - المترجم

Tele: @Arab_Books

أنْ يكون ابنه ذا السنوات الأربع عشرة قاتلاً متسلسلاً. عليكَ أنْ تكون في المبدأ منفتحاً على هذه الإمكانية، أنْ تُقدِّم الدليل عندما يُطلَب منكَ ذلك، وإذا بدا أنَّ القضية لا لبس فيها، أنْ تكفّ عن الإيمان به. إنَّ مجرد حقيقة أنه ابنك لا يُغيِّر شيئاً. فالقتلة المتسلسلون كلهم أبناءٌ لآباء.

إنَّ أصحاب المذهب الإنساني يختلفون عن المؤمنين دينيّاً، كما يُخبرنا كتاب «*God Is Not Great*»، لأنه ليس لديهم «نظام إيمان راسخ» (٢٥٠). وعليه، يُدرك المرء أنَّ هيتشنز على استعداد في كل لحظة أنْ يتخلّى عن إيمانه بالحرية الإنسانية، إلى جانب امتعاضه من المُستبدين السياسيين ومُفجري القنابل الانتحاريين الإسلاميين. وطبعاً، في الحقيقة، يتّضح أنه شكوكيّ عندما يتعلَّق الأمر بعقائد الآخرين وأنه مؤمنٌ حقّاً عندما يتعلّق الأمر بمعتقده هو. وبالمناسبة، لا عيب في المُعتقَد، الذي يعني ببساطة «أشياء تُعلَّم». إنَّ المبادئ الليبرالية كالحرية والتسامُح هي عقائد، وليست أسوأ في هذا المجال. ومن قبيل المُفارقة، ببساطة، إنه يجب أنْ يكون هناك جانب ظلاميّ في الفكر المُنفتح وجانب متعنّت في التسامُح. والليبرالية لا تستطيع أنْ تكونَ مفرطة عندما يتعلَّق الأمر بمبادئها الأساسية، وهذا أحد الأسباب الذي يجعل الغرب حائراً بين أنْ يُعامل أعداءه من غير الليبراليين بإنصاف أو يسحقهم. وكما قال رئيس الوزراء البريطاني توني بلير في تحليل ذاتيّ شهير: «إنَّ تسامُحنا هو جزء من كينونة بريطانيا. فإما أنْ تتواءم مع هذا، أو لا تأتي إلى هنا». إنَّ هيتشنز يكره الذين «***يعلمون*** أنهم على حق» (٢٨٢)، لكنه في معظم الأحيان يبدو هو نفسه أقرب شبهاً بهم. بالنسبة إليه الادّعاء بأنَّ اعتناقه للقيم الليبرالية-الإنسانية مؤقّت هو إيمان سيئ. إنه ليس كذلك أبداً، وليس هناك سبب واحد على الأرض يجعله كذلك. ثم إنه إنْ كان يكره الذين يدّعون أنهم

Tele: @Arab_Books

يعرفون كل شيء، فما تفسيره لانضمامه إلى بعض من تلك الجماعة من المتطرفين المعروفين باسم المُحافظين الجُدُد؟

لقد كنتُ أدرسُ، من بين أشياء أخرى، بعض الطرق التي لا تنحدر بها مَلَكة العقل. على سبيل المثال، إننا في حاجة إلى الالتزام بالعقل نفسه، وهذا بحد ذاته ليس انتقاصاً للعقل. ونستطيع دائماً أنْ نتساءل، لماذا ينبغي اعتبار اكتشاف الحقيقة، في المقام الأول، مرغوباً جداً. لا شك في أنَّ هذا لم يكن اعتقاد نيتشه، في حين إنَّه كانت لدى هنريك إبسن وجوزيف كونراد شكوك حول ذلك. أيّة ضغينة، وحقد، وقلق، أو رغبة في الهيمنة، بحث نيتشه فيها، تكمن خلف هذه الإرادة العنيدة لبلوغ الحقيقة؟ ويكتب دان هيند قائلاً: «لم يعد هناك أساس واقعي للادّعاء بأنَّ أمامنا واجباً أخلاقيّاً في اكتشاف الحقيقة والتشارُك فيها، تماماً كما أنّه لا أساس للادعاء بأنَّ يسوع كان ابن الله»[٢٢]. وإذا أردنا أنْ ندافع عن العقل، فعلينا أنْ نستمد إلهامنا من أكثر من العقل. وليس بديهيّاً بالنسبة إلى سوريل[٢٣] أو شوبنهاور أنه يجب مكافأة العقل.

هناك نزاعات مشروعة حول طبيعة العقلانية نفسها وحالتها، البعيدة كلّ البُعد عن تضمُّن الاستسلام للاعقلانيّة - كالتساؤل مثلاً، إلى أيّ مدى يستقطب العقل الجماليّ، والخياليّ، والبديهيّ، والحسيّ والفعّال؟ بأيّ معنى قد يكون حواراً؟ ما هو الذي يُعتَبَر أساساً عقلانيّاً؟ وإنْ كان العقل يتضمَّن أصلاً قيم الحرية، والاستقلال وتقرير المصير؟ وإنْ كان جوهريّاً أم إجرائيّاً، بديهيّاً أم قابلاً للنقاش، أداتيّاً

٢٢- دان هيند، من كتابه «***The Threat to Reason***» (لندن: دار فرسو، ٢٠٠٧)، صفحة ٦٤.

٢٣- المقصود هنا هو الفيلسوف الفرنسي جورج سوريل (١٨٤٧ - ١٩٢٢). كان يرى أنَّ الاشتراكية لا تتحقق إلا من خلال إضراب عام، وأنَّ هناك حاجة إلى أسطورة للسيطرة على جمهور الناس، من قِبَل الفاشيين. - المترجم

Tele: @Arab_Books

instrumental أم هادفاً؟ وقد نتساءل إلى أيّ مدى يمثّل بطبيعته الكُليّة، التفسيريّة نسخة مُعدَّلة من الميثولوجيات التي سعى تاريخيّاً إلى أنْ يحلّ محلها؟ وما إنْ كان سيُشكّل في المقام الأول على أساس معرفتنا بالأشياء أم بالأشخاص؟ وأية صلات تُقيمها الذات العقلانيّة بالأنا العُليا وبالعمليات الأساسية؟ وقد نتساءل أيضاً ماذا نستنتج من حقيقة أنه حتى قبل أنْ نبدأ بالتفكير بصورة لائقة، فإنَّ العالم في المبدأ جليّاً في المقام الأول؟ وفيما إذا كان صحيحاً أننا نفكر كما نفعل بسبب ما نفعل، وفيما إذا كان ينبغي ربط العقل بالحس السليم والاعتدال، كما يفعل عقلانيون ليبراليون أمثال ديتشكينز، أم بالثورة، كما فعل جون ملتون وجاكوبنز. وهناك أسئلة حول ما إذا كان العقل لا يُحلِّق إلّا عند الغسق؛ وما إذا كان ينبغي مقارنته بطبيعتنا الحيوانية أم يجب أنْ يُنظَر إليه كجزء مُكمِّل لها، وما إلى ذلك.

ويقتطف دنيس ترنر من الأكويني قوله: «إنَّ العقلانيّة هي شكل حيوانيتنا... واللاجسد هو مادة كينونتنا العقلية»[٢٤]. واللاهوت بهذا المعنى هو نوع من المذهب المادي. إننا نفكّر لأننا مخلوقات مادية. ونحن عاقلون ***لأننا*** حيوانات، وليس على الرغم من كوننا كذلك. ولو استطاع ملاكٌ أنْ يتكلَّم، لما تمكّنا من فهم ما قال. من الصعب أنْ نشعر بأنَّ مثل هذه الاعتبارات تقع في الجهة الأمامية من مخّ ريتشارد دوكينز، الذي يتصف برضا العقلانيّ عن ذاته الذي شنّ عليه جوناثان سويفت هجوماً عنيفاً. ولا يقل عن ذلك صعوبةً شعورنا بأنَّ ريتشارد دوكينز فكّر فيها مُطوّلاً، وهو الذي يشعر، بوصفه صحفيّاً ممتازاً ولكنه مُنظِّر لامبالٍ، بتآلُف مع سياسة زيمبابوي أكثر من تآلفه مع الأفكار المُجرَّدة.

٢٤- دنيس ترنر، من كتاب «**Faith, Reason and the Existence of God**» (كمبريدج: كمبريدج يونيفرسيتي بريس) صفحة ٢٣٢.

Tele: @Arab_Books

في مسرحية روبرت بولت «*A Man for All Seasons*»، يُقدِّم توماس مور دفاعاً عقلانيّاً كاثوليكيّاً جداً، مُعلناً أنَّ الله خلق الإنسان ليخدمه «في سلامة عقله وفي ارتباكه». وعندما تُقدَّم نسخة جديدة من قَسَم الولاء للملك، يسأل مور ابنته عن الصياغة الدقيقة لتلك الكلمات. فتُجيب بنزَق: «وما أهمية ذلك؟»، متّخذةً موقفاً من «روح» أو مبدأ الوثيقة. فيُجيب مور عن هذا بلهجة بابوية نموذجية، وبأسلوب مادي-تحذيريّ: «إنَّ القَسَم مُؤلَّف من كلمات. قد أتمكَّن من قبوله». ومع ذلك فإنَّ مور هذا نفسه يقول، عندما توبّخه ابنته لغياب العقل ورضوخه للملك: «حسن، في نهاية المطاف إنَّ الأمر لا يتعلَّق بالعقل. في نهاية المطاف هي مسألة حب». في نهاية المطاف تنتهي العقول. ولكن من الآن وحتى تحل نهاية المطاف وقت طويل.

بالنسبة إلى الفيلسوف فيخته، الإيمان (ولكن ليس النوع الديني) هو سابق وأساس كل معرفة. وبالنسبة إلى هايديغر وفيتغنشتاين، تعمل المعرفة ضمن نطاق الافتراضات الكامنة في ارتباطنا العمليّ الوثيق بالعالم، الذي لا يمكن بالضبط أنْ يُشكَّل أو يُنظَّر. وفي كتابه «*On Certainty*»، «إنَّ ما يكمن في عمق ألعابنا اللغوية هو أفعالنا»[٢٥]. إنَّ البراعة تسبق المعرفة. وتنظيرنا كله قائم، وإنْ بصورة بعيدة، على أساس صِيَغنا العملية في الحياة. وبعض مفكّري ما بعد الحداثة يستنتجون من هذا أنَّ العقل أثقل على داخل أسلوب عيش الحياة بحيث يعجز عن تقديم انتقادٍ فعّالٍ له. وفي رأيهم، إنَّ شروط ذلك النقد لا يمكن أنْ تُستَمَد إلّا من أسلوب المرء الحالي في الحياة ؛

٢٥- لودفيغ فيتغنشتاين، من كتاب «***On Certainty***»، اقتطفها أنتوني كيني، المُحرر في كتاب «***The Wittgensteign Reader***» (أوكسفورد: دار بلاكويل، ١٩٩٤)، صفحة ٢٥٤.

Tele: @Arab_Books

ولكنَّ أسلوب الحياة هذا هو بالضبط ما يسعى النقد إلى تفحّصه. وهكذا فالنقد «الشامل» يمتد بلا حدود، ومعه إمكانية التحوُّل السياسي الراسخ. ولكنَّ المرء لا يحتاج إلى أنْ يكون خارج وضع ما ليُخضعه للنقد. على أية حال، إنَّ التمييز هنا بين كون المرء في الداخل والخارج يمكن أنْ يُفكِّك. إنَّ إحدى سِمات مخلوقات أمثالنا هي أنَّ قُدرتنا على النأي بأنفسنا نقديّاً عن العالم تشكّل جزءاً من الطريقة التي نرتبط بها به.

إنَّ الأفكار اليقينيّة أو الحقائق البديهية التي تغلّفُ تفكيرنا الأكثر رسميّة جليّة في حالة العِلم كما في أيّ مجال آخر. ومن بين الافتراضات التي يُسلَّم بها العِلم بداهة، على سبيل المثال، أنَّ التفسيرات «الطبيعية» فقط ستسود. وقد يكون هذا افتراض حكيم. إنه بلا شك يستبعد الكثير من الهراء الفظيع. لكنه حتماً مُسلَّمة، وليس نتيجة حقيقية يمكن إثباتها. فإذا رأتْ عالمةٌ فجأةً لوسيفر ذا العينين الحمراوين يحدّق إليها بنظرة مُؤذية عبر عدسة مُكبّرة، أو على الأقلّ لمَحَتْه عدداً كافياً من المرات في ظل شروط مُحدَّدة بصرامة، فسوف تكون مُلزَمة بحكمة العلم التقليدية بأنْ تتخلّى عن هذا الافتراض الكافي، أو أنْ تخلُص إلى أنَّ لوسيفر هو ظاهرة طبيعية.

إذن، العِلم يُتاجر ببعض مقالات الإيمان كأيّ شكل آخر من أشكال المعرفة. إلى هذا المدى، على الأقلّ، كانت الأمور تسير لصالح أنصار ما بعد الحداثة المرتابين بالعِلم – على الرغم من أنَّه ينبغي أنْ نضع في أذهاننا أنَّه لطالما تحامل الإنسانيون على العلماء، وفيما يتعلّق بمذهب بعد الحداثة كل ما فعلوا هو أنهم ببساطة بدّلوا مواقعهم. وفي حين إنَّ العلماء تعوّدوا على اعتبارهم أجلافاً لا يستحقون الذِّكر من أيام مرحلة الدراسة المتوسطة تغطي قِشرة الرأس

Tele: @Arab_Books

ياقاتهم ويظنون أنَّ رامبو[٢٦] هو شخصية سينمائية منفوخة العضلات، فإنهم أصبحوا في زماننا هذا القيِّمين المُطلَقين على الحقيقة المُطلَقة. إنهم مُروّجو أيديولوجيا هدّامة معروفة باسم الموضوعيّة، وهي فكرة تُبرز أفكارهم الأيديولوجية المتحاملة المُقنّعة بقِناع من عدم الاهتمام المقبول. ذات يوم كان نقيض العِلم هو المذهبَ الإنساني؛ واليوم أصبح يُعرَف باسم مذهب الثقافة culturalism، وهو مذهب ما بعد حداثي يظهرُ راديكاليّاً في قلب كفاحه العنيف ليكبح الطبيعة أو يستأصِلها.

لا يحتاج المرء إلى أنْ يشترك في هذه المُحاكاة الساخرة لكي يُلاحظ أنَّ العِلم، كأيّ قضية إنسانية أخرى، يمتزج بالتحامُل والمُشايعة، ناهيك عن الافتراضات الضعيفة، والانحرافات غير الواعية، والحقائق البديهية، والمعتقدات شديدة القُرب من العين بحيث لا يمكن أنْ تكون موضوعية. والعِلم، كالدِّين، ثقافة، وليس مجرد مجموعة من الإجراءات والفرضيات. إنَّ ريتشارد دوكينز يُعلن أنَّ العِلم خالٍ من الإثم الأساس الذي هو الدِّين، أي الإيمان؛ ولكن كما يُشير تشارلز تيلر «إنَّ الاعتقاد بأنه لا توجد افتراضات في عمل العالِم لا تقوم على دليل هو حتماً انعكاس لإيمان *أعمى*، إيمان لا ينتابه أدنى ارتعاش عابر من شك»[٢٧]. ولو أنَّ مريم العذراء تجلَّتْ في هذه اللحظة في السماء فوق نيو هيفن، متشبّثة بالطفل الوليد يسوع بيد وتوزِّع باليد الأخرى أوراقاً نقدية بلامبالاة، فإنَّ هذا المشهد سيكون أهم من سمعة أيّ شخص

٢٦- المقصود هنا طبعاً الشاعر الفرنسي رامبو، وليس الشخصية التي يجسّدها الممثل سيلفستر ستالون.

٢٧- تشارلز تيلر، من كتاب «***A Secular Age***» (كمبريدج، ماساتشوستس: بلكناب بريس أوف هارفرد يونيفرسيتي بريس، ٢٠٠٧)، صفحة ٨٣٥. المقتطف من دوكينز أورده تيلر بلا إشارة إلى المصدر.

Tele: @Arab_Books

يكدّ في مختبرات جامعة ييل ويستحق أنْ يُبرز أحدهم رأسه من النافذة ولو برهة.

إذن، لا زال هناك عدد كبير من العدسات المُكبِّرة موجّهة إلى الأعالي يتردَّد العلماء بفظاظة في النظر عبرها. إنَّ للعلم كهنته الكبار، وأبقاره المقدّسة، وكتبه المُبجَّلة واستثناءاته الأيديولوجية، وشعائر لقمع المُنشقين. إلى هذا المدى من السخف أنْ ننظر إليه كنقيض مباشر للدين. وهناك تلك المواضيع التي حسب تعبير فوكو من الناحيةِ العلمية «تقع داخل الحقيقة» في أيّ وقت، وتلك التي ليست كذلك في الوقت الحالي. ويتصادف أني أعلم يقيناً، على سبيل المثال، أنَّ القمر يؤثّر بعمق على السلوك الإنساني، بما أني، بوصفي أنتسب إلى نوع من المجانين المعتدلين، دائماً أعي اكتمال القمر بدراً دون أنْ أنظر (وإنْ كنتُ أضع خطاً على الشّعر النامي أو النابت على وجنتيّ). لكنني أشكّ في أنَّ العلماء الذين يُعظّمون من شأن بديهياتهم المشتركة سوف ينكبّون على البحث في هذه الظاهرة المتميزة والمدعومة بالأدلة. سوف يشبه الأمر ناقداً أدبيّاً ينشر دراسة من ثلاثة مجلدات عن أغنية الأطفال «*Goosey Goosey Gander*».

على الرغم من أنَّ كتاب دوكينز «*The God Delusion*» مُتكتِّم بصورة مدهشة حول الأعمال الخرقاء والكوارث التي تسبَّب بها العلم (إنه يشجب محاكم التفتيش، على سبيل المثال، ولكن ليس قنبلة هيروشيما)، ومُعظمنا يعلم أنَّ العلم، كأيّ مهنة إنسانية مُثيرة للاهتمام بدءاً بالتمثيل المسرحي وانتهاءً بإدارة عجلة الاقتصاد، يعتمد على التخمين، والشك، والخروج عن القياس والاكتشاف بالمُصادفة أكثر مما يود وكلاء دعايته لنا أنْ نعتقد، وأنَّ العديد من ممتهنيه سوف يتمادون إلى أبعاد لا تُصدَّق للمُحافظة على فرضيات مُجرَّبة وموثوقة. وبالمقارنة فإنَّ كتاب «*The God Delusion*» لا ينجح إلّا مرة أو

Tele: @Arab_Books

اثنتين بالإشارة بصورة غامضة إلى أنَّ المشروع الذي آمن به مؤلِّفه بإسراف ليس معصوماً. وكما هو متوقَّع يلزم الصمت أمام الأشياء المرعبة التي يُسببها العلم والتكنولوجيا للإنسانيّة. إنه يُبادلنا محاكم التفتيش بالحرب الكيميائية. لكنَّ القيامة، إذا ما وقعت، فمن المُرجَّح كثيراً أنْ تكون نتاج التكنولوجيا وليس من إنجاز الله القدير. وفي تراث المعجزات الكونيّة التنبئي الطويل، والإشارات النارية التي تظهر في السماء، والنهاية الوشيكة الهائلة، لم يتبدَّ أبداً أننا سنتمكن من إحداث ذلك بأنفسنا، من دون أية مساعدة من الإله الغاضب. يجب أنْ يكون هذا، حتماً، مصدر فخر للمُهللين للأنواع البشرية أمثال ديتشكينز. مَنْ يحتاج إلى إله غاضب يحرق الكوكب في حين إننا، ككائنات بشرية ناضجة، مكتفية ذاتيّاً، قادرون تماماً على القيام بذلك بأنفسنا.

لا ينبغي اعتبار أيّ من هذه التحفّظات حول العلم إساءة إلى ذلك الجهد النابع من الحب، والشغوف، والإيثاري، والأمين، والمُرهِق، والأخلاقي بعمق المعروف بأنه محاولة إصلاح. وفي الحياة السياسية، هو كدٌّ يمكن أنْ يُبيِّن الفرق بين الحياة والموت. وهذا أحد الأسباب الذي يجعل المرء لا يُصادف العديد من الشكّاكين بين المضطهدين. ولكن من المناسب تماماً لهذا الادّعاء القول إنَّ السياسة كلها أساسها الإيمان دون أدنى شك. ومحاولة الإصلاح هي أيضاً مشروع ذو تاريخ دينيّ. ويُشير تشارلز تيلر إلى أنَّ موضوع الحداثة المُستقلّ علميّاً، والنزيه، تعود أصوله حتى التقشّف الديني السابق للحداثة، بما يتّصف من *contemptus mundi* (احتقار للعالم) متحفّظ[٢٨]. هناك إحساسٌ غريب بأنَّ معرفةَ العالم تتضمَّن، بالنسبة إلى هذه النظرية من المعرفة على الأقلّ، نوعاً من رفضه. ومع ذلك، هناك مَنْ يحتاجون، من

٢٨- انظر كتاب تشارلز تيلر، ***«Sources of the Self»*** (كمبريدج: كمبريدج يونيفرسيتي بريس، ١٩٨٩)، الجزء الثاني.

Tele: @Arab_Books

أجل تحرّرهم الخاص ورفاهيتهم، إلى أنْ يعرفوا وضعهم - باختصار، إنَّ الموضوعيّة بأحد معاني هذه الكلمة تعمل بإلحاح لصالحهم. وهناك أيضاً أصحاب الأرواح المُميَّزة، بعضهم معروف باسم ما بعد الحداثيين، ليست لديهم مثل هذه الحاجة، وبالتالي هم أحرار في أنْ يروا الموضوعية وهماً.

إذن فالعلم يتضمَّن الإيمان أيضاً - وليس بهذا فقط يشترك مع اللاهوت. بالأحرى كما أنَّ الكنائس كشفت إلى حدّ بعيد عن رسالتها التاريخية، كذلك فعل جزء كبير من العلم. أنا نفسي كنتُ على مدى عشرين عاماً عضواً في إدارة كلية ويدام، جامعة أوكسفورد، وهي مؤسسة كانت في أواخر القرن السابع عشر بمثابة منزل الجمعية الملكية الشهيرة. وأحد شخصيات الجمعية البارزة، جون ويلكنز، كان مدير الجامعة وصِهر أوليفر كرومويل[٢٩]. وخلافاً لباقي أجزاء أوكسفورد، كانت الجامعة على الجانب التقدُّمي من الحرب الأهلية، وعانت بسبب ذلك. وسياسيو كلية ويدام المستقلون تقليديّاً يمتدون من المتعاطفين مع حزب العمال أمثال زميله في الجامعة فريدريك هاريسون وحلقته من الوضعيين الإنكليز في القرن التاسع عشر، وحتى حركة المُنشقّين بأسلوب بلومسبري التابعة للمدير موريس باورا (الذي اعترف بأنه يزدري العلم) في القرن العشرين. وسوف يُسعدني أنْ أعتقد أنَّ مدرسة إنكليزية راديكالية يمكن إضافتها إلى هذه اللائحة. لقد كان للانشقاق السياسي في ويدام جذور في خطّه العلمي الراديكالي، الذي يضعُ حرية التفكير والبحث فوق الولاء للمطران والملك. إنَّ هذا التاريخ التقدُّمي هو الذي يتعمَّد مُشككو ما بعد

٢٩- أوليفر كرومويل (١٥٩٩ - ١٦٥٨): جنرال وسياسي إنجليزي، وزعيم بيوريتاني. أعدّ للحرب الأهلية. أعلن بريطانيا جمهورية الكومنولث عام ١٦٤٩، ورفع اسم بريطانيا عالياً في أوروبا. - المترجم

Tele: @Arab_Books

الحداثة في العلم تجاهله، لمجرد أنَّ العلم ينتمي إلى تاريخ اجتماعي معيَّن ينساه العقلانيون التجريديون بسهولة كبيرة. وكالدِّين، كشف جزء كبير من العلم عن أصوله الثوريّة، بوصفه الأداة المرنة للشركات المنتشرة خارج الحدود والمُنشآت العسكرية-الصناعية. ولكن ينبغي ألّا يُغرينا هذا بنسيان تاريخه التحرري. وكالليبرالية، والاشتراكية، والدِّين، يقفُ العلم تحت حُكم أفضل تقاليده.

في هذه الأيام، الذين يكرهون الدِّين يفعلون ذلك لأنهم يرتابون أيضاً في الإيمان الراسخ، وليس هذا بالضبط ما وجد فولتير مُهيناً فيه. وفي عصر تعدّديّ، يُعتقَد أنَّ الإيمان الراسخ علي خصام مع التسامُح؛ في حين إنَّ الحقيقة هي أنَّ الإيمان الراسخ يُشكل جزءاً مما يُفترَض بالإنسان أنْ يتسامَح معه، بحيث لا يوجد أحدهما من دون الآخر. إنَّ ما بعد الحداثة تتحسَّس من فكرة اليقين، وتُثير الكثير من الجَلَبة النظريّة حول هذه الفكرة اليومية، المتواضعة. كذلك الأمر، هي تمثّل بصورة ما الجانب القاسي من التطرُّف، الذي يُثير الكثير من الجَلَبة حول اليقين، ولكن بطريقة مقبولة. وبعض فكر ما بعد الحداثة يعتقد أنَّ اليقين كله فاشستي. إنه يشعر بالتوتّر من الذين يبدون ملتزمين بشغف بما يقولون. في هذا المجال، يمثّل من بين أشياء أخرى ردّة فعل مفرطة اتجاه الفاشية والستالينية. إنَّ السياسة الاستبدادية في القرن العشرين لم تشن فقط هجوماً على الحقيقة في زمنها؛ بل ساعدت على نسف فكرة الحقيقة بالنسبة إلى أجيال المستقبل. إنَّ الخط الفاصل بين اعتناق أنواع هدّامة معيَّنة من الإيمان، واعتناق أية أنواع قوية منه، يُصبح غامضاً بصورة خطرة. إنَّ الإيمان الراسخ بحد ذاته مُدان بقدر ما هو دوغماتي.

في الحقيقة يمكن للمعتقدات اليقينية أنْ تدمِّر. ولكنها يمكن أيضاً أنْ تُحرِّر، وهي نقطة بدا أنَّ جاك ديريدا، الذي يمقت بحسّه شبه المَرَضي

Tele: @Arab_Books

كل ما هو مُحدَّد، لم يتمكن من استيعابها. لا شيء استبداديّ في يقينك بأنَّ أجورك قد خُفِّضَتْ. ويعتقد الليبراليون من ناحيتهم أنَّ عليهم أنْ يتحمّلوا معتقدات الآخرين. وفي الإجمال، هم مهتمون بمعتقدات الآخرين أكثر من اهتمامهم بمحتواها. بل يمكنهم أنْ يكونوا أكثر حماسة لقضية معتقدات الآخرين أكثر من معتقداتهم. إنَّ عصرنا على هذا الأساس مُقسَّم إلى أولئك المُغالين في إيمانهم وأولئك المُقصّرين فيه – أو كما قال ميلان كونديرا، بين الملائكة والشياطين[٣٠]. وكل فريق يستمدّ السند من الآخر. إنَّ العصر مُقسَّم بين عقل تكنوقراطي يُخضِع القيمة للواقع، وعقل مُتطرِّف يستبدل الواقع بالقيمة.

إنَّ الإيمان – أيّ نوع من الإيمان – ليس مسألة اختيار في المقام الأول. من الشائع أنْ تجد نفسك تُصدِّقُ شيئاً أكثر من أنْ تتّخذ قراراً واعياً بفعل ذلك – أو على الأقلّ أنْ تتّخذ مثل ذلك القرار الواعي لأنكَ تجد أنكَ تميل إلى ذلك أصلاً. ولا داعي إلى القول إنَّ هذا ليس مسألة حتميّة. بالأحرى هو مسألة كونكَ مُستحوذاً بالتزام لا تستطيع أنْ تتخلّى عنه. إنها ليست مسألة إرادة في المقام الأول، على الأقلّ كما يتصوَّر عصر الحداثة ذلك بافتتان. إنَّ هذه العبادة للإرادة تتميَّز بها الولايات المتحدة. حدودنا السماء، لا تقُل أبداً مستحيل، يمكنكَ أن تكسره إذا حاولت، تستطيع أنْ تفعل ما تريد: هذه هي أوهام الحلم الأميركي. إنَّ الكلمة المُحرَّمة بالنسبة إلى البعض في الولايات المتحدة هي كلمة «لا أستطيع». وغالباً ما يُنظَر هناك إلى السلبيّة باعتبارها نوعاً من الجريمة الفكرية. ولم يشهد العالم مثل هذا التفاؤل المَرَضي منذ مجيء الواقعية الاشتراكية. وينبغي عدم الخلط بين هذا الإيمان الفاوستيّ في قُدُرات الإنسان اللامحدودة وفضيلة الأمل. ولكن ما

٣٠– انظر كتاب تيري إيغلتن «***Sweet Violence: The Idea of the Tragic***» (أوكسفورد: دار بلاكويل، ٢٠٠٣)، الصفحتان ٢٥٨ – ٥٩. – المترجم

Tele: @Arab_Books

دام الإيمان موجوداً سوف يبقى مرتبطاً بصورة زائفة بما يُسمّى أفعال الإرادة، بسوء فهم إرادي لكيفية اكتسابنا عقائدنا الراسخة.

إنَّ الطريقة المسيحية في الإشارة إلى أنَّ الإيمان في نهاية المطاف ليس مسألة اختيار هي فكرة سامية. وكالعالم نفسه من وِجهة نظر مسيحية، الإيمان هِبة. وهذا يعني من بين ما يعني أنَّ المسيحيين لا يفهمون بوعي أسبَاب إيمانهم بالله كلها. ولكن لا أحد يُدرك بوعي أيضاً كل أسباب إيمانه بوجوب المُحافظة على اللياقة البدنيّة، القيمة السامية للفرد، أو أهمية كون الإنسان صادقاً. وحدهم العقلانيون المتفوقون يتصورون أنهم في حاجة إلى أنْ يكونوا كذلك. ذلك أنَّ الإيمان ليس واعياً بصورة كاملة، وليس غريباً التخلّي عنه ببساطة باللجوء إلى التفكير. وينبغي أيضاً تغيير أشياء أخرى كثيرة جداً. وليس أمراً عاديّاً بالنسبة إلى شخص كان مُحافظاً طوال حياته أنْ يُصبح فجأةً ثوريّاً لأنَّ فكرة خطرتْ له. وهذا لا يَعني أنَّ الإيمان عصيّ على البرهان، كما يرى دوكينز خطأً، أو على إنكار أنَّ المرء يمكن أنْ يُغير رأيه فيما يخص معتقداته. قد لا نختار معتقداتنا كما نختار خطوتنا الأولى؛ ولكن هذا لا يعني أننا سجناؤها العاجزون، كما كان يتخيَّل براغماتيون جُدد أمثال ستانلي فيش. إنَّ مذهب الحتميّة ليس البديل الوحيد لمذهب الاختيارية. كل ما في الأمر أنَّ تغيير معتقدات راسخة جداً أعقد من مجرد تغيير الرأي. والعقلانيّ يُخطئ فيعتقد أنَّ صلابة الإيمان (إيمان الآخرين، على الأقل) هي عِناد لاعقلانيّ وليس دلالة على عمقٍ داخليّ معيَّن، عمق يستقطب العَقل ولكن أيضاً يسمو به. ذلك أنَّ بعضاً من التزاماتنا تشكل ذواتنا، ولا نستطيع أنْ نُغيّرها من دون ما تسمّيه المسيحية تقليديّاً الاهتداء، الذي يتضمَّن أكثر بكثير من مجرد استبدال رأي بآخر. هذا أحد الأسباب الذي يجعل إيمان الناس يبدو لاعقلانية صِرفاً، وهو كذلك حقّاً أحياناً.

Tele: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

الفصل الرابع

الثقافة والهمجيّة

لماذا يتحدث فجأة أناسٌ بغيضون، بمَنْ فيهم أنا نفسي، عن الله؟ مَنْ كان يتوقّع أنْ يطل اللاهوت برأسه مرة أخرى في القرن الواحد والعشرين التكنوقراطي، بصورة مفاجئة كالإحياء الجماعي للزرادشتيّة أو للأفلاطونيّة الجديدة؟ لماذا أحْـدَثَ صاحب محل بيعِ الكتب في حيّنا فجأةً قسماً تحت عنوان «الإلحاد»، ولعله الآن يفكر حتى في إحداث آخر تحت عنوان «الشكّاك بالفطرة مع بعض الميول المعمدانيّة المعتدلة»؟ لماذا، ونحن نتقدّم بثقة من عصر ما بعد اللاهوتيّ، ما بعد الميتافيزيقيّ، وحتى ما بعد التاريخيّ، ظهر فجأة من جديد موضوع الله؟ هل يمكن إرجاع ذلك إلى سقوط البرجَين وإلى الإسلاميين المتطرفين؟

لا أعتقد حقّاً أننا نستطيع فعل ذلك، على الأقلّ ليس إلى حدّ بعيد. إنَّ كره ديتشكينز للدين لم ينشأ حتماً من بين أطلال مركز التجارة العالمي. صحيح أنَّ جوانب من المُناظرة استمدّت مدخلها من هناك – وهذه حقيقة مشؤومة، بما أنَّ المناظرة العقلية لا تكون في أحسن حالاتها عندما تنبع من الحزن، والحقد، والهستريا، والمذلّة، وإلحاح الثأر، بالإضافة إلى بعض المخاوف والأوهام العرقيّة الراسخة. لكنَّ

Tele: @Arab_Books

أحداث ٩/١١ لم تكن تتعلّق حقّاً بالدِّين، إلّا بقدر ما يتعلّق بالصراع الطويل الذي دام ثلاثين عاماً الدائر في أيرلندا الشمالية حول معصوميّة البابا. (إنها تقول الكثير عن هوس دوكينز بالدِّين الذي يُرجعه في كتاب «*The God Delusion*» إلى المُغالطة القائلة إنَّ الصراع في أيرلندا الشمالية كان يدور حول نوع من الإيمان المسيحي). إنَّ فهم الإسلام الراديكالي في العموم يقلّ باطّراد لإيمانه الديني، وهناك دليل دامغ، كما رأينا، يوحي بأنَّ أفعاله في معظمها لدوافع سياسية.

هناك أيضاً أسباب أخرى للشك في هذه الفرضية المرتجلة. فمن ناحية، إنَّ التطرّف الإسلامي يواجه الحضارة الغربية ليس فقط بالدم والنار، بل بالتضارُب بين حاجة الغرب إلى الإيمان وعجزه المُزمن عن فعل ذلك. إنَّ الغربِ الآن يقف وجهاً لوجه مع عدو«ميتافيزيقي» في كامل عنفوانه لا تشكّل بالنسبة إليه الحقائق والأُسس المُطلقة أية مشكلة (ويتمنى لو أنها فعلت!) – وهذا بالضبط في الوقت الذي تعمل فيه الحضارة الغربية وهي في مرحلة أواخر حداثتها، أو ما بعد الحداثة إنْ شئت، على أنْ تُقلِّل بكل كياسة من حجم إيمانها. وبروح ما بعد نيتشويّة، يبدو أنها منهمكة في نسف أُسسها الميتافيزيقية السابقة بخليط فظيع من الماديّة العملية، والبراغماتية السياسية، والنسبيّة الأخلاقية والثقافية، والشكوكيّة الفلسفيّة. هذا كله، إنْ صحّ التعبير، هو الثمن الواجب دفعه مقابل الوفرة.

وهذا لا يعني بالضبط أنَّه، بينما الغرب يهمّ بالتخلّي عن المقولات الكبرى، ظهرت فرضية جديدة أربكته – هي الإرهاب الإسلامي. إنَّ التعبير عن الأمر بهذه الطريقة ينسى الصِّلة بين الحَدَثَين. وهو أيضاً يجعل الوضع يبدو أشدّ إثارة للسخرية مما هو فعلاً. والمقولة الشائعة جداً عن موت التاريخ، التي تعني أنَّ الرأسمالية الآن هي اللعبة الوحيدة الموجودة، تعكس عجرفة مشروع الغرب في الهيمنة على العالم؛

Tele: @Arab_Books

وهذا المشروع العدائي هو الذي أشعل شرارة الحركة الارتجاعيّة على شكل إسلام راديكالي، ورفض بذلك فرضيّة نهاية التاريخ. بهذا المعنى، إنَّ مجرد محاولة محو التاريخ فتح الموضوع من جديد. وهذه ليست المرة الأولى التي يحدث فيها هذا. وعندما اطمأن الغرب، بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، إلى أنه بات في وسعه أنْ يبقى في منأى من العقاب وهو يسعى إلى الحفاظ على مصالحه في العالم أجمع، تجاوز بذلك نفسه، وجد نفسه يواجه من جديد خصماً متمرداً، وبفعله ذلك نبذ فرضية ما بعد الحداثة القائلة إنَّ المقولات الكبرى وصلت إلى نهايتها. وفي الوقت الذي بدا أنَّ الأيديولوجيات عموماً تحزم أمتعتها استعداداً للرحيل إلى الأبد، أعادها تراجع هيمنة الولايات المتحدة على العالم إلى الأجندة على شكل نموذج شديد السُّمّية من مذهب المُحافظين الجُدد. ثمة عصابة صغيرة من الدوغماتيين المتشددين تشغل البيت الأبيض وتستمر في تنفيذ خُططها المُحكمة للسيطرة على العالم، كشخصيات في رواية خيال علمي من الدرجة الثانية. وهذا لا يقلّ غرابة عن احتلال أنصار العلمولوجيا[1] مقرّ ١٠ داوننغ ستريت، أو تسكع رواية ***«شفرة دافنتشي»*** في أروقة قصر الإليزيه.

إنَّ الرأسمالية التقدّمية لاأدريّة[2] أصلاً. وهذا يجعلها تبدو مترهلة جداً ولا شكل لها عندما تصطدم قلّة إيمانها بكمية وافرة من المادة – ليس فقط وفرة خارجية، بل وداخلية أيضاً، على هيئة تشكيلة من المذاهب المتطرفة المحليّة. إنَّ جمعيات السوق الحديثة تكون علمانية، نسبيّة، براغماتيّة، ماديّة، حسب عملها،

١– العلمولوجيا: حركة دينية علمية تؤكد على دور الروح أو طاقة الحياة في الكَون الماديّ. – المترجم

٢– اللاأدريّة: مذهب يعتقد بأنَّ وجود الله وطبيعته وأصل الكون أمور لا سبيل إلى معرفتها. – المترجم

Tele: @Arab_Books

وليس فقط حسب معتقدها. وما دامت هذه المواقف سارية، لا يبقى أمامها الكثير من الخِيار. والمشكلة هي أنَّ هذا المناخ الثقافي يميل أيضاً إلى نسف القيم الميتافيزيقية التي تعتمد عليها السلطة السياسية جزئيّاً. إنَّ الرأسماليّة لا تستطيع أنْ تتخلَّص بسهولة من القيم الميتافيزيقية ولا أنْ تتعامل معها بجديّة صارمة. وكما أعلن الرئيس أيزنهاور ذات مرة بأسلوب غروشو ماركس: «إنَّ حكومتنا لا يكون لها معنى إلّا إذا قامت على أساسٍ إيمان ديني عميق – ولا يهمني نوعه». إنَّ الإيمان الديني في وجهة النظر هذه حيويٌّ وأبلهُ معاً[٣]. والله يُستحضَر تقليديّاً على منصات السياسة الأميركية، ولكن لا يصحّ أنْ يُستحضَر في اجتماع لجنة البنك الدولي. سيكون الأمر أشبه بالاحتكام إلى الأشكال الأفلاطونية أو الروح العالمية من أجل اختيار ورق الجدران. إنَّ أيديولوجيّي اليمين المتديِّن، بوعيهم على طريقتهم الخاصة بأنَّ السوق يحل محل الماورائيات، يسعى إذن إلى إعادة تلك القيم إلى مكانها، وهذا أحد المعاني العديدة التي تُنجب بها نسبيّةُ ما بعد الحداثة التطرُّفَ المتعصِّب. والذين لا يؤمنون إلّا نادراً يلتقون مع المستعدين للإيمان بأيّ شيء تقريباً. ومع مجيء الإرهاب الإسلامي، ازدادت هذه التناقضات حدَّة بصورة هائلة. وأصبح من الضروري الآن أكثر من أيّ وقت آخَر أنْ يؤمن الناس، بالضبط في الوقت الذي أضحى فيه أسلوب الحياة الغربية يحرمهم من أيّ حافز لفعل ذلك.

إنَّ الليبرالية الاقتصادية تتملَّك الناس والمجتمعات، مُحدثةً في سياق ذلك حركة ارتجاعيّة عنيفة من النوع الذي تعجز الليبرالية الاجتماعية والثقافية عن التعامُل معه. بهذا المعنى، أيضاً، يُبرِزُ الإرهاب تناقضات

٣– اقتطفه دان هيند في كتاب ***«The Threat to Reason»*** (لندن: دار فرسو، ٢٠٠٧) صفحة ٧٠.

Tele: @Arab_Books

معيَّنة مستوطنة في الرأسماليّة الليبرالية. وقد رأينا توّاً أنَّ التعدّدية الليبرالية لا يسعها إلّا أنْ تُضمِّن محتوى الإيمان قدراً من اللامبالاة، بما أنَّ المجتمعات الليبرالية لا تتمسّك بالمعتقدات إلى درجة أنْ تؤمن بأنه يجب السماح للناس بأنْ يعتنقوا بحرية ما يشاؤون من معتقدات. مثل هذه الثقافات تكشف عن قدر من اللامبالاة الخلاّقة تجاه ما يعتنقه الناس حقّاً، ما دامت تلك المعتقدات لا تهدد مبادئ الحرية والتسامُح ذاتها. إنَّ *summum bonum* (الطيبة المُطلقة) للمجتمع الليبرالي تدع المؤمنين وإيمانهم دون إزعاج – كما يتجاوزك الإنكليز إذا شاهدوك تنزف على حافة الطريق، ليس لأنهم قُساة القلوب بل لأنهم يمقتون التدخُّل في أمورك الخاصة.

مثل هذه الثقافات تشجِّع على الإيمان الرسمي الصِّرف أو الإجرائي، الذي يتضمَّن إبقاء المعتقدات أو الهويات المُحصّنة بقوة على مسافة معيَّنة تدعو للسخرية. إنَّ المجتمع الليبرالي بهذا المعنى هو نقاش واحد طويل، جامح، ودائماً غير حاسم، ومصدر القيمة ولكن أيضاً الضعف. إنَّ الإجماع الكامل مرغوب في وجه الهجوم الخارجي؛ لكنَّ الأصعب هو تحقيق النجاح في الديموقراطيات الليبرالية من أيِّ نوع من الدول الأخرى، وحتى عندما تُصبح متعددة الثقافات. والمُرجَّح أنَّ الفتور الليبرالي اتجاه الإيمان سيشكّل عقبة في أوقات الأزمات السياسية، خاصة عندما يجد المرء نفسه في مواجهة عدوّ ميتافيزيقي شرس. والتعدّدية نفسها التي تحظى بإعجابك بوصفها مؤشراً إلى قوتك الروحية قد يكون لها تأثير مُضْعِف لسلطتك السياسية، وكذلك الأمر عندما تواجه متعصبين يعتبرون التعدّدية شكلاً من أشكال الجُبن الفكري. والفكرة، التي روَّجَ لها خاصة بعض الأميركيين، بأنَّ الراديكاليين الإسلاميين يشعرون بالغيرة من الحريات الغربية مُقنِعة كالإيحاء بأنهم يتوقون

Tele: @Arab_Books

سرّاً إلى الجلوس في المقاهي ليدخّنوا المخدرات ويقرؤوا جيل ديلوز[٤].

إنَّ الدمار الاجتماعي الذي سبّبته الليبرالية الاقتصادية يعني أنَّ بعض المجموعات المُحَاصَرة لا يمكنها أنْ تشعر بالأمان إلّا بالتمسُّك بهوية استثنائيّة أو بعقيدة صارمة. ولكن إنْ كانت أشكال الإيمان شديدة التطرُّف، فذلك جزئيّاً لأنَّ الرأسمالية التقدّمية ليس لديها إلّا القليل من البدائل تقدّمها إليها. هذا بالإضافة إلى أسباب أخرى لأنها تسعى إلى أنْ تكتسب من مواطنيها الموافقة الآليّة، الداخلية، التي لا ترتكز كثيراً على معتقداتهم. إنَّ الرأسمالية التقدّمية ليست نظام حكم من النوع الذي يحتاج إلى انتزاع الكثير من الالتزام الروحي من رعاياه. ويجب الخوف من المتعصِّب لا تشجيعه. فحالما تخرج العامة من السرير، وتهرع إلى مركز العمل، وتستهلك، وتدفع الضرائب، وتكفّ عن ضرب ضباط الشرطة، فإنَّ ما يدور في رؤوسها في معظم الوقت مسألة ثانوية حصراً. إنَّ سلطة النظام في الغالب مُقرَّرة بطرق عملية، ماديّة، وليس بإيمان أيديولوجي. ليس الإيمان ما يُبقي على عمل النظام، كما يفعل مع عمل جيش الخلاص. وهذا، أيضاً، ميزة في الأوقات «العاديّة»، بما أنَّ المُغالاة في طلب الإيمان من الناس يمكن بسهولة أنْ تكون لها ردّة فعل عكسية. ففي أوقات الاضطراب السياسي تكون أقلّ فائدة.

لقد ألمحت الناقدة الأدبية كاثرين غالاغر إلى أنَّ قراءة أدب الرواية هي بالإضافة إلى أشياء أخرى تدريب إبداعي في أثناء الاسترخاء لممارسة

٤- جيل ديلوز (١٩٢٥-١٩٩٥): فيلسوف فرنسي. كتب منذ أوائل الستينيات وحتى وفاته في الفلسفة، والأدب، والسينما. والفنون الجميلة. من أبرز أعماله ***«Capitalism and Schizophrenia»*** و***«Anti-Oedipus»***. - المترجم

Tele: @Arab_Books

الإيمان[٥]. إنَّ قراءة الأدب والمرء يعلم أنه أدب، كما تقول، يتضمَّن قدراً من «السذاجة المُثيرة للسخرية»، من التصديق وعدم التصديق في وقت واحد. ومن المثير للاهتمام في هذا المجال (على الرغم من أنَّ غالاغر لا تتطرّق إلى هذه النقطة) أنَّ أحد أعظم الروائيين الإنكليز، صمويل ريتشارسن، لم يرغب في تأليف رواية *«كلاريسا»* لكي تُعتَبَر قصة حياة حقيقية، ولكن حتى هو لم يرغب في أنْ يُعلِن في المقدِّمة أنَّ عمله مجرد رواية. وإذا اعتُبِرَت الرواية قصة حقيقية، فإنَّ طبيعتها الإرشادية يمكن أنْ تُختَصَر، ويُختَصَر معها زخمها الأخلاقي؛ وإذا اعتُبِرَتْ مجرد رواية، فإنَّ الزخم الأخلاقي يضعف بصورة قاتلة. إنَّ فن الرواية الواقعية كله متضمَّن في فعل التوازن هذا، في مسعى لتعميم محتوياته من دون إلحاق الضرر بخصوصيتها. على أية حال، إنَّ ما ترمي إليه غالاغر هو أنَّ القراء مدعوون إلى الشعور بالتفوُّق في شكّهم الأرضي على البراءة الساذجة للبطل أو البطلة الروائيين. وتصبح القصة نوعاً من المغامرة المحفوفة بالمخاطر التي لا يوليها المرء الكثير من ثقته، ويترك خياراته مفتوحة ويبقى يقظاً على الاحتمالات الأخرى. وبما أنَّ القارئ لا يضع ثقته في واقعيّة الشخصيات، يستطيع أنْ يجد طريقة ليلتفّ حولها على هواه، مُبدياً إعجابه بمصداقيتها وبالحرفيّة التي حيكَتْ بها. وتكتب غالاغر قائلة: «إنَّ هذه الحالات العَقلية المرنة كانت ضرورية للموضوعيّة الحديثة»[٦]. برفض أدب الرواية المُثير للسخرية التوكيد والتطابُق، يُصبح نوعاً من البديل للأيديولوجيا.

٥- كاثرين غالاغر ، «The Rise of Fictionality» في كتاب **«The Novel: Volume 1: History, Geography, and Culture»**، تحرير فرانكو موريتي (برينستون، نيو جرسي: برينستون يونيفرسيتي بريس، ٢٠٠٦)، صفحات من ٣٣٦ إلى ٣٦٣.

٦- المرجع السابق، صفحة ٣٤٦.

Tele: @Arab_Books

أو يمكن القول على الأقلّ، لأيديولوجيا من نوع معيَّن – لأنه ليست الأيديولوجيا كلها خالية من السخرية وتأمّل الذات. ومن الممكن أنْ يعترف المرء كم هو كائن فظيع.

إنّ تعدّدية الثقافات في أسوأ حالاتها تعانق برقّة مثل هذا الاختلاف، دون التمعُّن بدقّة فيما يختلف المرء بشأنه. إنها تتخيَّل أنَّ هناك شيئاً إيجابيّاً متأصلاً في وجود حشد من الآراء المختلفة حول الموضوع نفسه. ومن المُثير للاهتمام معرفة إنْ كانت تعتبر هذا هو الحال عندما يصل الأمر إلى التساؤل ما إذا كانت المَحرقة قد وقعت فعلاً. لذلك إنَّ مثل هذه التعدّدية الرشيقة تقضي على عادة تفنيد معتقدات الآخرين بحماسة – بنعتها بالهراء المحض أو بالحثالة الصّرف، على سبيل المثال، كما يحق طبعاً لكل إنسان أنْ يفعل. إنَّ هذا ليس أفضل أساس للتدرُّب على تقبُّل أناس آخرين يمكنهم أنْ يحملوا معتقداتهم في رؤوسهم. وأحد الجوانب المقبولة لهجوم كريستوفر هيتشنز العنيف على الدِّين هو أنه لا يهاب بصورة لائقة أنْ يُعلن اعتقاده أنه يُسمم العقول ويثير الاشمئزاز. لعله يجد أنَّ مما يُحرِج قليلاً في قناعه ما بعد الماركسي الجديد أنَّ شعار «الدِّين هو سُمّ» كان الشّعار الذي شنّ ماو تحته هجومه على شعب التيبت وثقافته. لكنه مع ذلك مُحقّ في الاحتفاظ بمدافعه. يجب ألّا تُحترَم المعتقدات لأنها مُعتقدات. والمجتمعات التي يُشكّل فيها أيّ نوع من النقد الكاسح «إساءة» لديها مشكلة واضحة. «الإساءة» هي إحدى أحدث الكلمات الأميركية الطنانة، بما تتضمّنه من إهانات لا تُغتفَر كإجراء حديث حقود مع أحدهم، أو كسرد حقائق سياسية بغيضة يُفضِّل شخص آخر ألّا يسمعها.

إنَّ الإفراط في الإيمان هو ما ساعدتْ حضارةُ رأسمالية متأخّرة، لاأدريّة، على إنتاجه. وهذا ليس فقط لأنها ساعدتْ على خلق أحوال مناسبة للتطرُّف، بل لأنه عندما يُصبح العقل مفرط السيطرة، والدقّة،

Tele: @Arab_Books

وأداتيّاً، ينتهي به الأمر إلى أنْ يغدو تربة ضحلة لا تصلح لازدهار نوع معقول من الإيمان. والنتيجة، أنَّ الإيمان ينحدر إلى نوع من اللاعقلانيّة التي يُسمّيها اللاهوتيون الإيمانيّة[٧]، ويُدير ظهره للعقل كله. من هناك، يُصبح الوصول إلى التشدُّد لا يتطلب أكثر من خطوة سهلة واحدة. إنَّ كلّاً من العقلانية والإيمانيّة تعكس كلٌ منهما صورة الأخرى. والجانب الآخر للعقل ذي البُعدَين هو الواقع القائم على أساس الإيمان. ويكتب جون ملبانك قائلاً: «إنَّ الموقع الذي يتراجع عنه العقل، يبدو أنَّ الإيمان يهرع لكي يشغله، وغالباً مع نتائج عنيفة»[٨]. وإنْ كان العقل يُعاني من مشكلة مع القيمة، فإنَّ الإيمان يُعاني من مشاكل مع الواقع. إنَّ النزعة المُحافظة الجديدة هي نوع من الإيمانيّة، لا يزعجها بنظامها الأيديولوجي أيّ شيء تافه كالواقع. والتعصّب مع أشياء أخرى هو عقيدةُ الذين انجرفوا إلى التشدُّد بفكرٍ عقلانيّ تكنولوجيّ ضحل يُنحّي الأسئلة الروحيّة العظمى كلها جانباً بُسخرية، وبفعله ذلك يترك تلك الأسئلة عُرضة لاحتكار المتعصبين.

وبالعكس، على العقل، كما سبق أنْ قلت، أنْ يترسَّخ في شيء غير نفسه لكي يُصبح ***عقلاً*** أصيلاً. فإذا ترسَّخَ إلى حدّ بعيد في اهتمامات ماديّة وهيمنة سياسية، بدل أنْ يفعل في نوع من الإخلاص النابع من الحب أو في مجتمع مُسالم، فسوف يترعرع الإيمان والعقل كلٌ بعيداً عن الآخر، ويُصبحان شخصيات ورقيّة خالية من الحياة يحملان اسم الإيمانيّة والعقلانيّة. وهناك معنى آخر، أيضاً، تؤدي فيه قلّة الإيمان إلى

٧- الإيمانيّة: مذهب يدعو إلى الاعتماد على الإيمان كبديل للعقل.

٨- جون ملبانك، «Only Theology Saves Metaphysics: On the Modalities of Terror»، في كتاب «**Belief and Metaphysics**»، تحرير بيتر م. كاندلر الابن وكونور كننغهام (لندن: SCM بريس، ٢٠٠٧) صفحة ٤٥٥.

Tele: @Arab_Books

فائض فيه، أي ببساطة لو أنَّ الغرب يعتنقُ حقّاً الإيمان بإنجيل السلام، والعدالة، والمودّة، فربما ما كان أنفقَ الكثير من وقته في حرق الأطفال العرب حتى الموت، وبهذا لا يُضطر إلى القلق كثيراً بشأن وجود أناس يحطمون الطائرات في مفاعلات ذرية باسم الله (Allah)، ولا يفكر مسلمون يعرفون شيئاً عن دينهم في فعل ذلك. وقد لا يكون هناك حتماً أدنى شك في أنه إذا سادتْ هذه القيم، فسوف يُصبح العالم أفضل حالاً بكثير. سيكون للعدالة أثر على الصراع بين فلسطين وإسرائيل. سوف تعتبر البشرية أنها تشرف على عمل الطبيعة بدل أنْ تهيمن عليها. سوف تفسح الحربُ الطريقَ للسلام. وسوف يعني الغفران من بين ما يعني إسقاط الديون المُعيقة التي تثقل كاهل الدول الفقيرة. سوف تحل المسؤولية المشتركة محل الفردية الأنانية. ولكن، لكي يحدث هذا كله، على المؤمنين أنْ يتناولوا قيمهم بجديّة. ويبدو أنَّ هناك فرصة عظيمة لفعل ذلك.

لقد أفرزت الليبرالية الاقتصاديّة أفواجاً عظيمة من الهجرة العالمية، أحدثت في الغرب ما يُسمّى تعدُّد الثقافات. وهنا، أيضاً، يوجد تناقُض، بما أنه كلما ازدهرت الرأسماليّة على المستوى العالمي، هدَّدتْ أكثر في هذا المجال بتراخي تحكم الدولة–الأمة بمواطنيها. إنَّ الثقافة تُكبِّل القوة، تضفرها مع خبرتنا في الحياة وبذلك تشدّ من قبضتها علينا. والسلطة التي تفشل في فعل ذلك سوف تبدو شديدة الصعوبة ومتحفّظة، وبذلك تفشل في نيل ولاء مواطنيها التامّ. فإذا فازت السلطة بالولاء، فيجب أنْ تتحول إلى ثقافة. لكنَّ السلطة التي عليها أنْ تُكبّل نفسها في ثقافات مختلفة في وقت واحد هي في وضع لا تُحسَد عليه. وقد أصدرت مجموعة من الاختصاصيّين في قلب مؤسسة الدفاع والأمن البريطانية مؤخراً تقريراً ادّعت أن «مُراعاة في غير محلها لتعدُّد الثقافات» تفشل «في تنظيم مجتمعات المهاجرين»

Tele: @Arab_Books

تُضعفُ الحرب ضد المتطرفين السياسيين. ويُحذّرنا التقرير من أنَّ المشكلة هي إلى حدّ بعيد مشكلة تفكيك المجتمع، راسماً في أثناء ذلك دولةً متعددة الثقافات تنقسم باطّراد حول التاريخ، والهوية، والأهداف، والقيم. باختصار، كانت القيم الليبرالية للأمة تنسف القيم الليبرالية التي سعت إلى حمايتها من الإرهاب.

خذ مثلاً على ذلك الجدال الدائر في بريطانيا حول ما يُسمّى القيَم البريطانية، التي ينبغي، كما يُقال، على المُهاجرين الجُدُد إلى البلاد أنْ يتعرّفوا عليها. وهناك مشكلة لا حلّ لها في هذا المشروع، بما أنه لا توجد قيم بريطانية، ولا قيم صربيّة أو بيروفيّة. ليست هناك أمّة تحتكر العدالة والإنسانيّة، والإنصاف والتعاطُف. صحيح أنَّ بعض الثقافات يرعى أحد أنواع القيم أكثر من غيره (العرب وحُسن الضيافة، على سبيل المثال، أو البريطانيون وضبط الانفعالات). ولكن حُسن الضيافة ليست حكراً على العرب، ولا ضبط نوبات الانفعال حكراً على البريطانيين. إنَّ التسامُح والتعاطُف، كالساديّة والغيرة الجنسية، يمكن العثور عليهما في كل مكان على وجه الكرة الأرضية. إنَّ أمماً ككوريا الشمالية أو العربية السعودية تهزأ بقيمٍ أخلاقية كحريّة الفرد، بينما أمم كبريطانية والولايات المتحدة تخرق الأمر الأخلاقي لكي ترحّب بالغريب وترعى الفقير. لكنّ هذا ليس حجّة ضد السِّمة العالمية لتلك القيم.

إنَّ أحد الإنجازات الضخمة للتنوير الراديكالي هو رفض فكرة أنَّ الفضيلة أو الرذيلة تعتمد على أصلك العرقي. لا أحد أفضل أخلاقيّاً لأنه وُلِدَ في بوسطن وليس البوسنة. صحيح أنَّ كون المرء نشأ في بيئة ثريّة يجعل بعض أنواع الفضائل أسهل، في مقابل النشأة في مجتمع مُبتلٍ بالكفاح، والنُّدرة، والحقد الطائفي. لكنَّ الفضيلة السهلة أقل استحقاقاً للتقدير، بينما الذين ينجحون في أنْ يكونوا كرماء، وشجعان،

Tele: @Arab_Books

ومتسامحين في بيئة غير متسامحة يستحقون المديح أكثر بكثير. ولعل لديهم أيضاً فرصة أكثر لممارسة فضائل متألقة حقّاً، فرصة لا تُتاح عادة للذين يعيشون في هاتفيلد أو مناطق هامتون.

إنَّ أتباع ما بعد الحداثة الذين يُنكرون وجود قيم عالمية باسم الفروق الثقافية يمكنهم أنْ يجدوا أنفسهم دون أنْ يدروا على علاقة وثيقة بالمُحرّضين في ميدان ترافالغار وأنصار القديس جورج. إنَّ القيم الأخلاقية المتشددة لطبيب أسنان مسلم عادي مُهاجر إلى بريطانيا هي نفسها قيم سبّاك إنكليزي المولد. ولا أحد منهما سوف يؤكد تقليديّاً أنَّ الكذب والغش هما السياسة الأفضل، أو أنَّ الأطفال في أحسن حالاتهم إذا ما ضُربوا بانتظام حتى الورم، قد تكون لديهم عادات ومعتقدات مختلفة؛ لكنَّ المدهش هو اتساع الأرض المشتركة بينهما حول مسألة كيف يعيش المرء جيداً. أما فيما يتعلّق بالأخلاق الدينية، من الصعب إقحام ورقة سيجارة بين الله Allah ويهوه. إنَّ هذا، بحق، جزء مما يجده ديتشكينز بغيضاً في الأمر.

إذن، من السهل أنْ نفهم لماذا يجب أنْ تسبِّب تشكيلةٌ من الثقافات مشكلة للسلطة. إنَّ تعددية الثقافات تشكّل تهديداً للنظام الحالي ليس فقط لأنه يمكن أنْ يعمل عمل مفرخة إرهابيين، بل لأنَّ الدولة السياسية تعتمد على إجماع ثقافي متين بصورة معقولة لكي تصدِّر سياساتها المُسبِّبة للشّقاق ماديّاً لمواطنيها. وعندما يبدأ بعض من أولئك الذين تعني الثقافة بالنسبة إليهم في الغالب رواية «*مانسفيلد بارك*» وأوبرا «*الناي السّحري*» بمناقشة الثقافة بحماس من ناحية اللغة، واللباس، والعادات الدينية، يمكن للمرء أنْ يتأكّد تماماً من أنَّ ثمة مشكلة سياسية ستحدث.

إنَّ رئيس الوزراء البريطاني يؤمن بثقافة مشتركة، تماماً كما فعل مفكرون من اليسار الجديد أمثال ريموند وليامز و إ. ب. تومبسون.

Tele: @Arab_Books

الفرق الوحيد هو أنَّ ما يعنيه رئيس الوزراء بالثقافة المشتركة هو أنَّ على الجميع أنْ يتشاركوا في معتقداتهم الخاصة لكي لا ينتهي بهم الأمر إلى تفجير محطات قطارات الأنفاق في لندن. لكنَّ الحقيقة هي أنه لم يحدث أبداً أن اتّسعَ مُعتقد ثقافي ليشكل مجموعات ضخمة من القادمين الجُدُد دون أنْ يطرأ عليهم تغيير أثناء ذلك. وهذا ما تفشل فلسفة «الدمج» الحمقاء في إدراكه. وليس هناك افتراض في البيت الأبيض، أو داوننغ ستريت، أو قصر الإليزيه أنَّ معتقداتهم الخاصة يمكن أنْ تتعرَّض للتحدي أو للتغيير أثناء عملية الامتداد نحو الآخرين. إنَّ الثقافة المشتركة من هذا المنظور هي التي تدمج الغرباء داخل إطار من القيَم راسخ أصلاً ولا ريبٍ فيه، بينما تتركهم أحراراً في أنْ يمارسوا عاداتهم الغريبة التي لا تشكل أيَّ تهديد لهذا التناغُم المُقدَّر. إنّ هذه السياسة تناسب القادمين الجُدد من ناحية، في حين إنها تتركهم وشأنهم من ناحية أخرى. إنها في وقت واحد مُغالية في تملّكهم ومُغالية في كفّ يدها عنهم. إنَّ الثقافة المشتركة بمعنى أكثر راديكاليّة للعبارة ليست التي يؤمن كل شخص فيها بالشيء نفسه، بل التي يحظى فيها كل شخص بمكانةٍ مُتساوية في أسلوب حياة مشتركة مُقرَّر بالتعاون المشترك.

إنْ كان هذا الكلام سيشمل أولئك الذين ينتمون إلى عادات ثقافية هي هامشية حاليّاً، فإنَّ الثقافة التي سينتهي أمرنا إليها ستكون شديدة الاختلاف عن التي لدينا الآن. لسبب واحد، هو أنها ستكون أكثر تنوعاً. إنَّ الثقافة التي ستنتج عن المُساهمة النشطة لأعضائها كلهم ستكون في الغالب أكثر اختلاطاً وتنافراً من ثقافة متناغمة لا تسمح بانضمام أعضاء جُدد إلّا حسب شروطها. بهذا المعنى، المُساواة تولّد الاختلاف. والمسألة ليست مسألة دمج ثقافات متنوعة تحت مظلة مُشتركة ذات طابع بريطاني، بل مسألة وضع كامل ذلك الكيان القادم

Tele: @Arab_Books

في بوتقة إذابة وانتظار النتيجة. وإنْ كان أسلوب الحياة البريطاني أو الأميركي سيقبل نقد النزعة الماديّة، ومذهب المتعة، والنزعة الفردية للعديد من المسلمين المُخلصين، وليس المسلمين الذين يقبلون ثقافة بريطانية أو أميركية مُسبقة الصنع، فإنَّ الحضارة الغربية سوف تتغير دون أدنى شك نحو الأفضل. إنَّ هذه رؤية مختلفة عن ذلك النوع من التعدُّد الثقافي الذي يترك المسلمين والآخرين وشأنهم يمارسون شعائرهم الغريبة الساحرة، ويُطريها من مسافة آمنة.

إنَّ جزءاً مما حصل في زمننا هو أنَّ الله انتقل من الوقوف إلى جانب الحضارة ليقف إلى جانب الهمجيّة. إنه لم يعُد إله الغرب القصير الشّعر، ذو الوهج الأزرق - أو إنْ كان لا زال كذلك، فصورته هذه شائعة فقط في الولايات المتحدة، وليس في بورتو أو رادكليف أو بولونيا. بدل ذلك، أصبح إلهاً غاضباً، قاتم البشرة، الذي إذا كان قد خلق جون لوك وجون ستيوارت ميل، فإنه قد نسي ذلك منذ زمن بعيد. ويمكن للمرء أنْ يتمادى ويدّعي أنَّ الشكل الجديد من الهمجيّة معروف باسم الثقافة. ولا زال في الإمكان الحديث عن الصِّدام بين الحضارة والهمجيّة؛ لكنَّ الكلام عن خلاف بين الحضارة والثقافة هو شكل أشدّ رهافة من المناقشة نفسها. فالحضارة تعني العالمية، الاستقلاليّة، الازدهـار، الجماعيّة، والفردية، والتأمُّل العقلاني، ومفارقة انتقاد الذات؛ أما الثقافة فتعني كل تلك التحالفات والولاءات الطائشة والواضحة كأنها جزء منا كالكبد أو البنكرياس، وفي الحالات القصوى يستعد الناس إلى القتل باسمها. إنَّ الثقافة تعني المألوف، الجمعي، الانفعالي، العفوي، الطائش، الجدّي، والعقلاني. إذن، لا غرابة في أنَّ لدينا حضارة ولديهم ثقافة. وبعبارةٍ أدقّ، الأمم المُستعمِرة هي حضارات، ومُعظم المُستعمَرات أو المستعمَرات السابقة هي ثقافات.

Tele: @Arab_Books

صحيح أنه يمكن ألّا يوجد تضارب مُطلق بين الثقافة والحضارة. ذلك أنَّ الثقافة بوصفها أسلوب حياة معيَّن هي الوسط الذي تعيش فيه القيم العالمية المُفترضَة للحضارة. إنها الطريقة التي تكتسب فيها تلك القيم لحماً لتغدو صيَغ العقل العملي؛ فإذا لم يحدث هذا، تبقى المبادئ المتحضّرة شديدة الإبهام وغير مؤثّرة. ولكي نصيغ العبارة بطريقة أقلّ غطرسة نقول: إنَّ عمليات الدمج المتعددة القوميات خالية من أية ثقافة ولامركزية بحد ذاتها، ولكن ينبغي الانتباه بقوة إلى كيفية حدوث الأمر تقليديّاً في كولومبو أو تشيتاغونغ. إنَّ تعدّد الثقافات يعني من بين ما يعني حساسيتك ضد الاختلاف الثقافي لكي تعزِّز مصالحك العالمية. ولكن هناك أيضاً عدائيّة شرسة بين الحضارة والثقافة، أدرجها المتفوقون ثقافيّاً بيننا ضمن محور الغرب/الشرق. لقد نسوا أنَّ الحضارة الغربية مترعة بثقافات من أطراف الدنيا الأربعة. ونسوا أيضاً أنَّ ثقافة الليبرالية الإسلامية المنغلقة لا تعكس الحضارة الإسلامية بأكملها.

إذن، إنَّ إحدى أشد المشاكل إلحاحاً في عصرنا هي أنَّ الحضارة لا تستطيع أنْ تتخلَّص من الثقافة ولا أنْ تتعايش بسهولة معها. الحضارة ثمينة ولكنْ هشّة؛ والثقافة فجّة لكنها قوية. الحضارات تقتل لتحمي مصالحها المادية، في حين إنَّ الثقافات تقتل لتدافع عن كيانها. وكلما أضحت الحضارات براغماتية وماديّة، استُدعيَت الثقافة أكثر من أجل تلبية الحاجات العاطفية والنفسية التي لا تستطيع أنْ تلبيها، وازداد، بالتالي، العداء المتبادَل بينهما. وما كان الهدف منه أنْ يكون وسيطاً للقيم العالمية في أوقات وأماكن معيَّنة ينتهي به الأمر إلى أنْ يقف منهما موقفاً عدوانيّاً. إنَّ الثقافة هي المُضطهدَة التي تعود لكي تثأر لنفسها. ولأنَّ من المفترَض أنْ تكون أكثر مركزيّة، وفوريّة، وعفويّة، وعقلانيّة من الحضارة، فهي أقرب الاثنتين إلى مفهوم الجمال. والنزعة القومية

Tele: @Arab_Books

التي تسعى للتشديد على الثقافة الأصلية هي دائماً أشدّ أنواع السياسة شاعريّة – إنها، كما علّق أحدهم ذات مرة، «من اختراع الأدباء». ولا يمكنكَ أنْ تعرِض المناضل الأيرلندي القومي العظيم بادريك بيرس[٩] على لجنة الصحة العامة.

إنَّ الدِّين موجود عند الاثنتين في وقت واحد، وهذا جزء من قوته الهائلة. في الحضارة، هناك المعتقد، والمؤسسة، والسلطة، والتأمُّل الميتافيزيقي، والحقيقة المتسامية، والجوقات، والكاتدرائيات. وفي الثقافة، هناك الأسطورة، والطقس، واللاعقلانيّة الهمجية، والإحساس العفوي، والآلهة الغامضة. لقد بدأت المسيحية كثقافة ومن ثم تحولتْ إلى حضارة. والدِّين في الولايات المتحدة لا زال على أشدّه كمسألة حضارية، في حين إنه في إنكلترا هو مسألة ثقافية إلى حدّ بعيد، وأسلوب حياة تقليدي أقرب إلى الشاي الأصيل أو رقصة القبّقاب منه إلى الاشتراكية أو الداروينيّة، ولا ينبغي التعامُل معه بجديّة صارمة (إنَّ دوكينز الإنكليزي في هذا المجال غير إنكليزي إلى أقصى مدى وبصورة فاضحة). لا يمكنكَ أنْ تتخيَّل قسّيس الملكة يسألكَ إنْ كنتَ قد اغتسلتَ بدماء الحَمَل. وكما قال الإنكليزيّ، عندما يبدأ الدِّين بالتدخُّل في حياتك اليومية يحين الوقت للتخلّي عنه. وتكشف استطلاعات الرأي أنَّ معظم الإنكليز يعتقدون أنَّ الدِّين تسبَّب بالضرر أكثر مما تسبب بالخير، وهو رأي عاقل بصورة بارزة من غير المتوقَّع أنْ يُقرّ في دالاس.

بما أنَّ أحد معاني الثقافة الكثيرة أنه لا يسعك إلّا أنْ تؤمن بما تؤمن، تُصبح بديلاً للمناظرة العقلانيّة. وهذا ما يحمله أبطال الحضارة

٩- بادريك (أو باتريك) هنري بيرس (١٨٧٩ – ١٩١٦): مناضل قومي أيرلندي، خطّط وقاد انتفاضة عيد الفصح (عام ١٩١٦). أعدمه البريطانيون. – المترجم

Tele: @Arab_Books

عن حق ضدّها. وكما أنه يمكنكَ في بعض المجتمعات التقليدية أنْ تُبرِّر ما تفعل على أساس أنه ما كان أسلافك يفعلونه، كذلك بالنسبة إلى بعض أتباع الثقافة يمكن تبرير ما يفعلون لأنَّ هذا ما تفعله ثقافتهم. إننا نفترض هنا أنَّ الثقافات نفسها حيادية أو إيجابية أخلاقيّاً، وهذا الكلام يصحّ على دول مثل أيسلندا، والأزاند، أو على الحياة البحرية، ولكن ليس على عصابات الدراجات النارية، والفاشيين الجُدُد أو العلمولوجيين[١٠]، ويُشير إعجاز أحمد إلى أنَّ الثقافة تعني في بعض الأوساط أنَّ ***سلوك*** المرء ينبع من ***أصله***، وهو مذهب تشترك فيه أشكالٌ من العنصرية على أساس بيولوجيّ[١١]. وكون المرء من اسكوتلندا أو سريلانكا لا خيار له فيه، والأمر يختلف إنْ كان يسوعيّاً أو مُهلِّلاً تحت قيادة بابلو[١٢] من الهيئة الدولية الرابعة[١٣] – في هذه الحالة قد يتبع أنَّ السلوك أيضاً ليس شيئاً يمكن اختياره. فإذا تعمّقت الثقافة، مُؤلِّفة هوياتنا نفسها، فإنَّ هذه الحالة تبدو مقبولة جداً. وهكذا يُصبح الاحتكام إلى الثقافة وسيلة لحلّنا بدرجة ما من المسؤولية الأخلاقيّة ومن الجِدال العقلاني. وكما أنَّ نصب الشِّراك للنمور يشكّل جزءاً من أسلوب حياتهم، كذلك يشكّل صُنع الصواريخ العابرة جزءاً من أسلوب حياتنا. إنَّ إحدى مكامن قوة ديتشكينز هي أنه حتماً، بغضّ

١٠– العلمولوجيون: المنتمون إلى حركة العلمولوجيا، وهي حركة دينية علمية تؤكد على دور الروح أو طاقة الحياة في الكون المادي. – المترجم

١١– إعجاز أحمد، في «Islam, Islamisms and the West»، من كتاب «***So-cialist Register***» (لندن: دار مرلن، ٢٠٠٨) صفحة ٢١.

١٢– ميشيل بابلو (١٩١١ – ١٩٩٦): قائد تروتسكيّ من أصل يونانيّ. يمثّل النسخة اليونانية من الحركة التروتسكية الشيوعية في الهيئة التأسيسية العالمية الرابعة (انظر المادة التالية). – المترجم

١٣– الهيئة العالمية الرابعة: منظمة أسسها تروتسكي في عام ١٩٣٧، من أجل تصدير الثورة البلشفية إلى أرجاء العالم كله. – المترجم

Tele: @Arab_Books

النظر عن باقي مواصفاته، ليس من أتباع الثقافة. والحقيقة هي أنه يميل أكثر بكثير نحو الجهة المقابلة.

إنَّ فكر ما بعد الحداثة يقفُ موقف العداء من فكرة الأسس. ولكنَّ هذا يعني حقّاً أنه مُعاد للنسخ التقليدية منها. هذه الأسس التقليدية تُستبدَل، على طريقته، بأساس جديد اسمه الثقافة. وتُصبح الثقافةُ نقطةَ التوقف المفاهيمي، المطلقة، الأخيرة، أو مؤشِّراً متسامياً. إنها النقطة التي يصل عندها المرء إلى الدرك الأسفل، الجلد الذي لا يستطيع أنْ ينزعه عنه، الأفق الذي لا يستطيع أنْ يرى ما خلفه. وأمر غريب أنْ ينطلق منها عند موقع من التاريخ لعلَّ الطبيعة عنده، التي أضحتْ من الماضي إلى أن انتبهنا مؤخراً إلى أنها توشك أنْ تختفي، على شفا أنْ تُهيمن على الثقافة الإنسانية ككل. ودائماً تطغى الطبيعة على الثقافة. وتُعرَف باسم الموت.

هناك جَرْسٌ قُدسيّ معيَّن في فكرة الثقافة. وكانت قد سعت، أصلاً، على مدى قَرنَين من الزمن أو أكثر إلى أنْ تكون البديل العلماني لفشل الإيمان الديني. وهذه ليست فكرة سخيفة بأكملها. فالثقافة، كالدِّين، هي مسألة قيم مُطلَقة، وأفكار يقينية بديهية، وتقاليد مُبجَّلة، وهويات مؤكَّدة، وعقائد مشتركة، وفعل رمزيّ، وإحساس بالسموّ. والثقافة، لا الدِّين، هي ما يعتبره العديد من الناس قلب عالم بلا قلب. والحق، إنَّ البعض يرون أنها أيضاً بديل الأفيون. وهذا صحيح سواء حسب فكرة الأقليّة عن الثقافة بوصفها الأدب والفنون، أو بوصفها أسلوباً مرفّهاً للحياة. بالنسبة إلى المعنى الأول للثقافة، الجدير بالانتباه أنَّ معظم المفاهيم الجمالية هي قِطع من أيديولوجيا بديلة. إنَّ العمل الفنيّ، الذي يُرى غامضاً، مُستقلاً، وذاتيّ الحركة، هو صورة الله بالنسبة إلى عصر لاأدريّ. لكنَّ الثقافة ليست في الواقع قادرة على القيام بدور دِين ***بديل***، وهذا أحد الأسباب التي جعلتْ فكرة الثقافة تتعرَّض للكثير من الضغط

Tele: @Arab_Books

خلال القرنَين الأخيرَين. إنَّ الأعمال الفنية لا تستطيع أنْ تنقذنا؛ تستطيع فقط أنْ تجعلنا أشدّ حساسية تجاه ما يحتاج إلى إصلاح. والاحتفاء بالثقافة كأسلوب حياة هو النسخة الأبرشيّة من الخلاص.

يمكن السعي للمصالحة بين الثقافة والحضارة (أو كما قد يُفسّر البعض هذين التعبيرَين، كالألمان والفرنسيين) بالادّعاء أنَّ قيَم الحضارة تحتاج، على الرغم من عالميتها، مكان إقامة واسماً – جزءاً من الكرة الأرضية يعمل عمل العنوان البريدي للتحضُّر الإنسانيّ ذاته. وهذا، طبعاً، كان الغرب. الغرب هو حضارة، حتماً؛ لكنه أيضاً جوهر الشيء نفسه، تماماً كما أنَّ فرنسا أمة واحدة بين العديد من الأمم لكنها أيضاً جوهر الفكر. وإذا بدت هذه الحالة مغرقة في الغطرسة، يمكننا أنْ نخرج بما يبدو للوهلة الأولى أشبه بنسخة أقلّ شوفينيّة منها. إنَّ هذا مُرتبط من بين ما يرتبط بالفيلسوف ريتشارد رورتي[١٤] – وهذا الاسم، بالمناسبة، يُعرِّفه ***قاموس أوكسفورد للغة الإنكليزية*** بأنه «مُشاكس»، و«صاخب»، و«خشن»، و«فظ»، و«مُحب للمرح»، وليس هكذا أتذكّره بالضبط. في هذه الحجّة يمكنك أنْ تميِّز أنَّ الحضارة الغربية هي في الحقيقة «ثقافة» بمعنى أنها محلية وطارئة؛ ولكن تستطيع أنْ تدّعي في الوقت نفسه أنَّ قيمها تُرقّي، وكأنها في الحقيقة عالمية. ويمكن العثور على حجج مُشابهة مُعيَّنة في أعمال الناقد الأدبي ستانلي فيش[١٥].

١٤– ريتشارد ماكاي رورتي (ولد عام ١٩٣١): فيلسوف أميركي. اهتمّ أساساً بإدراكنا المتغيِّر لهوية الإنسان. يُعتبر تلميذ الفيلسوف جون ديوي. – المترجم

١٥– انظر، على سبيل المثال، كتاب ريتشارد رورتي ***«Contingency, Iro-ny, and Solidarity»*** (كمبريدج: كمبريدج يونيفرسيتي بريس، ١٩٨٩)، و كتاب ستانلي فيش ***«Doing What Comes Naturally»*** (أوكسفورد: أوكسفورد يونيفرسيتي بريس، ١٩٨٩).

Tele: @Arab_Books

إنَّ هذا يعني أنْ تتصرَّف وكأنَّ قيمكَ لها صِفات القيم العالمية كلها، وفي الوقت نفسه تهينها بأيّ نقد كامل. إنها منيعة ضد مثل ذلك النقد لأنك لا تدّعي أنك تضع أيّ أساس عقلاني لها؛ وهذا تأثير رؤية نفسك كمجرد ثقافة واحدة بين ثقافات أخرى. وبحركة جسور، تستطيع أنْ تتخلى عن الدفاع العقلاني عن أسلوبك في الحياةً من أجل أسلوب آخر ثقافيّ، على الرغم من أنَّ ثمن فعل ذلك هو إبقاؤه بصورة خطرة تحت الأرض. إنَّ «الثقافة» و«الحضارة» هنا تتطابقان بصورة تامة. إنَّ الغرب مُتحضِّر دون أدنى شك؛ ولكن بما أنَّ تحضّره ينحدر من تاريخه الثقافي الطارئ، لا حاجة لتزويده بأساس عقلاني. إنَّ المرء بهذا يكسب أفضل ما في العالمَين. إنَّ فكرة الثقافة لا تُرفَض بازدراء كما حدث لفكرة الهمجيّة. وبدل ذلك، تندمج في الحضارة بطريقة تساعد على حمايتها من تحدّ هائل.

لقد برهنتُ توّاً على أنَّ العقلَ وحده يستطيع أنْ يواجه اللاعقلانية الهمجيّة، وأنَّه من أجل تحقيق هذا يجب حشد قوى ومنابع الإيمان التي هي أعمق منه، ولذلك يمكن أنْ يُشبه بصورة مشوّشة اللاعقلانيّة التي يعمل المرء على التمرُّد عليها. إنه وضع واجَهَته أوروبا في الحرب العالمية الثانية. هل اللاعقلانيّة أو المذهب الإنساني الليبرالي يكفي حقّاً لدحر الفاشيّة، وهي حركة تستمد قِواها من منابع لاعقلانية قوية؛ أم هل يمكن قهرها فقط بخصم يضرب في العمق، كما تدّعي الاشتراكية أنها تفعل؟ إنَّ العقلانية الليبرالية، من وجهة نظر اشتراكيّة، هي عقيدة سطحية جداً وتعجز عن تناول القضايا المطروحة؛ ومن وجهة نظر ليبراليّة، الاشتراكية والفاشيّة يجمع بينهما قواسم كثيرة مشتركة بصورة مُخيفة. إنَّ في وسع المرء أنْ يقرأ رواية توماس مان العظيمة ***«دكتور فاوستوس»*** بوصفها، إلى جانب أشياء كثيرة، قصة رمزية تتحدث عن هذا المأزق. لكنَّ مسألة العقل وذاته الأخرى هي أيضاً موضوع هام

Tele: @Arab_Books

في رواية مان «*الجبل السحري*». في هذا العمل، الحياة والموت، التوكيد والإنكار، إله الموت وإله الحب، المقدَّس والبذيء، متضافرة بحزم كلها معاً؛ وهذه المعركة بين غرائز الحياة وغرائز الموت تأخذ شكل صراع بين شخصية ستمبريني[١٦]، العقلاني الليبرالي والإنساني المستنير، وشخصية الشرير نافتا، اليسوعي، الشيوعي، المتمرّد على التنوير البورجوازي.

إنَّ نافتا حداثيّ بكامل عنفوانه في حالة ثورة شيطانية على روح ستمبريني الحداثيّة الليبرالية. إنه نصير التضحية، والتطرُّف، والاستبدادية الروحيّة، والحماس الديني، والإيمان بالقوى الخارقة، والتجرُّد من المشاعر، والدوغماتيّة، وعبادة الموت - باختصار، نصير كل ما يمثّل بالنسبة إلى ديتشكنز أسوأ أوجه الإنسانية. إنه يستمد حياته من ينابيع الثقافة المُظلمة، الميتة، المُلطَّخة بالدماء، في حين إنَّ ستمبريني المتحضِّر هو بطل العقل، والتقدُّم، والقيم الليبرالية، والفكر الأوروبي المتفتِّح والمتفائل. وهناك تناقُض مُشابه بين تزايتبلوم، الراوي ذي الفكر الليبرالي ولكن غير المُنفعل لرواية مان «*الدكتور فاوستوس*»، والفنان الشيطاني الذي يقع في مركز الرواية، أدريان ليفركون.

إذن، ليس هناك أدنى شك حول الشخصية التي جدير بديتشكنز أنْ يجدها ودوداً في رواية «*الجبل السحري*». لكنَّ الرواية بحد ذاتها أشد رهافة بقليل في إصدار أحكامها. وستمبريني الذي يحتفي بالحياة يقفُ في الحقيقة على باب الموت، ومزاجه العالمي هو، بالإضافة إلى أشياء أخرى، شكل أبرشي من نزعته الأوروبية. ومن وجهة نظر نافتا الهازئة، فإنَّ نزعة زميله التقدمية بحد ذاتها عتيقة الطراز وميتة، في الوقت الذي

١٦- ستمبريني: إحدى شخصيات رواية «*الجبل السحري*». - المترجم

Tele: @Arab_Books

كانت الحرب العالمية الأولى التي تقع أثناءها أحداث الرواية تُحطِّم كل تلك الآمال التي انطوى عليها القرن التاسع عشر. ومن المهم في هذا المجال أنَّ لا أحد في العيادة يبدو أنه يُشفى. قد يكون نافتا عاشقاً للموت بصورة مَرَضيّة، لكنَّ نزعة ستمبريني الإنسانية المرحة تزدهر عندما يكبتها. وعبادته للصحة والحضارة تُصدَم بالتفكير في المرض والحرمان، ويكاد لا يحتمل التفكير في مثل تلك الأوضاع. إنه لا يستطيع أنْ يهضم حقيقة أنْ تكون إنساناً يعني من بين ما يعني أنْ تكون مريضاً. إنه لا يفهم أنَّ الانحراف والضلال هما من مقومات الوضع الإنساني، وليسا فقط انحرافاً لاعقلانيّاً عنه.

إنَّ ما يتوصّل بطل الرواية، هانس كاستورب، إلى تعلّمه هو أنَّ هناك شكلاً من الموت في الحياة لا يتّصف به نافتا ولا ستمبريني. بدل ذلك، إنها مسألة تشديد على الناحية الإنسانية بتواضُع، وبلا تكبُّر، عبر معرفة هشاشتها وفنائها. هذه النزعة الإنسانية المأساوية تحمل في طياتها الموت المُمزِّق، وهذا ما لا ينطوي عليه ستمبريني؛ ولكن، خلافاً لنافتا، ترفض أنْ تحوِّل الموت إلى صنم. فقط بالانحناء احتراماً لَفنائيتنا نستطيع أنْ نعيش بشكل كامل. إنَّ في قلب رؤيا كاستورب الطوباوية المؤثِّرة عن الحب والصحبة في مشهد الثلوج العظيم من الرواية تكمن الصورة المرعبة لتمزيق أوصال طفل، لكي تُقدَّم كأُضحية دموية تدعيماً لأُسس الحضارة نفسها. بعد أنْ تراود هانس هذه الرؤيا سوف يرفض أنْ يدع الموت يُهيمن على أفكاره. إنه يتأمّل في الحب، لا في العقل، الأقوى من الموت، ومنه وحده تتدفَّق عذوبة الحضارة. إنَّ العقل بحدّ ذاته قوة مُغرقة في التجريد والموضوعية ولا يستطيع أنْ يقهر الموت. ولكن لكي يكون مثل هذا الحب أصيلاً، يجب أنْ يعيش «دائماً مع اعتراف صامت بأضحية الدم». على الإنسان أنْ يجلّ الجمال، والمثاليّة، والتوق إلى التقدُّم،

Tele: @Arab_Books

وفي الوقت نفسه يعترف بأسلوب ماركسي أو نيتشويّ بمقدار الدم المسفوك والبؤس الكامنَين في جذورها. لا يبدو على السطح أنَّ هذه الحِكمة يتم تقاسمها مع متعهّدي التقدُّم.

إذا اتَّضح أنَّ الثقافة ليست بديلاً كافياً للدين، فلنْ تستطيع أنْ تحل محل السياسة. والانتقال من الحداثة إلى ما بعد الحداثة يمثّل من بين ما يمثّل الإيمان بأنَّ الثقافة، لا السياسة، هي التي تحتل مسرح الأحداث. إنَّ ما بعد الحداثة أكثر إدراكاً لأساليب الحياة من إدراكها للمصالح المادية. وفي العموم، إنها أفضل بكثير فيما يخص الهوية من البترول. وبوصفها شكلاً من مذهب الثقافة culturalism، فإنها، ويا للسخرية، تمتّ بصلة القربى إلى الإسلام الراديكالي، وهذا يعني أيضاً أنَّ المهم بصورة مُطلقة هي العقائد والقيم. يقول آصف بايات: «بالنسبة إلى الإسلاميين لا تتمثّل الإمبريالية ببساطة في الغزو العسكري والسيطرة الاقتصادية؛ إنها تتمثّل أولاً وقبل أيِّ شيء في الهيمنة الثقافية، المؤسسة عبر انتشار الأفكار العلمانية، والفسوق، واللغات الأجنبية، والعقل، والأسماء، والطعام والأزياء... لقد استُبدِلَ بناء مجتمع أخلاقي وأيديولوجي حصراً بتحرُّر اجتماعي من التبعية»[١٧]. إنَّ هذه حالة تنتمي بالكامل إلى ما بعد الحداثة.

لقد أثبتُّ في موقع آخر أنَّ ما بعد الحداثة الغربية تمتد بعض جذورها في فشل السياسة الثورية[١٨]. بطريقة مماثلة، لم تنشأ الراديكالية الإسلامية فقط من ردّة فعل ضد السياسة الغربية المفترسة،

١٧- آصف بايات، «Islamism and Empire: The Incongruous Nature of Islamist Anti-Imperialism» من كتاب ***«Socialist Register»*** (لندن: دار مرلن، ٢٠٠٨) الصفحتان ٤٣ و ٤٩.

١٨- انظر تيري إيغلتن، من كتاب **«The Illusions of Postmodernism»** (أوكسفورد: دار باسيل بلاكويل، ١٩٩٦) الفصل الأول.

Tele: @Arab_Books

ولكن أيضاً، كما رأينا توّاً، من سحق أشكال متنوعة من العلمانية، والليبرالية، والقوميّة والاشتراكية الإسلامية. إنَّ التشدُّد الإسلامي هو، من بين أشياء أخرى، إجابة خبيثة على هزيمة اليسار المُسلم – هزيمة تورَّطَ الغربُ بنشاط في التآمُر على وقوعها. وهذا أحد المعاني العديدة التي يُفهَم منها أنَّ الدجاج يعود إلى بيته لكي يفقس. في بعض الأماكن تحل لغة الدِّين محل الجدال السياسي. وقد يقول قائل، إنَّ هذا هو النقيض المباشَر للاهوت التحرُّر المسيحي، الذي يسعى إلى توحيد الاثنين. وكما يُشير بايات، إنَّ أبطال ذلك اللاهوت لا يسعون أبداً إلى جعل الدولة مسيحية، كما يسعى الإسلاميون الراديكاليون إلى أسلمة مجتمعاتهم. وثمة مذهب ثقافة culturalism مشابه يميِّز فكر الأيديولوجي الغربي صمويل هنتنغتون، الذي تُعرِّف دراسته المؤثِّرة *The Clash of Civilization «صدام الحضارات»* الحضارات بالدرجة الأولى (إنَّ هنتنغتون غير متأكّدَ تماماً من عدد تلك الوحوش المراوغة) بلغة ثقافيّة ودينية.

إنْ كانت السياسة قد فشلت حتى الآن في توحيد بؤساء العالم باسم تغيير أحوالهم، نستطيع أنْ نتيقَّن من أنَّ تلك الثقافة لن تُنجز المهمة بدلاً عنها. إنَّ الثقافة تتعلّق بصورة مفرطة بالتوكيد على ما أنت عليه أو ما كنته، لا على ما يمكن أنْ تصير إليه. إذن، ماذا عن الدِّين؟ إنَّ ما نعرفه هو كما رأى العالم المسيحي نفسه كوحدة من الثقافة والحضارة. فإنْ كان الدِّين قد برهنَ إلى أقصى مدى على أنه الشكل الأقوى، والأكثر تماسُكاً وعالميّاً في رمزيته أفرزته الإنسانية، فإنَّ ذلك قد حدث جزئيّاً لهذا السبب. أيّ شكل رمزيّ آخر نجح في صياغة مثل تلك الصّلات المباشرة بين أشد الحقائق جوهرية وعالمية والممارسات اليومية لملايين لا حصر لها من البشر؟ أيّ أسلوب آخر في الحياة جمع بين أشدّ الأفكار تسامياً والوقائع الإنسانية الملموسة في مثل تلك العلاقة

Tele: @Arab_Books

الحميمة؟ لقد مدَّ الإيمان الديني خطّاً ساخناً من الداخل الإنساني إلى السلطة المُطلقة – وهو إنجاز لا يسع أنصار الثقافة إلّا أنْ يُحدقوا إليه بحسد. لكنَّ الدِّين يُعادل الثقافة في قوته على تحرير المحروم. وفي الغالب، لا يُبدي أدنى اهتمام بفعل ذلك.

مع قدوم الحداثة، أصبحت الروابط بين الثقافة والحضارة تتمزق إرباً باطّراد. والدِّين يُدفَع به أكثر فأكثر نحو منطقة خاصة، أو نحو عالم من الثقافة اليومية، في الوقت الذي تنتقل فيه السلطة السياسية إلى أيدي دولة علمانية. إنَّ الدِّين يُمثّل إيماناً أكثر من قدرة الدولة الليبرالية على تحمّلهَ بارتياح، ولكنْ قد يكون قسرها على ذلك لصالحها. وبالإضافة إلى المجالين الرمزيين الآخرَين الفن والشهوة الجنسية، ينفصل الدِّين نوعاً ما عن السلطة العلمانية؛ وكانت نتيجة هذا التخصيص للأشكال الرمزية الثلاثة ذات حَدَّين بصورة ملحوظة. فمن ناحية، يمكنها أنْ تعمل عمل المصادر الثمينة للقيمة البديلة، وبالتالي للنقد السياسي؛ ومن ناحية أخرى، سبَّب انعزالها عن عالم العامة أنها أضحت مَرَضيّة باطراد.

إذن، إنَّ النظام العالمي السائد يواجه اختياراً غير مرغوب فيه. فإما أنْ يضع ثقته في مزايا نزعته البراغماتية المتأصّلة في وجه نزعة عدوه إلي المُطلق، وهذه مغامرة محفوفة بالخطر؛ أو ينكفئ إلى قيم ميتافيزيقية خاصة به، كما قد يصرّ المتطرفون الغربيون. لكنَّ هذه القيم تصبح أكثر فأكثر بالية وغير مرغوبة. قد ترى الله كرئيس مكتب التفتيش في سماء هولندا، في ميتشيغان، لكنَّ هذا الرأي من المُستبعَد أنْ يجد مَنْ يقبله في مونستر، أو مانشستر. هل يحتاج الغرب إلى أنْ يصبح ميتافيزيقيّاً بكل معنى الكلمة لكي يُنقذ نفسه؟ وإذا أصبح كذلك، هل يستطيع أنْ يفعل من دون أنْ يُسبب الكثير من الضرر لقيمه الليبرالية، العلمانيّة، ويضمن مع ذلك وجود شيء يستحق الحماية من خصومه غير الليبراليين؟

Tele: @Arab_Books

إذا كانت الماركسية تعدُ بالمُصالحة بين الثقافة والحضارة، فذلك لأنَّ مُؤسسها كان، من بين أشياء أخرى، إنسانيّاً رومانسيّاً ووريث عقلانيّة عصر التنوير. إنَّ الماركسية تدور حول الثقافة والحضارة معاً – الخصوصية الحسيّة والعالميّة، العامل والمواطن العالمي، التحالفات المحلية والتضامن العالمي، المعرفة الذاتية الحرة لأفراد من لحم ودم ورابطة عالمية متعاونة تتألّف منهم. لكنَّ الماركسية عانتْ في زمننا من رفض سياسي مُذهل؛ وأحد تلك الأماكن التي هاجرت إليها تلك الدوافع الراديكالية هي – دون الأشياء كلها – اللاهوت. إنَّ المرء يمكن أنْ يعثر هذه الأيام في بعض قِطاعات اللاهوت على بعض من أشد نقاشات ديلوز وباديو، وفوكو ومناصرة حقوق المرأة، وماركس وهايديغر، علماً وحيوية.

وهذا ليس أمراً مُفاجئاً كثيراً، بما أنَّ اللاهوت، مهما بدا العديد من جوانب حقيقته بغيضاً، هو أحد أشد المجالات النظرية طموحاً المتبقية في عالمٍ يُصبح تخصُّصيّاً باطّراد – موضوعه ليس أقلّ من الطبيعة ومصير البشرية نفسها، في صِلتهما بما يلزم ليكونا منبع حياته السامي. وليست هناك أسئلة يمكن طرحها في الفلسفة التحليلية أو في العلوم السياسية. إنَّ نأي اللاهوت عن القضايا البراغماتية هي ميزة في هذا المجال. إذن، نحن نجد أنفسنا في أشد المواقف غرابة، في عالم يُصبح فيه اللاهوت باطّراد جزءاً من المشكلة، كما يمكن لديتشكينز أنْ يعتبر، فإنه أيضاً يُعزز نوعاً من التفكير النقدي يمكن أنْ يُساهم في الخروج ببعض الإجابات. هناك دروس يمكن لليسار العلماني أنْ يتعلّمها من الدِّين، على الرغم من ممارساته الوحشية وحماقاته، واليسار لا يزخر بالأفكار بحيث يرفض هذه الهدية.

هل سيُصغي أيٌّ من الطرفين إلى الآخر في الوقت الحاضر؟ هل سيقرأ ديتشكينز هذا الكتاب ويأتيه الإلهام الذي يمهِّد له الطريق؟

Tele: @Arab_Books

وإذا استخدمنا اللغة اللاهوتية على سبيل الجواب نقول: أمل إبليس في الجنة. إنَّ المواقع في الوقت الحاضر محصَّنة جيداً إلى درجة لا تسمح بإجراء مثل هذا الحوار. إنَّ التفاهم المتبادَل لا يحدث ببساطة في أيّ مكان، كما يفترض بعض الليبراليين. إنَّ الأمر يتطلَّب توفُّر ظروفه المادية. ولا يبدو أنها ستتوفر ما دام ما يُسمّى بالحرب على الإرهاب مستمرة.

إنَّ التمييز بين ديتشكينز وأمثالي ينتقل في نهاية المطاف ليُصبح بين المذهب الإنساني الليبرالي والإنساني المأساوي. هناك أشباه ديتشكينز الذين يعتقدون أنه إذا استطعنا أنْ نتخلّص من إرث الأسطورة والخرافة السامّ، يمكننا أنْ نتحرَّر. إنَّ هذا في اعتقادي الخاص بحد ذاته أسطورة، لكنها أسطورة تتصف بسماحة الروح. إنَّ النزعة الإنسانية المأساوية تتقاسم مع الإنسانيّة الليبرالية رؤيا الازدهار الحر للإنسانيّة؛ ولكن يُعتقَد أنَّ هذا ممكن فقط بمواجهة الأسوأ. إنَّ التشديد الوحيد على الإنسانية الذي يستحق الحصول عليه في نهاية المطاف هو ذاك الذي، مثل ميلتون ما بعد عصر الإصلاح المتحرر، يتساءل بجديّة ما إذا كانت الإنسانية تستحق الاحتفاظ بها أصلاً، ويستطيع أنْ يرى ما كان يدور في خلد ملك بروبدينغنا غ[١٩] في رواية جوناثان سويفت وهو يصف الأنواع البشرية بأنها أشبه بسلالة بغيضة من الحشرات. والنزعة الإنسانية المأساوية سواء بتشكيلاتها الاشتراكية، أو المسيحية، أو المُحللة نفسيّاً، ترى أنَّه فقط بإنكار الذات والتجدُّد الراديكالي يمكن للإنسانية أنْ تعود إلى ذاتها[٢٠]. ليس هناك ما يضمن

١٩- ملك أرض العمالقة في رواية جوناثان سويفت «*رحلات غاليفر*». - المترجم

٢٠- من أجل الحصول على تصريح قوي حول هذا الرأي، انظر كتاب ريموند وليامز «***Modern Tragedy***» (لندن: دار تشاتو أند ويندوس، ١٩٦٦) الجزء الأول، والجزء الرابع.

Tele: @Arab_Books

أنَّ مثل هذا المستقبل المتجدد سيولد. لكنه قد يصل في وقت مبكر قليلاً إذا لم يستمر الدوغماتيون الليبراليون، والنظريون المُهللون للتقدُّم، والمُثقفون المبغضون للإسلام في اعتراض كل منهم طريق الآخر.

انتهى-

Tele: @Arab_Books

الفهرس

محاضرات مؤسسة دوايت هارينغتُن تيري حول الدِّين على ضوء العِلم والفلسفة ٧

مقدمة ٩

الفصل الأول

حثالة الأرض..... ١٣

الفصل الثاني

خيانة الثورة..... ٥٩

الفصل الثالث

الإيمان والعقل ١١٩

الفصل الرابع

الثقافة والهمجيّة ١٤٩

Tele: @Arab_Books

تمت

14/1/2018

Telegram: @Arab_Books

Tele: @Arab_Books

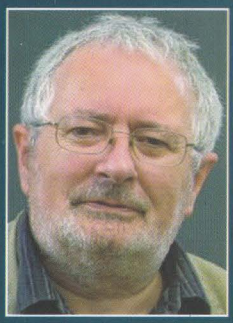

لقد تسبَّبَ الدِّين ببؤس لا يوصَف في الشؤون الإنسانية. في أغلب الأحيان كان حكاية تُثير الاشمئزاز عن التعصّب الأعمى، والتطيُّر، والتمنّي، والفِكر المُستبد. لذلك فأنا أكنُّ الكثير من التعاطُف مع نُقّاده العقلانيين والإنسانيين. ولكن يقول هذا الكتاب أيضاً إنَّ غالبية هؤلاء النقّاد يرفضون الدِّين بسهولة. وعندما يتعلّق الأمر بالعهد الجديد، على الأقلّ، فإنَّ ما يكتبون عادة لا يعدو كونه صورة كاريكاتيرية لا قيمة لها للشيء الحقيقي، متأصّلاً في قدرٍ من الجهل والتحامُل تماشياً مع ما يحتويه الدِّين. تماماً كرفض المساواة بين الجنسين على أساس آراء كلينت إيستوود فيها.

إنني في هذا الكتاب أُجادلُ الجهل والتحامُل. فإنْ كان اليسار اللاأدري لا يتحمَّل الكسل الفكري عندما يتعلّق الأمر بالكتب المقدسة اليهودية والمسيحية، فذلك ليس فقط لأنَّ مواجهة الخصم شديد الإقناع يستلزم العدالة والصدق، بل أيضاً لأنَّ الراديكاليين قد يكتشفون بعض الأشياء البصيرة القيّمة في التحرُّر الإنساني، في منطقةٍ يقفُ فيها اليسار السياسي وهو في أمسّ الحاجة إلى الأفكار الجيدة.

إنني لا أدعو مثل هؤلاء القرّاء إلى الإيمان بهذه الأفكار أكثر من إيماني بالملاك جبريل، وبعصمة البابا، وبفكرة أنَّ يسوع مشى على الماء، أو بالادّعاء بأنه ارتفعَ إلى السماء أمام عيون مُريديه. فإذا حاولت في هذا الكتاب أنْ «أقول من بطني» ما أعتبره نسخة المزمور المسيحي المتعلِّق بالراديكاليين والإنسانيين، فلا أرغب في أنْ يُساء فهمي ويُقال عني إني أبله. لكنَّ الكتب المقدّسة اليهودية والمسيحية لديها الكثير لتقول كإجابة عن بعض المسائل الحيوية -كالموت، والمُعاناة، والحب، وإنكار الذات، وما شابهها -التي يَلزَم اليسار الصمتَ المُربك حيال معظمها. لقد حان الوقت لإنهاء هذا الحياء السياسي المُعيق.

ISBN 978-2843091520
9 782843 091520

Telegram: @Arab_Books